وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية

تجديدات الأندلسيين في النثر العربي

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب
إبراهيم موسى جابر السهلي



إشراف
الأستاذ الدكتور
عبد البصير عبد الله حسين

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

"" شكـــر وتقديـــــر ""

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ٠

وبعد : فيقول صلى الله عليه وسلم : " لايشكر الله من لايشكر الناس "[(١)] ومن هذا المنطلق أرى لزاما علىّ أن أعترف بالجميل والفضل لأهله ٠٠٠ فأتقدم بالشكر والتقدير لجامعة أم القرى الفتية التى أتاحت لى الفرصة للدراسة فيها ٠٠ والاستفادة من منابر العلم بها وعلى رأسها معالى مديرها الدكتور راشد الراجح ٠٠٠ ثم أشكر كلية اللغة العربية التى شرفت بالانتماء اليها ٠٠٠ وعلى رأسها سعادة عميدها الدكتور عليان بن محمد الحازمى فقد كان لايألو جهدا ولا يدخر وسعا فى دفع طلابه الى الأمام ٠٠٠ ومساعدتهم فى جميع متطلباتهم ٠٠٠ فجزاه الله عنهم خير الجزاء ٠٠٠ وان أنسَ لا أنسى من له الفضل بعد الله سعادة أستاذى المخلص الدكتور عبد البصير عبد الله حسين ، فقد كان ردءا لى فى كل معضلة ٠٠٠ وانى لأقولها صادقا : لقد كان خير موجه ومرشد لى فى هذا البحث ٠٠٠ وكم أفدت من علمه الغزير ، ومنهجه الفذ فى اعداده ٠٠٠ أسأل الله أن يثيبه حسن الثواب لقاء ما أولانى اياه من اهتمام ومتابعة ٠٠٠

كما أشكر سلفا أصحاب السعادة أعضاء لجنة المناقشة الموقرين ، سائلا الله العلى القدير أن ينفعنى بحسن توجيهاتهم وملاحظاتهم القيمة ٠٠٠ وأشكر كل من أسدى الى نصحا أو وجهة نظر من أساتذتى الكرام ، وزملائى الأوفياء والله الهادى الى سبيل الرشاد ٠

=ههههههه=

(١) الحديث فى مسند أحمد : ٢٤٦/٣، وسنن أبى داود : ٢٥٥/٢ ٠

المقدمة

اللهم انا نحمدك ونستغفرك ،ونتوب اليك ونعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك ،من فتنة العمل ،ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

وبعـــد :

فقد كان مما لفت نظرى وشد انتباهى ، ان معظم الدارسين للأدب العربى فى الاندلس فى القديم والحديث ،يلتقون عند امرين :

الامر الاول : وضع هذا الادب فى مقابل الادب العربى فى المشرق وكأننا امام ادبين مستقلين،لاامام ادب عربى واحد،ومن ثم يرتبون على هذه النظرة المنهجية الخاطئة،احكاما فنية مغلوطة .

الامر الثانى : النظر الى الادب العربى فى الاندلس على انه مجرد صدى للادب العربى فى المشرق ،وهى مقولة مترتبة بالطبع والوضع على المقولة الاولى ،التى تكاد لكثرة ترديدها تأخذ طابع المسلمات .

حتى القلة القليلة من الباحثين الذين يأخذون جانب الدفاع عن الادب العربى فى الاندلس فى القديم والحديث ينطلقون فى دفاعهم من نفس النظرة المنهجية الخاطئة التى تستند اليها الطائفة الاولى ،ومن ثم يبالغون فى اضفاء طابع الاستقلال عليه ،ويتلمسون له ملامح متميزة ،ويضيفون اليه من المناقب والمزايا ماشاء لهم حماسهم وكرمهم .

والواقع ان الادب العربى فى الاندلس ليس تابعا للادب العربى فى المشرق وليس مستقلا عنه لسبب بدهى جدا هو انه جزء من الادب العربى ... لايوصف بالتبعية أو الاستقلال ...

ولذلك فان هذه الدراسة المتواضعة التى اتقدم بها الى جامعة أم القرى الفتية لاتنفى عن الادب العربى فى الاندلس تأثره بالادب العربى فى المشرق ،ومع هذا ترفض منهج الطائفة الاولى بشقيها فى القديم والحديث ... ولاتنكر عليه حقه الطبيعى فى النمو والتجدد والابتكار،ومع هذا ترفض منهج الطائفة الثانية بشقيها فى القديم والحديث .

انها تحاول ان تطرح القضية فى ظل مفهوم جديد تضع به الادب العربى فى الاندلس فى سياقه المحتوم من الادب العربى العام بحسبانه جزءا منه .. تربطه به وحدة لاانفصام لها،يحرسها الدين واللغة،وتقاليد الفن ..

وفى ضوء هذا المفهوم اخترت لاطروحة الماجستير المقدمة لقسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية،قضية طالما اشتد الخلاف حولها ... وهى قضية التجديد بل الابتكار فى هذا الادب ،وجعلت مجال البحث فى فن النثر منه ،فكان عنوان الرسالة " تجديدات الاندلسيين فى النثر العربى " . واضعا فى الاعتبار ان النثر الفنى فى الادب العربى فى الاندلس جزء لايتجزأ من فن النثر فى الادب العربى العام .

وقد اقتضت طبيعة الدراسة ان يجىء البحث فى : مدخل ،وثلاثة ابواب ،وخاتمة .

اما المدخل : فقد وقفته على معالجة قضية " الادب العربى فى الاندلس بين الاتباع والابتداع " .

وقد اقتضت منى معالجة هذه القضية ان اتتبع جذورها تاريخيا من يوم ان اطلق كافى الكفاة ابو القاسم اسماعيل الصاحب بن عباد الوزير الخطير لمؤيد الدولة قالته المشهورة : " هذه بضاعتنا ردت الينا" تعليقا على موسوعة (العقد) الادبية الجليلة لصاحبها الاديب المثقف الاندلسى العظيم ابى عمر احمد بن محمد بن عبد ربه وطارت مقولة الصاحب فى ارجاء العالم الاسلامى كل مطار، يدعمها مكانة الرجل الادبية ومنصبه المرموق ... وجعلت تتردد فى اسواق الادب ومحافل الثقافة ... حتى التقطها الحسن بن محمد بن الربيب القيروانى ... ثم ابو يحيى بن المعلم الطنجى ... واستغلاها استغلالا منكرا فى اذكاء الاحقاد الثقافية بين العدوتين ... وجعلا يرميان الاندلسيين فى شئون الفكر والادب بالقصور والاهمال ...

وهنا انتفض العالم الجدل على بن سعيد بن حزم غاضبا .. فكتب رسالة فى فضل اهل الاندلس يرد بها على ابن الربيب .. وانبرى اسماعيل بن احمد الشقندى فكتب رسالة حارة فى اظهار فضل الاندلس واشهار محاسن اهلها يرد بها على ابن المعلم ....

وقد انقشعت هذه المعركة الحادة عن اتجاه خطير، هو الاحتكام الى شىء بالغ الخطورة فى الدراسة الفكرية والفنية ... اضر بقضايا الادب والفكر اضرارا بالغا، ذلك هو الانحياز الى العصبية الاقليمية عند الغالبية العظمى من الدارسين المتقدمين ... وكان من اوضح هذه الآثار تقسيم الادب العربى الى مشرقى واندلسى .

اما فى العصور الحديثة والمعاصرة ،فقد استبدل الدارسون للادب العربى فى الاندلس الاقليمية العلمية بالعصبية الاقليمية محتكمين الى نظرية الناقد الفرنسى " هيبوليت تين" التى تعتمد فى منهج الدرس الادبى على مقولات ثلاث : الجنس ،والزمان ،والمكان .

ومن المفارقات العجيبة ، ان الدارسين المحدثين حين يعالجون قضايا الأدب العربى في المشرق يحتكمون الى مقولة " الزمان" فيقسمونه الى العصور المعروفة : الجاهلى ،والاسلامى ،والاموى ،والعباسى والدول المتتابعة ،والحديث .

اما حين يعالجون قضايا الادب العربى فى الاندلس فيحتكمون الى مقولة : "المكان" .

وهكذا تبرز من جديد قضية الادب الاندلسى بازاء الادب المشرقى.

العصبية الاقليمية فى القديم ،والاقليمية العلمية فى الحديث مسئولتان عن تشويه الدراسات فى الادب العربى بعامة ،والادب العربى فى الاندلس بخاصة ...

لقد نسى هؤلاء الدارسون ان الادب العربى فى الاندلس والادب العربى فى العراق والشام،ومصر ،والجزيرة العربية سواء ...وكما لايصح ان يقال : ادب عراقى وادب شامى ،وادب مصرى ... لايصح كذلك ان يقال : ادب اندلسى ... لان التقاليد الفنية التى تحكم كل هذه الفروع واحدة ...

انه ادب عربى .. وكفى ....

واية ذلك انه اذا تلألأنجم ادبى كبير فى اى من هذه الاقاليم فان سناه لايلبث ان ينعكس فى سائر الاقاليم . واذا ظهر جنس ادبى

جديد فى اى منها ... فان صداه لايلبث ان يتردد فى سائرها ..
وامامنا المثل الشاخص فى " فن التوشيح" فقد نجم فى الاندلس ...
وكتبت " نوتته "الموسيقية فى مصر ،وذاع امره فى بقية الاقاليم .

ونحن مع ذلك لاننكر اثر البيئة المكانية فى الادب ،ولكننا
ننكر ان اثرها هو الشىء الحاسم فيه ... فقد تؤثر فيه تأثيرا
قشريا خارجيا قد لايتعدى الموضوعات والاغراض ، اما التأثير
الجوهرى الداخلى فهو وقف على التقاليد الفنية وحدها التى
تتجاوز حدود الجنس والزمان والمكان .

وأمامنا الآن الادلة الواضحة : فالمذهب الادبى اليوم يظهر فى
اقصى الارض فلا يلبث ان يتردد صداه في سائرها ... بل انه قد ينقضى
امره تماما فى موطن ظهوره ،ولكنه يزدهر فى مواطن اخرى نائية
عنه ... ذلك ان الادب يتغذى من الادب لامن شىء خارج عنه ...

اذن فالادب العربى فى الاندلس ليس تقليدا للادب العربى فى
المشرق ... بل هو جزء منه ...

وفى ضوء هذا المفهوم الواضح اخترت ثلاثة اعمال ادبية من
(فن النثر) فى الاندلس ،لابرز ملامح التجديد ،بل الابتكار فيها
ولاضعها فى مكانها الفنى الملائم فى السياق العام للادب العربى
ككل .

وقد وقفت على معالجة كل عمل من هذه الاعمال بابا مستقلا .

الباب الاول :

وقد اخترت له قصة تعالج تجربة خيالية،عنوانه :

(رحلة ابن شهيد فى ارض الجن) او (رسالة التوابع والزوابع) .

وقد قسمته الى ثلاثة فصول :

الفصل الاول : (ابن شهيد بين ادباء الجن ونقادهم) .

وقد وقفت هذا الفصل على تناول القضايا الآتية :

(أ) شياطين الشعراء .

(ب) توابع الكتاب .

(ج) نقاد الجن .

(د) ادباء حيوان الجن .

الفصل الثانى : (البناء الفنى لقصة التوابع والزوابع) .

وقد وقفت هذا الفصل على تناول القضايا الآتية :

(أ) الوسائل الفنية المستخدمة فى القصة .

(ب) المصادر الملهمة بالقصة .

(ج) بين " التوابع والزوابع" و " رسالة الغفران" .

(د) خيال ابن شهيد .

الفصل الثالث : (قيم نقدية لابن شهيد) .

وقد وقفت هذا الفصل على تناول القضايا الآتية :

(أ) الادب المتجدد .

(ب) اختلاف الذوق الادبى باختلاف العصور .

(ج) علاقة التكوين النفسى بالتكوين الجسدى واثر ذلك فىالادب .

(د) الموهبة والمعرفة .

(هـ) السرقات الادبية .

(و) اللفظ والمعنى .

(ز) وحدة العمل الادبى .

الباب الثانى :

وقد اخترت له عملا فنيا يحتضن تجربة عاطفية ،عنوانه :

(اعترافات ابن حزم العاطفية) او (طوق الحمامة) .

وقد قسمته الى ثلاثة فصول :

الفصل الاول : (الحب قبل الطوق وبعده) .

وقد وقفت هذا الفصل على تناول القضايا الآتية :

(أ) مؤلفات قبل (طوق الحمامة) .

(ب) مؤلفات بعد (طوق الحمامة) .

(ج) اثر السالفين فى (طوق الحمامة) .

(د) اثر (طوق الحمامة) فى الخالفين .

الفصل الثانى : (تجارب ابن حزم الذاتية وتحليله النفسى لعاطفة الحب وشخصيات المحبين) .

وقد وقفت هذا الفصل على معالجة القضايا الآتية :

(أ) تجارب ابن حزم الشخصية .

(ب) تجارب يرويها عن غيره من الثقات .

(ج) تحليله النفسى لعاطفة الحب .

(د) تحليله النفسى لشخصيات المحبين .

الفصل الثالث : (الملامح الفنية والفكرية فى " طوق الحمامة") .

وقد وقفت هذا الفصل على معالجة القضايا الآتية :

(أ) ملامح مشتركة بين " طوق الحمامة" وغيره .

(ب) ملامح ينفرد بها " طوق الحمامة" عن غيره .

(ج) مفهوم نظرية " الحب" عند ابن حزم .

(د) مناقشة آراء المستشرقين حول الحب عند ابن حزم .

(هـ) الوسائل الفنية فى " طوق الحمامة" .

(و) خصائص اسلوب ابن حزم بوجه عام .

الباب الثالث :

وقد اخترت له قصة تحتضن تجربة ذهنية عنوانه :

(مغامرة الفكر بين رياض الفن) او قصة (حى بن يقظـــــان) لابن طفيل .

وقد قسمته الى ثلاثة فصول :



الفصل الاول : (قصة حى بن يقظان ونظائرها .

وقد وقفت هذا الفصل على معالجة القضايا الآتية :

(أ) نظائر سبقت (قصة حى بن يقظان) لابن طفيل .

(ب) نظائر كتبت بعدها .

(ج) موازنة بين (حى بن يقظان) لابن سينا و(حى بن يقظـــــان) لان طفيل .

(د) نظائر واقعية : تاريخية ،ومعاصرة .

(هـ) خيال ابن طفيل .

الفصل الثانى : (حى بن يقظان) فى جزيرة المجهول) .

وقد وقفت هذا الفصل على معالجة القضايا الآتية :

(أ) الرحلة البحرية للطفل الرضيع (حى) فى التابوت .

(ب) (حى) على شاطىء المجهول .

(ج) الظبية الظئر .

(د) (حى) وتجاربه فى الكون والحياة .

(هـ) لقاء (حى) مع (ابسال) .

(و) رحلة (حى) فى رفقة (ابسال) الى جزيرة (سلامان) .

(ز) حياة التأمل .

الفصل الثالث : (قصة حى بن يقظان بين الفن والفكر) .

وقد وقفت هذا الفصل على معالجة القضايا الآتية :

(أ) ماهو فن،وماهو فكر فى رائعة ابن طفيل .

(ب) العناصر القرآنية فى بناء القصة .

(ج) (المعرفة الحسية)فى القصة :(منهجها ،ومصدرها).

(د) (المعرفة الحدسية) فى القصة (منهجها ومصدرها .

(هـ) موقف الاسلام من المعرفة الحدسية .

خاتمة :

وقد وقفتها على تسجيل نتائج البحث .

والحمد لله فى الاولى والآخرة .

مَدخلٌ

« الأدب العربي في الأندلس بين الأتباع والإبتداع »

حدثوا : ان الصاحب بن عباد[1] حين تصفح كتاب العقد

لابى عمر احمد بن محمد بن عبد ربه[2] قال مستخفا : " هذه بضاعتنا

---

(١) ترجمته فى يتيمة الدهر(١٩٢/٣)،معجم الادباء (١٦/٦) ،بغية الوعاة (ص١٩٦) .

ويضم كتاب " اخلاق الوزيرين" لابى حيان جملة كبيرة من اخباره وقد الف فيه الشيخ محمد حسن ال ياسين كتابا ونشر عددا من اثاره ،وهناك مجموعة من رسائله حققها الدكتوران عبد الوهاب عزام ،وشوقى ضيف ، القاهرة سنة ١٣٦٦هـ، اما اخباره السياسية ففى الكتب التى تناولت تاريخ بنى بويه ،ينظر ابن خلكان (٢٨٢/١) .

(٢) ترجمته ،واخباره فى تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى رقم (١١٨) ،وجذوة المقتبس للحميدى رقم (١٧٢) ،وفى " بغية الملتمس " للضبى رقم (٣٢٨) و " مطمح الانفس " لابن خاقان (ص ٥٨) ،وفى معجم الادباء لياقوت (٢١١/٤ ـ ٢٢٤) ،وفى " وفيات الاعيان" (٣٢/١ ـ ٣٣) ،وفى " المطرب" لابن دحية (ص ١٥١) وما بعدها .. واقرأ حياته مفصلة فى كتاب " ابن عبد ربه وعقده ". لجبرائيل جبور (بيروت سنة ١٩٣٣م) .

ردت الينا ،ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم فاذا هو يشتمل على اخبار بلادنا .. ولاحاجة لنا به " ...[٣] يقصد ان صاحب (العقد) عيال في موسوعته الادبية الكبيرة على مجهودات المشارقة..[٤] وانه لم يقدم في هذا الميدان جديدا .

ومن الحق ان كتاب " العقد" يعتبر زبدة ماوعته مؤلفات الاصمعي ،وابي عبيدة ،والجاحظ ،وابن قتيبة ... وغيرهم ممالاحاجة للصاحب بن عباد به .. ولكنه كان حريا به .. وهو صاحب الذوق المثقف ،والذهن المترف ان يستوقفه مايتميز به هذا الكتاب الغني الانيق : من جمال في التبويب ،وروعة في الترتيب ،وخلابة في الاخراج .. مما جعله بين المؤلفات عقدا.. وفي المنهج فريدا .

على انه لم يدر في خلد كافي الكفاة ان ابا عمر انما الف كتابه الجليل .. وحشد فيه ماحشد من كنوز العرب في الشعر والنثر والخبر والامثال والحكم .. وعلوم الانساب .. والعروض والطب والموسيقى .. بل وغرائب المترجمات عن الفرس والهنود ،والاغريق من ضروب الحكمة ،وافانين العظات .. ليكون في المقام الاول ، زادا طيبا ،ومرجعا مقنعا لطلاب المعرفة ولشداة الادب في ارض الاندلس .

هذا الى ان ابا القاسم الصاحب بن عباد .. لو كان يعلم

---

(٣) معجم الادباء (٤/٢١٤ – ٢٨٥) .

(٤) ذكر هذا الكتاب في المراجع القديمة باسم " العقد" واول من اضاف اليه كلمة "الفريد" الابشيهي في كتابه "المستطرف" ،انظر (ابن عبد ربه وعقده) د. جبرائيل جبور (ص ٤٧ – ٥٠) وأنظر كتاب " الادب الاندلسي " د. احمد هيكل (ص ٢٥٨ – ٢٥٩).

ان كتاب (العقد) سيصبح آخر المطاف واحدا من الاصول القليلة والامهات المعتمدة .. والتى لن يستغنى عنها باحث او دارس لآداب لغة العرب فى مغرب الارض ومشرقها سواء بسواء .. لتروى فى الامر كثيرا قبل أن يطلق قالته المشهورة .

ولو كان يعلم ايضا ان هذه الموسوعة الغالية الثرية ستؤدى للخالفين من طلاب المعرفة فى هذه الامة بعض ماضاع من تبسرات السالفين من الرواد .. اذا لغالى فى تقديرها ،واستقبلها بما تستحقه من تجلة وتوقير ..

والعجب العجيب ان الصاحب بن عباد تجاهل ان (عقد) ابى عمر ليس كله بضاعة مشرقية وان فيه تاريخا لبعض من خلفاء بنى امية فى الاندلس ... كما ان فيه جملة صالحة من شعر ابى عمر نفسه (٥) الذى تحدى به اشعار المشارقة ،وزاحم في بعض فنونه صريع الغوانى مسلم بن الوليد . ترى .. هل كان موقف الصاحب من العقد وصاحبه (٦) يتصل من قريب او بعيد بموقف المتنبى من ابن عبد ربه ...؟

رووا : ان ابا الطيب لقى ابا الوليد بن عسال الاندلسى فى مسجد عمرو بن العاص ... وبعد حديث جرى بينهما قال المتنبى الانشدنى لمليح الاندلس ـ يقصد ابن عبد ربه ـ فأنشد بعضا من رقائق شعره ،فلما اكمل الاندلسى انشاده ،استعاده ابو الطيب ،ثم

---

(٥) العقد (٤٨٨/٤ ـ ٥٠٠) ت/ أحمد أمين وآخرون ،دار الكتاب العربى ،بيروت (١٤٠٣هـ) .

(٢) العقد (٣٩٨/٥ـ ٤٠٠) .

صفق بيديه ،وقال : يابن عبد ربه ...لقد تأتيك العراق حبوا .. (٧)

فهل كان لاعجاب المتنبى بشعر ابن عبد ربه .. ثم لتلقيبه اياه بمليح الاندلس صلة بموقف ابن عباد من العقد وصاحب العقد ؟

نحن نعلم سلفا نوع المشاعر التى كان يضمرها كافى الكفاة لاحمد بن الحسين .. ومشهور ذائع بين المتأدبين ماقاله عنه فى كتابه اللاذع (الكشف عن مساوىء شعر المتنبى) . (٨)

وليس من شك فى انه من حقنا ان نتوقف امام هذا كله ..

تلك هى ابرز معلمة فى تاريخ الادب العربى ،وضعت خطا فارقا بين المشارقة والاندلسيين .. وجعلت تعمق نوعا من الحساسية القائمة بين مشرق العرب ومغربهم .. وربما ماتزال تعمل عملها حتى اليوم فى نفوس المثقفين . (٩)

على كل حال لقد نجحت مقولة الصاحب بن عباد وكتب لها البقاء .. وجعلت تفعل افاعيلها بين اهل الادب يتلقفها الخلف عن السلف ... حتى اصبحت تهمة تخلف الاندلسيين عن اهل المشرق قضية شبه مسلمة .. والادهى من ذلك ان اهل المغرب المصاقبين لعرب الاندلس قد استقرت هذه المقولة بينهم .. وجعلوا يعيرون عرب الاندلس

---

(٧) ابن خلكان (١/٢٣٠) .

(٨) وفيات الاعيان (١/٢٣٠) .

(٩) يرجع الى مقالات نشرتها مجلة الدوحة التى تصدر بقطر لثلاثة من كتاب المغرب من امثال عبد الكريم خليفة ،وعباس الجرارى ومحمد مزالى وطائفة من كتاب المشرق من امثال رجاء النقاش ومحمد جابر الانصارى وفهمى هويدى سنة ١٩٨٥ - ١٩٨٦م . ومع الاسف فقد توقفت هذه المجلة المهمة .

وينسبون اليهم التقصير فى مختلف شئون التفكير (١٠) ... وظلت مشاعر الغيرة ،والتنافس تغذى هذه القضية بين العدوتين ... حتى تحرك ابو على بن الربيب القيروانى ،فكتب الى الوزير ابى المغيرة عبد الوهاب بن حزم ،رقعة يوجه فيها اللوم الى اهل الاندلس (١١) .. ويتهم فيها اهل العلم من اهلها بالتقصير ... ويشير الى مقولة الصاحب ابن عباد السالفة عن كتاب " العقد" ... حيث يقول :

" انى فكرت فى بلدكم اهل الاندلس ... مع كثرة علمائه ووفور ادبائه ،ثم هم مع ذلك فى غاية التقصير ،ونهاية التفريط من اجل ان علماء الامصار دونوا فضائل اعيانهم ،وقلدوا الكتب مآثر اقطارهم .. فأبقوا لهم ذكرا فى الغابرين ،ولسان صدق فى الآخرين وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم ،كل امرىء منهم قائم فى ظله لايبرح ،وثابت على كعبه لايتزحزح ،يخاف ان صنف ان يعنف ،... لم يتعب نفسا احد منهم فى مفاخر بلده ،ولم يستعمل نقسا فى فضائل ملوكه ،ولابل قلما بمناقب كتابه ووزرائه ،ولاسود قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه ،على انه لو اطلق ماعقل الاغفال من لسانه ،وبسط ماقبض الاهمال من بيانه ،لوجد للقول مساقا ،ولم تضق عليه المسالك هنالك ،ولكن هم كل واحد منهم ان يطلب شأو من تقدمه من رؤساء

---

(١٠) الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة لابن بسام (ق١جاص ١٣٥) ت : احسان عباس .

(١١) ترجمته فى الصلة (ص ٣١٦) ، الجذوة (ص ٢٧٣) ، البغية رقم (١١١) ، المغرب (ص ١٥٧) ، المطمح (ص ٢٢) ، النفح (١/٦١٦ - ٦١٨ - ٦٢٠) .

العلماء ليحوز قصب السبق ... فاذا ادرك تلك البغية ،وجاءته بعد المنية دفن علمه معه ،ومات ذكره وانقطع خبره ...

فان قلت انه كان ذلك من علمائكم ،والفواكتبا لكنها لم تصل الينا ،فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ،لانه ليس بيننا وبينكم الا روحة راكب ،او دلجة قارب ،لو نفث ببلدكم مصدور لاسمع ببلدنا من فى القبور ،فضلا عمن فى الدور والقصور ،وتلقوا قوله بالقبول ،كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه الذى سماه " العقد" على انه يلحقه فيه بعض اللوم ، اذ لم يجعل فضائل بلده ،واسطة عقده ،ومناقب ملوكه يتيمة سلكه ،لكنه اكثر وطول ،واخطأ المفصل واطال الهز بسيفه غير مقصل ،وقعد به ماقعد باصحابه من ترك مايعنيهم ،واغفال مايهمهم ،فارشد اخاك ارشدك الله ان كان عندك فى ذلك الجلية وبيدك فصل القضية " (١٢) .

وواضح من مضمون هذه الرسالة ان ابن الربيب يشن هجوما على اهل الاندلس ... ويتهمهم بالاهمال والتقصير ... ويحاول ان يجعل من مقولة الصاحب سندا له ...

وينبرى له ابو المغيرة عبدالوهاب بن حزم ... فيرد عليه برقعة يتهمه فيها بالتحامل ،والظلم والابتعاد عن النصفة والعدل ... ومما جاء فيها :

" سألت سؤال العالم ... وبحثت بحث اليقظان المتغافل وادعيت الحيرة ،وانت اهدى فى تلك الفلا ،من قارط القطا ،لتعلم

---

(١٢) الذخيرة (ق١ ج١ ص١٣٥ - ١٣٦) .

اين المخطئ والمصيب ،وكيف الجواب والمجيب ،والله يوفق من المراجعة لما يرضيك ،ويكون وفق امانيك وما اجهل انى ابتهل على نفسى بهذا الدعاء ،لمن اسر حسودا فى ارتغاء ... وغفرا غفرا لهذا العقوق ... وما اشبهنا بالغريبة التى خيرها يدفن وشرها يعلن ،يتعب احدنا نفسه ،ويرهق حسه ،ونتائج فكره محجوبة وبناة صدره غير مخطوبة ،وقد جاهرتنا وحقك بالظلم مجاهرة انا اعجب كيف انقاد كريم طبعك لها ،وانا اعلم ان عندكم لنا تواليف تطيرون بها... ثم ختم رقعته بذكر جملة من تواليف اهل الاندلس" (١٣) .

ويظهر ان مراجعة ابى المغيرة عبد الوهاب بن حزم لابى على بن الربيب لم تقنع ابن عمه العالم الجدلى الاديب : ابا محمد على بن احمد بن سعيد بن حزم (١٤) فاندفع يؤلف رسالة مستفيضة يذكر فيها فضائل الاندلس ومآثر اهلها ،واحصاء علمائها من المعاصرين والسابقين وذكر اسماء تواليفهم وتحديد الموضوعات التى كتبوا فيها من فقه وتفسير وحديث وجدل وتاريخ وخطط ،وانساب ،واخبار ،ولغة وشعر وفلسفة ،وطب ،وهندسة وحساب مع المقارنة ،بين علماء الاندلس وعلماء المشرق .. يجنح فيها من طرف خفى الى تفضيل علماء الاندلس وادبائه على نظرائهم من المشارقة بحيث تخرج من رسالته تلك التى يسوق الحديث فيها مساق اهل المنطق والجدل فى اقامة الحجج والبراهين وبسط المقدمات المعتمدة على التحليل ،والتعليل المفضية الى

---

(١٣) الذخيرة (ق١ ج١ ص ١٣٦ - ١٣٩) .

(١٤) سنعرف به ونذكر ترجمته فى الباب الثانى من هذا البحث.

نتائج يرصدها رصدا بحيث تخرج وفق هواه ... فاذا بالاندلس من احسن الاقاليم ان لم يكن احسنها قاطبة ،واذا بجوها من افضل الاجواء وموقعها من خير المواقع ... واذا باهلها من اذكى الناس ... وعلمائها من ارصن العلماء،وادبائها من ازكى ادباء الارض حسا ،وابرعهم تعبيرا ..

وهكذا يبدأ ابو محمد دفاعه عن اهل الاندلس في رسالته بعبارات تنم عن فحوى مقصوده منها محددا هدفه بقوله : " ... وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من اخبار تآليف اهل بلدنا مثلما غاب عن هذا الباحث الاول ..." (١٥) .

ثم يقول : " وانك وان كنت المقصود والمواجه فانما المراد من اهل تلك البلاد ممن نأى عنهم علم ما استجلبه السائل الماضي وماتوفيقي الا بالله ..." (١٦) .

ثم يندفع ابو محمد في سرد فضائل اهل الاندلس فيقول :

" فأما مآثر بلدنا فقد الف في ذلك احمد بن محمد الرازي التاريخي كتبا جمة ،منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الاندلس ومراسيها وامهات مدنها ،واجنادها الستة ،وخواص كل بلد منها ،ومافيه مما ليس في غيره .. وهو كتاب مريح مليح " (١٧) .

---

(١٥) انظر نفح الطيب (١٦٠/٣) ط دار صادر .

(١٦) انظر نفح الطيب (١٦٠/٣) .

(١٧) انظر نفح الطيب (١٦١/٣) .

ثم ينتقل بعد ذلك الى بيان فضل اهل الاندلس وماهم عليه من رفعة المنزلة وعلو الشان ... ويذكران رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح بلاد الاندلس ،ووصف اهلها بصفات الملوك على الاسرة مستشهدا بحديث لام حرام بنت ملحان زوج ابى الوليد عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنهما،ويؤكد ابن حزم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انما عنى بذلك اهل الاندلس ،محاولا بذلك ان يضفى على الاندلس نوعا من القداسة .. ويستمر ابن حزم فى رده على ابن الربيب القيروانى مبينا له ان اكثر بلاد العرب قد قصر اهلها فى بيان فضائلها فيقول : " والذى نعاه علينا الكاتب المذكور لو كان كما ذكر لكنا فيه شركاء لاكثر امهات الحواضر،وجلائل البلاد ،ومتسعات الاعمال فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ما اذكر انى رأيت فى اخبارها تأليفا غير المعرب عن اخبار المغرب وحاشا تآليف محمد بن اسحق الوراق فانه الف للمستنصر رحمه الله تعالى فى مسالك افريقية وممالكها ديوانا ضخما،وفى اخبار ملوكهم كتبا جمة ،وكذلك الف ايضا فى اخبار تيهرت ووهران،وتونس ،وسلجماسة والبصرة وغيرها .. تآليف حسانا ،ومحمد هذا اندلسى الاصل والفرع آباؤه من وادى الحجارة ومدفنه بقرطبة وهجرته اليها ..... وان كانت نشأته بالقيروان ..." (١٨) .

فابن حزم يريد ان يبين انه ليس اهل الاندلس الذين قصروا فى تخليد مآثر بلدهم فحسب وانما هناك بلدان كثيرة لم يعرف عنها

---

(١٨) المصدر السابق (ص ١٦٣، ١٦٤) .

تأليف ... بل ان الذى كتب تاريخ بلدان الاسلام فى افريقية اندلسى الاصل .

ثم يستمر ابو محمد فى سرد مآثر بلده وعلمائها ويقارن الاقاليم الاندلسية بغيرها .... مبتدئا ببلدته ومدينته المشهورة قرطبة فيقول : " واما فى قسم الاقاليم فان قرطبة مسقط رؤوسنا ومعقد تمائمنا مع سر من رأى فى اقليم واحد، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه اقليمنا، وان كانت الانوار لاتأتينا الامغربة عن مطالعها على الجزء المعمور" [١٩] .. ثم يقول عن اهلها : " فكان اهلها من التمكن فى العلوم، والنفاذ فيها عند من ذكرنا وقد صدق ذلك وابانته التجربة، فكان اهلها من التمكن فى علوم القراءات والروايات، وحفظ كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر، واللغة والخبر، والطب والنجوم بمكان رحب الفناء ..." [٢٠]. ثم تطرق للحديث عن القيروان وبغداد التى كانت حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة والمحلة التى سبق اهلها الى حمل الوية المعارف والتدقيق فى تصريف العلوم، ورقة الاخلاق، والنباهة، والذكاء، وحدة الافكار ونفاذ الخواطر - كما ذكر ابن حزم - الى ان قال :" وما اعلم فى اخبار بغداد تأليفا غير كتاب احمد بن ابى طاهر . واما سائر التواريخ التى الفها اهلها فلم يخصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد ..." [٢١] .

---

(١٩) المصدر السابق (ص ١٦٤ - ١٦٥) .

(٢٠) المصدر السابق (ص ١٦٤ - ١٦٥) .

(٢١) المصدر السابق (ص ١٦٥) .

وعن البصرة التى يقول عنها انها عين المعمورة .... يقول " وما اعلم فى اخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة ،وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب الى ابى سفيان ... فى خطط البصرة وقطائعها "[٢٢] . وعن الكوفة قال : " ولا اعلم فى اخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة"[٢٣] .. الى ان قال : " واما الجبال،وخراسان وطبرستان ... وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا اعلم فى شئ منها تأليفا قصد اخبار ملوك تلك النواحى ،وعلمائها ،وشعرائها واطبائها ..."[٢٤] .

ثم ينتقل ابن حزم الى ذكر اهل العلم فى الاندلس فى مجال التأليف . " فيذكر فى تفسير القرآن الكريم كتاب ابى عبد الرحمن بقى بن مخلد .. واصفا اياه بأنه الكتاب الذى لم يؤلف مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ،ولا غيره ...[٢٥]

وفى الحديث النبوى الشريف .. يذكر مصنفا لصاحب هذا التفسير رتبه على اسماء الصحابة ،رضى الله تعالى عنهم،وشرح منهجه فيه بأنه روى فيه عن الف وثلاثمائة صاحب ونيف ،ثم رتب احاديث كل صاحب على اسماء الفقه وابواب الاحكام،فهو كما يقول :" مصنف

---

(٢٢) المصدر السابق (ص ١٦٨ – ١٦٩) .

(٢٣) المصدر السابق (ص ١٦٨ – ١٦٩) .

(٢٤) المصدر السابق (ص ١٦٨ – ١٦٩) .

(٢٥) المصدر السابق (ص ١٦٨ – ١٦٩) .

ومسند ... ويصف صاحبه بأنه ثقة ضابط ،متقن فى هذا المصنف ،من[26] حيث جودة شيوخه ،لانه روى عن مائتى رجل واربعة وثمانين رجلا ليس فيه عشرة ضعفاء ،وسائرهم اعلام مشاهير .... ولابى عبد الرحمن هذا ايضا مصنف فى فضل الصحابة ،والتابعين ومن دونهم... وبأن هذا المصنف اربى فيه على مصنف سعيد بن منصور وغيره ...[27] واصبحت تآليف هذا الامام كما يقول ابو محمد ،قواعد للاسلام لانظير لها ... وانه كان متحيز الايقلد احدا ،لانه كان ذا خاصة من احمد بن حنبل رضى الله عنه ..."[28] .

ثم اشاد بعد بجهودهم فى احكام القرآن ،والسنة النبوية ،وفى الفقه على مختلف مذاهبه ... وعدد من مصنفاتها ماشاء الله له انيعد .

واما تصانيفهم فى اللغة فيذكر " الكتاب البارع الذى الفه اسماعيل بن القاسم يحتوى على لغة العرب .... وله ايضا كتاب اسمه المقصور والممدود ،والمهموز ،لم يؤلف مثله فى بابه ..."[29]وكتاب الافعال لمحمد بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية بزيادات ابن طريف ويصفه " بأنه لم يؤلف مثله فى بابه "[30] .

---

(٢٦) المصدر السابق (ص ١٦٩) .

(٢٧) المصدر السابق (ص ١٦٩) .

(٢٨) المصدر السابق (ص ١٧١) .

(٢٩) المصدر السابق (ص ١٧٢) .

(٣٠) المصدر السابق (ص ١٧٢) .

وذكر ايضا فى هذا المجال كتابا لابى على اسماعيل بن القاسم يبارى به كتاب الكامل لابى العباس المبرد ... ويثنى على هذا الكتاب قائلا : " ولعمرى لئن كان كتاب ابى العباس اكثر نحوا وخبرا فان كتاب ابى على اكثر لغة وشعرا ..." (٣١) .

وينتقل ابو محمد الى الحديث عن جهود الاندلسيين فى الشعر فيقول :" ومما الف فى الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء فى اخبار شعراء الاندلس ،كتاب حسن ... وكتاب الحدائق لابى عمر احمد بن فرج ،عارض به كتاب الزهرة لابى بكر محمد بن داود رحمه الله تعالى وابو عمر اورد مائتى باب ،فى كل باب مائة بيت،ليس فيها باب تكرر اسمه لابى بكر،ولم يورد فيه لغيراندلس شيئا ، واحسن الاختيار ،واجاد فبلغ الغاية ،واتى الكتاب فردا فى معناه ... ثم يقول " ومنها — اى مما الف فى الشعر — كتاب التشبيهات من اشعار اهل الاندلس جمعه ابوالحسن على بن محمد بن ابى الحسين الكاتب وهو حى بعد ... ومما يتعلق بذلك شرح ابى القاسم الافليلى لشعر المتنبى ،وهو حسن جدا ..." (٣٢) .

وفى التاريخ : تحدث عما احرزه الاندلسيون من باع طويل فى تدوين الاخبار ... وفى مقدمة ذلك تواريخ احمد بن محمد بن موسى الرازى فى مجالات اخرى كالطب ،والفلسفة ، وغير ذلك مما يعد من جهود اهل الاندلس (٣٣) .

---

(٣١) نفس المصدر السابق (ص ١٧٢) .

(٣٢) نفس المصدر السابق (ص ١٧٣) .

(٣٣) نفس المصدر السابق (ص ١٧٣) .

وفى آخر هذه الرسالة : يعلل ابن حزم سبب ذكره لهذه التآليف ... وأنها مستحقة للذكر لكونها تدخل تحت الاقسام السبعة التى لايؤلف عاقل - كما يقول- الا فى أحدها : وهى اما شئ لم يسبق اليه باختراعه، أو شئ ناقص يتمه ؛ أو شئ مستغلق يشرحه ... أو شئ طويل يختصره ، أو شئ متفرق يجمعه ، أو شئ مختلط يرتبه ... أو شئ أخطأ فيه مؤلفه يصلحه ..." (٣٤) .

... ثم يتحدث أبو محمد عن مكانة الاندلس بصفة عامة بالنسبة لما جاورها من البلدان ، فيقول : " وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تآليف أهله ما ان طلب مثلها بفارس والاهواز ، وديار مضر ، وديار ربيعة ، واليمن والشام ، أعوز وجود ذلك على قرب المسافة فى هذه البلاد من العراق التى هى دار لهجرة الفهم وذويه ، ومراد المعارف وأربابها ..." . (٣٥)

ثم يقارن فى آخر المطاف بين بعض رجال الفكر والادب من أهل الاندلس بغيرهم ممن يوجد فى البلدان الاخرى ، فيقول : " ونحن اذا ذكرنا أبا الاجرب جعونة بن الصمة الكلابى ، فى الشعر لم نباه به الا جريرا والفرزدق لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الاوائل لاعلى طريقة المحدثين .. واذا سمينا بقى بن مخلد لم نباه به الا محمد بن اسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى ، وسليمان بن الإشعث السجستانى واحمد بن شعيب النسائى ... ويذكر أيضا فى الشعر

---

(٣٤) نفس المصدر السابق ص ١٧٦ .

(٣٥) المصدر السابق ص ١٧٧ .

أحمد بن دراج القسطلى ،ويعتبره من فحول الشعراء ... اذ هو كما يقول لايتأخر عن شأو بشار وحبيب والمتنبى " . (٣٦)

وفى البلاغة : يذكر أحمد بن عبدالملك بن شهيد،وأنه له من التصرف فى وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لسانى عمرو وسهل ... أى عمرو بن مسعدة وسهل بن هارون " . (٣٧)

... وبعد مضى أكثر من قرنين من الزمان على رسالة أبى محمد ابن حزم فى الرد على ابن الربيب يأتى على بن موسى بن سعيد فيكتب تكملة لرسالة ابن حزم السالفة الذكر،يستدرك فيها مافاته فى زمانه وما استجد بعد عصره من علماء ومؤلفين مع ذكر مؤلفاتهم،وموضوعات بحوثهم التى حوت من الدراسات مالم يكن قد وجد فى عصر ابن حزم :

من ذلك ما ألف حول القرآن الكريم مثل كتاب " الهداية " من تأليف العالم الزاهد أبى محمد مكى بن أبى طالب ... الى تآليف أخرى فى اعراب القرآن بلغت نحو سبعة وسبعين تأليفا .

ثم ذكر ما ألف فى الحديث ،وأصول الدين ،وأصول الفقه ... وذكر كتبا لأبى الوليد بن رشد،وتواليف لأبى حيان الكبير ... وكتبا أخرى فى النحو واللغة والشعر ... (٣٨)

ولاشك أن استدراك ابن‌سعيد أو تذييله على رسالة ابن حزم يُعَدُّ احصاءً دقيقاً لمؤلفات الاندلسيين حتى الثلث الثانى من القرن السابع

---

(٣٦) المصدر السابق ص ١٧٧ .

(٣٧) المصدر السابق ص ١٧٨ .

(٣٨) النفح ١٥١/٣ - ١٥٢ .وكذلك ص ١٧٩ - ١٨٦ .

الهجـــرى . (٣٩)

على أن دائرة رحى هذه المعركة بين أدباء الاندلس، وبين من رماهم بالتقصير والاهمال لم تقف عند هذا الحد ... بل مالبثت أن احتدمت الحرب من جديد بين أبى الوليد اسماعيل بن محمد الشقندى المتوفى (سنة ٦٢٩هـ) وبين أبى يحيى بن المعلم الطنجى اثر محاورة جرت بينهما فى مجلس أبى يحيى بن زكريا صاحب مدينة سبتة .

فأنشأ أبو الوليد الشقندى رسالة حارة الاسلوب مونقة العبارات فى اظهار فضائل الاندلس وابراز محاسن أهله، وتخليد مآثرهم فى ثقافة العرب . (٤٠)

ومن الحق أن نقول : ان هذه الرسالة تعد خير ماكتب فى هذه القضية اذ هى من ناحية تعتبر أثرا أدبيا شديد الروعة من حيث الاسلوب ... ومن ناحية أخرى تعتبر سجلا حافلا بمفاخر الاندلسيين فى الفكر والاجتماع والتاريخ .

يبدأ أبو الوليد رسالته مطاولا ومفاخرا، واضعا أندلسه الحبيب فى قنة عالية لايصل اليها بر العدوة الافريقى فيقول :

" الحمد لله الذى جعل لمن يفخر بالاندلس أن يتكلم ملء فيه ويطنب ماشاء فلا يجد من يعترض عليه، ولامن يثنيه، اذ لايقال للنهار :

---

(٣٩) يرجع الى رسالة ابن سعيد فى " مجموع رسائل فضائل الاندلس واهلها " ص ٢٢ ـ ٢٨ وفى نفح الطيب ج ٣، ص ١٥١ ـ ١٥٢، وكذلك من ص ١٧٩ـ ١٨٦ .

(٤٠) يرجع الى رسالة الشقندى ص ٥٠ ومابعدها فى " مجموعة رسائل فضائل الاندلس واهلها " ، وكذلك النفح، ج ٣، ص ١٨٦ وما بعدها .

يامظلم ،ولالوجه النعيم : ياقبيح ... أحمده على أن جعلنى ممن أنشأتـه وحبانى بأن كنت ممن أظهرته ،فامتد فى الفخر باعى ،وأعاننى على الفضل كرم طباعى .

أما بعد فانه حرك منى ساكنا،وملأ عينى فارغا،فخرجت عن سجيتي فى الاغضاء مكرها الى الحمية والاباء،منازع فى فضل الاندلس أراد أن يخرق الاجماع ،ويأتى بما لم تقبله النواظر ،والاسماع،وان يفضل بر العدوة على بر الاندلس ،فرام أن يفضل على اليمين اليسار،ويقول : الليل أضوأ من النهار ... فيامن نفخ فى غير ضرم ،ورام صيد البزاة بالرخم،كيف تتكثر بما جعله الله قليلا ،وتتعزز بما حكم الله أن يكون ذليلا ،ماهذه المباهتة التى لاتجوز،وكيف تبدى أمام الفتاة العجوز ..؟

أقن حياءك أيها المغرد بالنحيب ... المتحبب الى الغوانى بالمشيب الخضيب ،أين غرب عقلك ،وكيف نكص على عقبه فهمك ولبك ..؟

أبلغت العصبية من قبلك أن تطمس على نورى بصرك ولبك ...؟

ثم ينتقل بعد ذلك الى المطاولة بملوك الاندلس ،وابداء مزاياهم الحضارية والعقلية ،والاخلاقية والنفسية فيقول :

" أما قولك الملوك منا ،فقد كان الملوك منا أيضا : ان كان الآن كرسى جميع بلاد الغرب عندكم بخلافة بنى عبد المؤمن... فقد كان عندنا بخلافة القرشيين ...

وكان من حسنات ملكهم المنصور بن عامر ... الذى بلغ فى بلاد النصارى غازيا الى البحر الاخضر ... وقد قيل فيه من الامداح وألف من الكتب ماسمعته وعلمت حتى قصد من بغداد ،وعم خبره أقاصى البلاد... وقد سمعت ما كان من الفتيان العامرين : مجاهد ومنذر ،وخيران ... وسمعت من الملوك

العربية : بنو عباد،وبنو صمادح ،وبنو الافطس ،وبنو ذى النون،وبنو هود كل منهم قد خلد فيه من الامداح، مالو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح ،ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادى النواسم بين الرياض وتفتك فى أموالهم فتكة البراض ...

وكان لهم من الحنو على الادب ،مالم يقم به بنو حمدان فى حلب ... وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدورا فى بلاغتى النظم والنشر مشاركين فى فنون العلم ،وآثارهم مذكورة ،وأخبارهم مشهورة ،... وبالله الا ما سميت لى بمن تفخرون ...؟ .

سقموت الحاجب ؟ أم بصالح الرغواطى ...؟

ويطيب لأبى الوليد الشقندى أن يبرز كرامة أهل الفكر وإباءهم فى مواجهة رغبات الملوك وطموحاتهم ... بأرض الاندلس ... فيقص خبر عالم أندلسى أراد منه أحد الملوك أن يجعل أحد كتبه منسوبا اليه فى التأليف على أن يهبه لقاء ذلك مالا كثيرا ،فيرفض هذه الصفقة ويرفع العلوم فوق قدر الذهب والدنانير .... فيقول مفاخرا :

" ومن أعظم مايحكى من المكارم التى لم نسمع لها أختا : أن أبا غالب اللغوى ألف كتابا ،فبذل له ،مجاهد العامرى ،ملك دانية ، ألف دينار ،ومركوبا ،وكسى ،على أن يجعل الكتاب باسمه ... فلم يقبل ذلك أبو غالب ،وقال : كتاب ألفته لينتفع به الناس ،وأخلد فيه همتى أجعل فى صدره اسم غيرى ،وأصرف الفخر له ...

لا أفعل ذلك ...

فلما بلغ ذلك مجاهد استحسن أنفته ،وهمته ،وأضعف له العطاء ،وقال :

(ورد اسمة أيضا سقمود ،وسقوت : وهو : سقوط البرغواطى المتغلب على مدينة سبتة ،ومنه أخذها يوسف بن تاشفين) أنظر نفح الطيب ،ج ٣ ،ص ١٩١.

"هو فى حل من أن يذكرنى فيه ،لانصده عن غرضه ..." .

ثم ينتقل بالحديث الى المفاضلة بين العلماء،ويخاطب أبا يحيى بن المعلم قائلا : " وانك وان تعرضت للمفاضلة بين العلماء فأخبرنى : هل لكم فى الفقه مثل عبدالملك بن حبيب الذى يعمل بأقواله الى الآن ،ومثل أبى الوليد الباجى ،ومثل أبى بكر بن العربى ،ومثل أبى الوليد ابن رشد الاكبر،ومثل أبى الوليد بن رشد الاصغر ... نجوم الاسلام ،ومصابيح شريعة محمد عليه السلام " . (٤١)

ويشيد فى حديثه بأبى محمد بن حزم حيث يقول : " وهل لكم فى الحفظ مثل أبى محمد بن حزم الذى زهد فى الوزارة والمال،ومال الى رتبة العلم ،ورآها فوق كل رتبة ...

ثم يتحدث بعد ذلك عن ابن عبدالبر،وأبى بكر بن الجد حافظ الاندلس وذكر أهل اللغة وعلى رأسهم ابن سيدة صاحب " المحكم" وكتاب " السماء والعالم" ... وعنه يقول : " الذى ان أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته ..." .

وفى النحو : ذكر أبا محمد بن السيد ،وتصانيفه .. وابن الطراوة وجهوده فى النحو الى أن قال : " وأبو على الشلوبين الذى بين أظهرنا الآن ،وقد سار فى المغارب والمشارق ذكره ..." .

ويفاخر أبو الوليد ببعض رجال الاندلس ممن برعوا فى علم النجوم والفلسفة والهندسة ،ومنهم : المقتدر صاحب سرقسطة ... ويذكر فى الطب ابن طفيل صاحب رسالة حى بن يقظان ،ثم يذكر بنى زهر . ثلاثتهم على

---

(٤١) انظر نفح الطيب ٣/ ١٩٢ .

نسق أبا العلاء ،وابنه : عبدالملك ثم ابنه أبا بكر .

ويذكر ممن برع فى التاريخ : ابن حيان ،صاحب " المتين" و "المقتبس" ومن أهل الادب : ذكر من رؤساء علم الادب ابن عبد ربه صاحب "العقد " . (٤٢)

ويفاخر بصاحب الذخيرة فيقول : " وهل لكم فى الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء اقليمه ،والاجتهاد فىحشد محاسنهم مثل ابن بسام صاحب الذخيرة وهب أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكيسه فى البيت الفارغ ..." . (٤٣)

وفى بلاغة الاندلسيين فى النثر يقول ،وهل لكمفىبلاغة النثر كالفتحبن عبدالله الذى ان مدح رفع ،وان ذم وضع ،وقدظهرله من ذلك فى كتاب القلائد ماهو اعدل شاهد،ومثل : ابن ابى الخصال فى ترسيله ،ومثل ابى الحسن سهل ابن مالك الذى بين اظهرنا الآن فى خطبه ..." . (٤٤)

ويذكر من الملوك الشعراء المعتمد بن عباد،ويعرض نماذج من شعره الرائع ...

ويذكر من الملوكالعلماء المظفر فيقول متحديا : " وهل لكم ملك ألف فى فنون الآداب كتابا فى نحو مائة مجلدة ،مثل المظفر بن الافطس ملك بطليوس ،ولمتشغله الحروب ،ولاالمملكة ،عن همة الادب ..." . (٤٥)

---

(٤٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٤٣) المصدر السابق ص ١٩٣ .

(٤٤) المصدر السابق ص ١٩٣ .

(٤٥) نفس المصدر ص ١٩٣ .

ويذكر من الوزراء الشعراء ابن عمار الذى سار شعره فى الآفـــاق " أشرد من مثل ،وأحب الى الاسماع من لقاءحبيب وصل ٠٠" ٠ (٤٦)

كما يذكر من هؤلاء الوزير الذائع الصيت ابن زيدون ولاسيما فـــى نونيته المشهورة، التى يقول عنها : " انه لم يقل مع طولها فى النسيــب أرق منها ٠٠" (٤٧)

كما يذكر ابن وهبون ويقارنه بأبى الطيب المتنبى ٠٠٠ ويفاخـــر ببديهته الحاضرة فى ارتجال الشعر من غير أن يذهب الارتجال باحسانـــه واجادته ٠٠٠

ويتحدث عن ابن دراج القسطلى الذى قال فيه الثعالبى : " هـــو بالصقع الاندلسى كالمتنبى بصقع الشام " (٤٨)

ثم يذكر له بضعة أبيات فى مدح الحاجب المنصور،يقول عنها الشقندى : " وأنا أقسم بما حازته هذه الابيات من غرائب الآيات ،لو سمع هـــذا المدح سيد بنى حمدان لسلابه عن مدح شاعره الذى ساد كل شاعـــر ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ماتفنن فيه كل نـاظـــم وناشـــر ٠٠٠" (٤٩)

ثم يتحدث أبو الوليد عن أبى جعفر اللمائى ،وتشبيهاته الغريبة ٠٠٠ وأبى حفص بن برد وتعبيراته العجيبة وولادة بنت المستكفى ،ومداعباتهـــا لصاحبها ابن زيدون ٠٠٠" (٥٠)

---

(٤٦) نفس المصدر ص ١٩٣ ٠

(٤٧) نفس المصدر ص ١٩٤ ٠

(٤٨) نفس المصدر ص ١٩٥ ٠

(٤٩) نفس المصدر ص ١٩٥ ٠

(٥٠) نفس المصدر ص ١٩٦،١٩٧،٢٠٨ ٠

ثم يجول جولة ببلاد الاندلس مفاخرا بما حباها الله به من محاسن مما يميت ـ كما يقول ـ الحسود كمدا ... وأخذ يتحدث عن اشبيلية واعتدال هوائها، وحسن مبانيها، وماقيل فى نهرها الاعظم من أشعار ... مقارنا اياه بنيل مصر، فيقول : " وأخبرنى شخص من الاكياس دخل مصر وقد سألته عن نيلها أنه لايتصل بشطيه البساتين والمنازه اتصالها بنهر اشبيلية وكذلك أخبرنى شخص آخر دخل بغداد، وقد سعد هذا الوادى بكونه لايخلو من مسرة ..." (٥١)

ثم ذكر قرطبة ووصفها بأنها كرسى المملكة فى القديم، ومركز العلم ومنار التقى ومحل التعظيم والتقديم ... وبها استقر ملوك الفتح وعظماؤه ... ووصف أهلها بأنهم أشد الناس محافظة على العمل بأصح الاقوال المالكية حتى كانوا لايولون حاكما الا بشرط ألا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم ... ثم وصف بعد ذلك جيان وغرناطة، وذكر بعض شاعراتها مثل نزهون القلاعية، وزينب بنت زياد، وحفصة بنت الحاج، وقد اشتهرت بالظرف والادب ... يقول عنها : " وناهيك بها فى الظرف والادب، وهل ترى أظرف منها فى جوابها للوزير الحسيب الناظم الناثر أبى جعفر بن القائد الاجل أبى مروان بن سعيد ... وأخيرا تحدث عن بقية مدن الاندلس : مالقة ومرسية، وبلنسية، وميورقة، وختم هذه الرسالة بحمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ... (٥٢)

---

(٥١) المصدر السابق ص ٢١٢ .

(٥٢) المصدر السابق ص ٢١٤ ـ ٢١٨ .

هذا وتجدر الاشارة الى آن رسالتى ابن حزم والشقندى واجهتا من يطعن فى الاندلسيين مواجهة مباشرة ،وان رسالتيهما لم تكونا موجهتين الى ابن الربيب وابن المعلم فحسب ،ولكنهما كانتا موجهتين الى كل من يردد مقولة الصاحب بن عباد فى مشرق الارض ومغربها ... وهناك جملة من التواليف الاندلسية كان اتجاهها نفس اتجاه رسالتى أبى محمد ،وأبى الوليد : أى الدفاع عن الفكر الاندلسى ،والثقافة الاندلسية ... وسلكت نفس المنهج فى ذكر الملوك والوزراء ،والكتاب والشعراء والعلماء وابراز ماحبا الله به أقاليم الاندلس من موقع متميز ،وأجواء معتدلة ،وخصوبة فى الارض ، وكثرة فى العمران ،ورغد فى العيش ... وما الى ذلك ... غير أنها لم تكن مباشرة فى المواجهة ... وان كانت الخصومة ،والتحدى تطل من بين سطورها .

ولعل أهم كتاب يمثل ذلك موسوعة أبى الحسن على ابن بسام الشنترينى المتوفى سنه ٥٢٢هـ المسماة " الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة " .

ومما يدل على الهدف الذى كان يسعى اليه من وراء تأليف كتابه الجليل ،وبذل الجهد المضني فى الحشد والجمع والحفظ والعمل الدائب تلك الصرخة الحادة المغيظة التى باح بها فى مقدمة كتابه اذ يقول : " الاآن أهل هذا الافق أبوا الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة حتى لو نعق بتلك الافاق غراب أوطن بأقصى الشام والعراب ذباب ،لجثوا على هذا صنما ،وتلوا ذلك كتابا محكما ... وأخبارهم الباهرة ،وأشعارهم الساثرة مرمى القصية ،ومناخ الرذية ،لايعمر بها جنان ولاخلد ،ولايصرف فيها لسان ،ولايد ،فغاظنى منهم ذلك وأنفت مما هنالك ،وأخذت نفسى بجمع ماوجدت من حسنات دهرى ،وتتبع

محاسن أهل بلدى وعصرى غيرة لهذا الافق الغريب أن تعود بدوره أهلة وتصبح ثمادا مضمحلة ..." (٥٣)

ثم يأتى الوزير الكاتب أبو نصر الفتح بن خاقان بن محمد بن عبدالله القيسى (ت ٥٢٩هـ) فألف كتابيه المعروفين : قلائد العقيان فى محاسن الاعيان ،ومطمح الانفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الاندلس .

وقد قسم كتابه الاول اقساما أربعة :

القسم الاول : تحدث فيه عن الرؤساء ،وأبنائهم ومستعذب أنبائهم .

القسم الثانى : خصصه للوزراء والكتاب والبلغاء .

القسم الثالث : ذكر فيه أعيان القضاة ،وأعلام العلماء السراة .

القسم الرابع : فى بدائع نبهاء الادباء ،وروائع فحول الشعراء .

وقد حوى كتابه أربعا وستين ترجمة ... وقد اقتصرت ترجماته على أعيان القرن الخامس الهجرى ،والمعاصرين له من القرن السادس ... وقد مزج فى كتابه هذا بين التأريخ والادب ... وقد سجل فى هذا الكتاب أروع ما أنتجته قرائح الرؤساء والوزراء والعلماء والادباء من نثر رصين ونظم رائع .

أما كتابه الثانى مطمح الانفس ،فقد سرد فيه عن الوزراء ... وتناسق درر الكتاب والبلغاء ،ومحاسن اعلام العلماء ،وأعيان القضاة والفهماء ... ومحاسن الادباء النوابغ والنجباء ،وقد أعلن فى هذا الكتاب عن غرضه من هذا التأليف ... فاذا هو يلتقى فى الهدف مع أبى الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة الآنف الذكر ... حيث يقول الفتح :

---

(٥٣) الذخيرة ق١،ج١ ص١٢،ت احسان عباس ،دار الثقافة ،بيروت ،١٣٩٩هـ.

" وأبقيتها لذوى الآداب ذكرا ،ولأهل الاحسان فخرا ،يساجلون بها أهل العراق ،ويحاسنون بمحاسنها الشمس عند الاشراق " . (٥٤)

ويجئ على بن موسى بن سعيد الذى كان سادس ستة كتبوا فى فضائل أهل الاندلس كتابا شاملا ذلك هو كتاب " المغرب فى حلى المغرب " الذى أتمه وراجعه أبو الحسن على بن موسى آخر أفراد هذه الاسرة ... جعل هذا الكتاب سيرا وتراجم لرجالات الاندلس ممن برزوا فى مجال العلم والادب منذ بداية العصر الاموى حتى نهاية عصر الموحدين ... وهو بمثابة الرد على كل من أراد النيل من أهل الاندلس ،ويعد مكملا للسلسلة الادبية التى سبقته فى هذا المضمار .

بعد هذه الجولة المتأنية فى متابعة هذه القضية ،نستطيع أن نقول ان العصبية الاقليمية كانت وراء كثير من الاحكام الادبية والفكرية فى تقويم الادب العربى فى الاندلس ،ظهر ذلك فى موقف الصاحب بن عباد من عقد ابن عبد ربه ... اذ أنه بادر برده جملة من غير أن يعطى الامر حقه من الدرس والتحقيق ...

ولو تروى قليلا لوجد فى " العقد" جديدا فى منهج تأليفه ... وفى عرض بضاعة أندلسية صحيحة ،تتمثل فى شعر ابن عبد ربه ... وفى أخبار تاريخية أندلسية انتظمتها أرجوزة أبى عمر فى الخليفة الاموى العظيم عبد الرحمن الناصر .

وظهر ذلك فى موقفى ابن الربيب ،وابن المعلم ... حيث أطلقا

---

(٥٤) مطمح الانفس ومسرح التأنس ،للفتح بن خاقان ص ١٤٩ ،ت : محمد على شوابكة ،دار عمار ،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط : ١ ،سنة ١٤٠٣هـ .

أحكاما سريعة عامة ... يتهمان فيها مفكرى الاندلس بالتقصير والاهمال في الوقت الذى كانت فيه العدوة الافريقية عيالا على الاندلس في شئون الفكر والادب .

وظهر ذلك في موقف ابن حزم في رده على ابن الربيب ،فقد كانت الاندلس في رأيه المثل الاعلى في كل شئ : أقاليمه أفضل الأقاليم ... وعلماؤه أنبل العلماء ... وأهله أزكى البشر ... وأدباؤه خير الأدباء .. بل حاول أن يضفى على الاندلس بعامة شيئا من القداسة .

وظهر ذلك أيضا بطريقة أكثر مغالاة في موقف الشقندى من مناظرة ابن المعلم : اذ لم يدع شيئا في الاندلس الا أشاد به ،ولم يترك شيئا في العدوة الافريقية الا سخر به ... حتى ان الرجل المجاهد الزاهد يوسف بن تاشفين لم ينج من لسانه .

وظهر ذلك أيضا في الكتب المدونة من أمثال : ذخيرة ابن بسام وقلائد الفتح بن خاقان ومطمحه ... ومغرب ابن سعيد ،فهذه الموسوعات الجليلة لم تخل من عصبية غالية تطل بين الحين والآخر ،فرارا من تهمة التقليد .

بل لقد تطورت العصبية في الاندلس الى نوع من الشعوبية ،يظهر ذلك في الرسالة التى كتبها أبو عامر بن غرسية الى ابن الخراز .(٥٥)

حقا ان هناك مؤلفات حاولت أن تجمع بين أدباء المشرق وأدباء المغرب والاندلس في صعيد واحد ،مثل صنيع أبى منصور عبد الملك الثعالبى

---

(٥٥) الذخيرة ق٣،ج٢،ص ٧٠٥ .

(ت ٤٢٩هـ) فى موسوعته العظيمة " يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر" .

وقد احتذى عليه فى هذا المنهج أبو الحسن الباخرزى (ت ٤٦٧هـ) فى كتابه الجليل " دمية القصر،وعصرة أهل العصر ".

ثم سار على طريقتهما العماد الاصفهانى الكاتب (ت ٥٩٧هـ) فى موسوعته الخطيرة " خريدة القصر،وجريدة العصر" ... وتبعهم آخرون .

ولاشك أن هذا المنهج يدل على شعور معتدل بوحدة الادب العربى فى مشرق الارض ومغربها ...

ولكن أبا منصور الثعالبى رغم ذلك كله لم تلبث العصبية الاقليمية أن تطل برأسها فى يتيمته،ولكن هذه المرة بعيدا عن الاندلس،وبالتحديد على العراق .

فقد عقد أول باب فى كتابه عنوانه هكذا " فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان" ويستهله بقوله : " لم يزل شعراء عرب الشام ومايقاربها أشعر من شعراء عرب العراق ومايجاورها فى الجاهلية والاسلام " .

ويستدل على ذلك معللا بقرب أهل الشام من خطط العرب وبعدهم من الاعاجم .

وتلك عصبية اقليمية جعلت رجلا فى مثل مكانة أبى منصور يسوق حكما عاما يقدم فيه شعراء الشام على شعراء سائر البلدان ... ثم اذا أراد أن يبين السبب فى ذلك جعل المفضول عليهم شعراء العراق خاصة ونسى سائر البلدان ... ثم يذكر أن قرب العراق من بلاد فارس هو السبب فى ضعف شعرائه ... متجاهلا قرب الشام من بلاد الروم ... وأن له مالقرب

العراق من بلاد فارس من تأثير . (٥٦)

وقد حذا حذو أبى منصور فى اليتيمة ابن بسام فى الذخيرة، فلم يقصرها على أدباء الاندلس، بل جعل لادباء المشرق نصيبا : ذكر عددا من الوافدين على الاندلس من ادباء المشرق، وعددا من الادباء غير الوافدين .

ولكنه عندما بدأ الحديث عن ادباء المشرق الوافدين، لم تلبث العصبية الاقليمية أن تهب ريحها حيث يقول : " ولم آت بهذه الفرقة من أرباب هذا الفن متعززا من ذلة ولامستكثرا من قلة، ولا لأنى لم أجد من أعيان وزرائنا وكتابنا من هو أبعد غاية ولاأبهر آية ... ولكنهم أسندوا الى أعلامها، وترددوا بين جميمها، وجمامها ... فصاروا من أهلها بالوفادة عليها، وخلع أوطانهم اليها " .

أجل تلك مبررات ذكرهم فى موسوعته ولاشىء وراء ذلك ...

أما حين يذكر فى كتابه نفرا من أدباء المشرق غير الوافدين يبرر ذلك بقوله :

" وقد أثبت أيضا آخر هذا القسم طرفا من كلام أهل المشرق ... وان كانوا لم يطرؤا على هذا الافق، حذو أبى منصور الثعالبى ... فانه ذكر فى يتيمته نفرا من أهل الاندلس " . (٥٧)

أجل ... ولولا أن أبا منصور فعل ذلك مع أدباء الاندلس ... فان ابن بسام بكل تأكيد كان لايفعل ذلك مع أدباء المشرق .

هى العصبية الاقليمية، هنا وهناك، ولافرق ...

---

(٥٦) اليتيمة ١٢/١ – ١٣، مقدمة محيى الدين لليتيمة، ص ٩، ط ١ عام ١٣٦٦هـ ، مطبعة حجازى ، القاهرة ، .

(٥٧) الذخيرة ق ٤ ج ٧ ، ص ٧ – ٨ .

ذلكم هو موقف السالفين من هذه القضية ...

فما هو موقف الخالفين منها ؟

عند التأمل فى دراسات هؤلاء الخالفين من الباحثين المحدثين والمعاصرين نجدهم ينطلقون فى بحوثهم حول الادب العربى فى الاندلس من واقع نظرية الناقد الفرنسى (تين) التى تعالج درس الآداب العالمية وفق منهج موضوعى يتسم بطابع الحتمية ... وترجع فى مضمونها الى ثلاثة عوامل تتركز على أساسها خصائص الشعوب الثقافية وهى :

عامل الجنس ...

وعامل الزمان ...

وعامل المكان ...

هذه العوامل جعلت أكثر الدارسين المعاصرين يجزم بأن الادب فى الاندلس ماهو الا صدى للادب فى المشرق ،لم يبتكر الاندلسيون فيه جديدا ومن هؤلاء الباحث الكبير الراحل الاستاذ أحمد أمين صاحب كتاب ظهر الاسلام ،الذى خصص جزءا منه لدراسة الادب فى الاندلس ... وقد ذهب الى أن هذا الادب ماهو الا صدى خافتا للادب العربى فى المشرق ،يتبين ذلك من فحوى كلامه الذى يقول فيه : " وأياماكان فشعراء الاندلس لم يفلحوا كثيرا فى استقلالهم عن المشرق ،وابتكارهم وتجديدهم ... ولو أغمضنا أعيننا وجهلنا قائل القصيدة ،أهو مشرقى أم أندلسى لم نكد نحكم حكما صحيحا جازما على الشاعر أمغربى هو أم مشرقى ،ولذلك كثيرا ماتنسب الابيات الى أندلسى ،وينسبها بعينها بعضهم الى مشرقى لعدم التمييز الواضح حتى عند الخبراء ،وربما كان مصداق ذلك ماحكى أن الشاعر الاندلسى

الملقب بالغزال ،وجد فى بغداد فى جماعة من المثقفين فأنشدهم شعرا لنفسه وادعى أنه لابى نواس لعظم قدر أبى نواس عندهم فصدقوه ،ثم قال لهم : انها لى ،ولو كانت شخصية الاندلسى واضحة فى شعر أهلها ،لصعب نسبة أبيات أندلسية الى شاعر مشرقى " ...(٥٨) ثم يقول : " وغاية ماعندهم من فروق:(١) أن الطبيعة الاندلسية الجميلة مكنتهم من أن يقولوا كثيرا فى شعر الطبيعة ،وهذا لم يكن معدوما فى المشرق فان الصنوبرى مثلا وهو الشاعر الحلبى خلف ديوانا كله تقريبا فى ذلك ..." .

٢- أن لهم أحيانا أخيلة ذهنية ولعبا بالمعانى يكاد يكون خاصا بهم وقد يفوقون فيه المشارقة ... ثم يقول أيضا :

" ولئن دمغ الادب الجاهلى الادب المشرقى ،فالادب المشرقى دمغ الادب الاندلسى ،وكان الظن أن يؤثر الادب الاسبانى والفرنسى أيضا أثرا غير تأثير الادب الفارسى واليونانى فى المشرق ،ولكن حدث أن تأثر الاندلسيون بالمشرق أكثر من تأثرهم بالاسبانيين لوحدة اللغة والدين"(٥٩)

ذلك ماجعل الاستاذ أحمد أمين يحكم على الاندلسيين بأنهم " كانوا يحسون مركب النقص بالنسبة لادباء المشرق فكملوه بمجاراتهم بدعوى التفوق عليهم ،ولكنهم لم يتفوقوا ... الى أن قال : " والظاهر أن تيار المشرق كان قويا حتى استحوذ على أدب المغرب ولم يسمح له بالخروج عنه وكأن شأن الادب فى ذلك شأن الفقه والتصوف واللغة والفلسفة وسائر فروع العلم ... نذكر هذا بعد أن قرأنا كثيرا من آثار الاندلسيين وقد

---

(٥٨) انظر ظهر الاسلام ١٠٤/٣،دار الكتاب العربى ،بيروت ،ط ٥ .

(٥٩) المصدر السابق نفس الصفحة .

دخلنا فى بحث الموضوع ونحن نعتقد أننا قادمون على شئ جديد مبتكر فاذا نحن أمام ثروة كبيرة مقلدة ،وقد حدث لنا هذا مرة أخرى عندما درسنا الادب المصرى وكنا نظن أن المصرية ستتضح فى فروع العلوم والآداب ،وأننا سنكون أمام شخصية تنتج من الادب أنواعا جديدة ،غير التى أنتجها العراق فلم نر بعد الدرس هذا الرأى اللهم الامسحة خفيفة عارضة كالمسحة التى رأيناها فى الاندلس ،ولعل الزمن يظهر هذا لمن بعدنا أكثر مما ظهر لنا ..." . (٦٠)

وينطلق الاستاذ بطرس البستانى من نفس منطلق أحمد أمين فى كتابه "أدباء العرب فى الاندلس" حيث يقول : " تأثر أهل الاندلس المشرقيين فى النثر كما تأثروهم فى الشعر،فترسموا خططهم فىأساليب الانشاء وألوان التعبير،وجاروهم فى نظام الدواوين واستيزار الكتاب والشعراء وتعدد أغراضهم وفنونهم تعدادها عند أولئك ..." ثم يقول بعد ذلك : "واستهواهم الشعر الجاهلى فحفظوه ورددوه ،واستفادوا من بلاغته ...وانصرف منهم طائفة الى تصنيف المجاميع الادبية ..." (٦١) وضرب أمثلة لهم بابن عبد ربه وعقده ،وابن بسام صاحب الذخيرة ناعيا عليهم جميعا تأثرهم بأدب المشارقة ... فلم يظهر لهم أدب مستقل معادل لبيئتهم المستقلة .

وممن سار فى نفس هذا الاتجاه المستشرق الاسبانى " جارثيا جومث" صاحب كتاب " الشعر الاندلسى "والذى صرح فيه قائلا : " ولقد كان الشعر العربى فى الاندلس فى ذلك الحين صدى خافتا لما كان يتردد فى جوانب المشرق القصي من شعر،ولكن أصوله ثبتت فى التربة الاندلسية ..." . ثم

---

(٦٠) نفس المصدر ٣/٢٣٠ .

(٦١) ادباء العرب فى الاندلس وعصر الانبعاث ـ بطرس البستانى ،ص ١٨٥.

يقول : " واننا لنرى فى شعر أولئك الآخرين كيف انتقل الشعر رويدا رويدا من المنهج التقليدى الاتباعى القديم الى نهج المحدثين من شعراء البلاط ،وان بعضهم قد نسج على منوال شعراء الجاهلية فجعلوا شعرهم – على مافيه من فحش – دعوات الى الحرب ونقائض لخصومهم ..." ثم يقول : " وقد ظهرت تجديدات وابتكارات لانجد مايشبهها فى الشعر القديم ،منها : نظم الاراجيز التاريخية التى اعتمد عليها " خليان ريبيرا " ليقول بوجود ادب قصصى اندلسى ... ومنها : اختراع الموشحات الذى كان له فيما بعد صدى بعيد ..." (٦٢)

ونضيف كاتبا معاصرا يعتبر رأيه أقرب الى آراء الاساتذة آحمد آمين وزملائه هو الدكتور شوقى ضيف الذى درس النثر كفن له مذاهب وقوانين مطردة ،ولقد كان الظن به أن يحتكم الى المنهج الفنى فى دراسة النثر فى الاندلس ولكنه مالبث أن حاد عنه الى الطريق الآخر حيث يقول : " ومهما يكن فان عرب الأندلس لم يفيدوا شيئا واضحا فى حياتهم العلمية عن طريق الاندلس نفسها ،بل جل ما افادوه اتاهم من المشرق اذ نقلوا الثروة العلمية المشرقية الى بلادهم بكل مافيها من فقه ،ودين ،ولغة ،ونحو وفلسفة ،وطب ..." ويردد مثل هذا الكلام فى كثير من الصفحات التى كتبها متحدثا فيها عن هذا الادب ... ثم يذكر أن الاندلس " تندفع نحو تقليد المشرق علمه وآدبه ،وكان هذا الاندفاع طابع الاقاليم العربية فهى جميعا تتجه نحو الام بغداد ،تتغذى منها ..." واذن فهو يؤكد بكلامه هذا أن الاندلس فى قضية التأثر كغيره من الاقاليم الاخرى ،ثم يعود فيقول:

---

(٦٢) الشعر الاندلسى تأليف جارثيا جومث . ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٢٥ ،٢٧ سلسلة الالف كتاب (ادارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم – مصر ١٩٥٢م) .

" ونحن لاننكر أثر الاقليمية من حيث هو فدائما توجد فى كل اقليم صفات تميز أدبه بعض التمييز من أدب الاقاليم الاخرى ،ولكن ينبغي ألا ينزلق من ذلك الى القطع بأن الأقاليم العربية أوجدت لأنفسها آدابا متخالفة بتخالفها ،فان ذلك انما ينزلق اليه من لم يقرأ شيئا من آداب هذه الأقاليم ،فتراه يعتمد فى حكمه على الحدس والتخمين كأننا بازاء مسألة ميتافيزيقية ، أما الذين يكفون عقولهم عن مثل هذه الفروض لاجئين الى الحقائق الحسية الصحيحة يستمدون منها أحكامهم ،وآراءهم فانهم يعرفون أن جملة النماذج التى كونها الادب العربى فى أى اقليم من أقاليمة لا تختلف اختلافات واسعة عن النماذج الاساسية لهذا الادب التى كونها فى الشرق .... " (٦٣).

وهذا الكلام جيد من حيث أنه سجل الظاهرة الادبية بأمانة ودقة فى الاندلس وفى سائر الاقاليم العربية الاخرى ... ووصل الى أن الاندلس فى هذه القضية لاتختلف عن غيرها فى شئ ... فالكل يستمد فى الاساس أصول ثقافته وزاده الفكرى من بغداد وليت أستاذنا وقف عند كلامه هذا ،لكنه أراد من أهل الاندلس وحدهم دون سائر العرب أن ينحوا ماوصلهم من المشرق جانبا ،وهذا لعمرى شئ عجيب غريب لايتفق مع طبائع الاشياء ... اذ أن للحركة الثقافية فى الآداب والفنون قوانين تطرد فى الناس جميعا لاتفرق بين أندلسى وغير أندلسى .

أما الاستاذ أحمد ضيف رحمه الله ... فهو يشيد فى كتابه " بلاغة العرب فى الاندلس " ببراعة أدباء تلك البلاد ،ومكانتهم فى الادب العربى فيقول : " كان لعرب الاندلس أدب رائع وشعر بليغ ،ونثر بديع ،وسعة فى الخيال ،وقدرة على الابتكار ،وكانت دولة الادب هناك فى عز مجدها ،وأزهى عصورها ،وساحتها غاصة بالشعراء ،والكتاب فى كل فن من فنون البيان أو مذهب من مذاهب البلاغة ... فكان لهؤلاء الكتاب والشعراء أثر عظيم

---

(٦٣) انظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى ،د. شوقى ضيف ،ص ٣١٧ - ٣٢٠ .

فى اللغة العربية وآدابها،ولاسيما ما ابتكروه من أنواع المعانى والخيال فى النظم والنثر ..." (٦٤) .

ثم يقول : " على أن شعر الاندلس يمتاز فى جملته عن الشعر العربى بما فيه من المعانى المبتكرة الجميلة، التى كان يعالجها الشعراء هناك من الوضع البديع ،والكلام الرشيق والذوق النقى ،والافتنان فى اساليب الخيال،ولأنه يدل على حياتين ،ويرسم صورتين من أحوال العربى : فبينما ترى الشاعر يصبو الى ذكر بلاده الاولى من حياته البدوية،تجده يذكر الرياض والبساتين والازهار،والانهار،والمياه الجارية،وظلال الاشجار والنسيم العليل والآراء العامة والخاصةوأحوال الاجتماع والعادات ..." (٦٥) كمظهر لحياته الجديدة . ثم يتحدث عن الحياة العقلية فى الاندلس فيقول : " وقد نمت مواهب العرب فى أسبانيا كما ينمى النبات الصالح للحياة فى الارض الطيبة،وظهر أثر ذلك كله فى العلوم والفنون،كما ظهر فى أنواع البلاغة من شعر ونثر مما لم يكن عند سواهم،ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب،والعمل على فهم ماتركه الناس قبلهم من علوم عقلية أو نقلية،ومن صناعات وفنون،فكان لهم أثر فى كل شئ اطلعوا عليه فألفوا،ودونوا،واخترعوا،مما لايكاد يحصى،حتى ان الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل فى زمنهم لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرائح عند العرب جميعا ..." . (٦٦)

---

(٦٤) انظر بلاغة العرب فى الاندلس، احمد ضيف،ص (د)،ط١ سنة ١٣٤٢هـ .

(٦٥) انظر نفس المصدر ص ٣٦ .

(٦٦) انظر نفس المصدر ص ٩ .

ويتحدث الاستاذ احمد ضيف عن ارتباط العربى بشعره آينما حل فعندما نزل بلاد الاندلس الجميلة بذر بذوره الاصيلة فيها ... وتعهد غرسها هناك ،فنمت فى تلك الارض الخصبة ،فكانت كالزهرة الطيبة العرف ،لقحت بأصل آخر نضير الطلعة فظهر فيها أرج الطيب ،ونضارة اللون ،ذلك مثل الشعر العربى فى بلاد الاندلس ..." (٦٧) ثم يقول : " جاء الشعر بلاد الاندلس بصيغته الاولى البدوية ،ومالبث أن آخذ صبغة جديدة ،باتساع التصور ،واختلاف المناظر،والاطلاع على كثير من العلوم والآراء والميل الى مزج الحركة العقلية بالحركة الاجتماعية ،فتشمل كل مظاهر الافكار ومرافق الحياة ... ولكن كثيرا ماكان الشعراء يرجعون فى أساليبهم وأفكارهم الى الاساليب ،والافكار البدوية ... لان العرب من أشد الامم عصبية وحنينا الى وطنهم وعيشتهم الاولى ..." . (٦٨)

ثم يؤكد الصلة الحميمة التى تربط الشعر فى الاندلس بالشعر فى بغداد وغيرها فيقول : " والذى يقرأ الشعر الاندلسى يجده أخا للشعر فى بغداد ،بل فى بلاد العرب نفسها من حيث الصفات ،والموضوعات التى كانت عند القدماء ..." . (٦٩)

هذه نماذج من مواقف الدارسين العرب وبعض المستشرقين ممن يدينون الادب العربى فى الاندلس لما بينه وبين الادب العربى فى المشرق من صلات

---

(٦٧) المصدر السابق ص ٣٥.

(٦٨) المصدر السابق ص ٣٥ .

(٦٩) المصدر السابق ص ٣٥ .

واشجة ... على اختلاف بينهم فى درجات المغالاة والاعتدال . (٧٠)

وهناك دراسات آخرى معاصرة تأخذ جانب الدفاع عن هذا الأدب محاولة أن تبرز له شخصية مستقلة ... وتدفع عنه تهمة التقليد والاتباع للأدب العربى فى المشرق ... منطلقة فى طريقة البحث من نفس المنطلقات المنهجية التى تمثل وجهة النظر المقابلة . (٧١)

---

(٧٠) وانظر فى هذا الاتجاه أيضا :

الادب الاندلسى (موضوعاته وفنونه) الدكتور مصطفى الشكعة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٥م .

الادب العربى فى الاندلس ـ الدكتور عبدالعزيز عتيق ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ط : ثانية .

وتاريخ الادب الاندلسى (عصر سيادة قرطبة) الدكتور احسان عباس دار الثقافة ـ بيروت .

وتاريخ الادب الاندلسى (عصر الطوائف والموحدين) الدكتور احسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت .

وتاريخ آداب العرب ج٣ مصطفى صادق الرافعى ـ دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٤م .

وتاريخ الادب العربى ـ احمد حسن الزيات ـ دار الثقافة ـ بيروت .

وتاريخ الفكر الاندلسى ـ انخل بالنثيا ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس النهضة المصرية ١٩٥٥م .

ادب الاندلس وتاريخها ـ ليفى بروفنسال ـ ترجمة الدكتور عبدالهادى شعيرة ـ المطبعة الاميرية ١٩٥١ .

(٧١) الادب الاندلسى (من الفتح الى سقوط الخلافة) الدكتور احمد هيكل دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

الأدب الاندلسي بين التأثير والتأثير ، الدكتور محمد رجب البيومى .

بعد عرضنا لآراء هؤلاء الجلة الفضلاء من الدارسين المحدثين والمعاصرين لادب العرب فى بلاد الاندلس نلاحظ أنهم اعتمدوا جميعا فى أبحاثهم على نظرية الناقد الفرنسى " هيبوليت تين" (٧٢) بمقولاتها الثلاث : الجنس والزمان والمكان كما سبق أن أشرنا وأنهم ألحوا كثيرا على عنصر المكان أو الاقليم ،وغلب ذلك على تحليلهم وتقويمهم لهذا الادب ... لذلك يمكن تسمية اتجاههم هذا بالاقليمية العلمية ،ماثلة بهذا الوضع ازاء العصبية الاقليمية التى غلبت على دراسات السالفين .

ومعنى هذا ان الادب العربى فى الاندلس يجب أن يكون تعبيره عن البيئة واضحا ... ويجب أن تبرز شخصيته الاقليمية المستقلة ومن ثم تصبح له تقاليده الفنية الخاصة به ...

ولكنهم نظروا فى هذا الادب طويلا ... فوجدوا أنه فى معظمه محكوم بتقاليد فنية عريقة تربطه ربطا محكما بالادب العربى فى المشرق ...

ومن هنا حكم عليه معظمهم بالتقليد ،والمحاكاة **والصدى الخافت** ... وحكموا على الادباء فى هذه البلاد بأنهم باهتوا الشخصية ... ضعيفوا

---

(٧٢) انظر شرح نظرية "تين"ونقدها بالتفصيل فى كتاب الادب المقارن للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٥٥ ـ ٦٣ (بيروت ـ دار العودة والثقافة)
وانظر : النقد الحديث ،لنفس المؤلف .
وانظر نظرية الادب ـ تأليف رينيه ويليك،ترجمة محيى الدين صبحى ١٩٧٢م ـ دمشق .
وانظر الادب وفنونه ـ د. عز الدين اسماعيل ـ القاهرة .
وانظر الادب وفنونه ـ محمد مندور ـ القاهرة .

الملكات ... يؤثرون سهولة الاتباع على صعوبة الابتداع ...

وقد نسى هؤلاء الاجلاء فى غمرة التحليل ،والتعليل ،وحرارة تطبيق هذا الاتجاه أن الادب فى الاندلس جزء لايتجزأ من الادب العربى ... ومن ثم فان التقاليد التى تحكم الادب فى مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وبلاد ماوراء النهرين هى نفس التقاليد التى تحكم الادب فى الاندلس .

بل ولم يفطنوا الى أنه اذا ظهر تقليد فنى جديد فى الادب العربى بالاندلس فلابد أن يتسلل منها الى العراق والشام ومصر والجزيرة العربية وبلاد ماوراء النهرين ... وأمامهم فى ذلك المثل الشاخص : هو فن الموشحات ... الذى نجمت تقاليده بأرض الاندلس ،وكتبت نوتته الموسيقية بمصر ،وذاع أمره فى سائر الاصقاع ... ولأن المعيار الذى ارتكزوا عليه فى درس هذه القضية ليس دقيقا ... فان آراءهم بدأ يظهر فى أثناء عرضها التناقض ... وتختل فيها نصاعة المنطق ،ينظر أحدهم الى مقولة "البيئة" فيصدر حكمه بالتقليد والمحاكاة والصدى الخافت والشخصية الادبية التى تفقد الاستقلال ... ولكنه ينظر الى الواقع الماثل الذى ينطق بوحدة اللغة ،والثقافة والدين بين مشرق العرب ومغربهم ،فيتخاذل ويتقهقر عن حكمه الاول ...

ويبدو ذلك أوضح مايبدو عند الاستاذ أحمد أمين (٧٣) والدكتور شوقى ضيف (٧٤) ...

---

(٧٣) ظهر الاسلام ٣/١٠٤، ٢٣٠ .

(٧٤) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣١٧، ٣٢٠ .

أما الاستاذ الرائد أحمد ضيف رائد الدراسات فى هذا الحقل ،فقد وعى منذ البداية أن للأندلسيين بيئتين :

احداهما : اقليمية • والثانية : روحية أو ثقافية •

أما البيئة الاولى : فتلهمهم التجديد فى الموضوعات ،وبخاصة فى مجال الطبيعة والاجتماع •

وأما البيئة الثانية : فهى موجودة هنالك بعيدا فى الوطن الام بالمشرق الذى تجمعهم فيه وبأدبائه تقاليد روحية وثقافية وفنية واحدة • (٧٥)

ومجمل القول فى هذه القضية أن العصبية الاقليمية التى سيطرت على نظرة معظم السالفين مشارقة ومغاربة وأندلسيين ••• والاقليمية العلمية التى تسيطر على مناهج الباحثين فى الازمنة الحديثة والمعاصرة •••

كلتا النظرتين قد لوحظ فيهما عنصر الاقليمية باطراد بالنسبة للاندلسيين قديما وحديثا •

أما فى القديم فقد كان الادب العربى ينقسم الى قسمين : أدب المشرق وأدب المغرب ••• وغالبا ماكان يقصد بالمغرب الاندلس خاصة •

كان أدب المشرق يشمل العراق وبلاد ماوراء النهرين والشام ومصر والجزيرة العربية ••• وكان أدب المغرب يقصد به بلاد الاندلس ثم العدوة الافريقية وتونس •

وأما فى العصور الحديثة والمعاصرة حين سيطرت نظرية " تين" بمقولاتها الثلاث على مناهج الدراسة الادبية لوحظ أن مقولة الزمان كان

---

(٧٥) بلاغة العرب فى الاندلس ،ص (د) ،ص ٩ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٦ •

عليها المعول فى التقسيمات الادبية بالمشرق ... وكان اول من وضع هـــذه التقسيمات الاستاذ حسن العدل المدرس بدار العلوم العليا بمصر متأثـــرا فى ذلك بالمستشرقين الالمان . (٧٦)

وهكذا استقر تقسيم الأدب العربى فى المشرق الى عدة عصور : الجاهلى فالاسلامى ... فالاموى ... فالعباسى ... فعصر المماليك والاتـــــراك ... فالعصر الحديث ...

أما فى المغرب والاندلس ... فيغلب على الدراسة الادبية التعويـــــل على عنصر المكان ... وهكذا تبرز الاقليمية ،وتتأكد من جديد ... ويظهر فى الحقل الادبى مايسمى " بالادب الاندلسى " .

وبذا يوضع الادب الاندلسى دائمابإزاء الادب فى المشرق ... وكأنهمـــا أدبان لا أدب واحد ...

وعندما يلاحظ الدارسون المشابه الفنية بين الادب فى الاندلـــــــس والادب فى المشرق يصيحون مستنكرين : انظروا هذا هو الادب الاندلســــى ليس الا صدى خافتا لأدب المشرق .

وجدير بالذكر أن نسجل هنا فى هذا الموطن بالتحديد ،أن من بيـــن المتقدمين من مؤلفى العرب من لحظ طغيان العصبية الاقليمية على الاحكـــام الادبية ... فأنكر الانحياز الى عنصر (المكان) فى تقويم الادب العربـــى فى الاندلس ،ذلكم هو أبو القاسم على بن منجب بن سليمان المشهـــــور

---

(٧٦) يرجع الى كتاب آدبيات اللغة العربية للأستاذ حسن العدل .

وكتاب الوسيط فى الادب العربى ،للاستاذ احمد الاسكندرى وزميله .

وتاريخ الادب العربى لاحمد حسن الزيات ص ٤،دار الثقافة ـ بيـــروت ط ٢٦ .

بابن الصيرفى المولود بالقاهرة سنة ٤٦٣هـ والمتوفى بها سنة ٥٥٠هـ · (٧٧)

فقد ألف كتابا أسماه (المختار من شعر شعراء الاندلس) يقول فى مقدمته :

" ومن جعل الحق مقصوده ،والانصاف مطلوبه ،علم أن الفضائل ليست مخصوصة ببعض الامكنة ··· على أن الاقليم الرابع وانكان أفضل من غيره فذلك لايوجب سلب الفضيلة عما سواه ،ولاعدم الحسنة فيما عداه ··· وهذا لمن تأمله واضح ،ولمن تدبره جلى ··· ولقد وقفت للعصريين من شعراء الاندلس مالاعذر فى جحد احسانه ،ولاحجة فى ترك استحسانه " · (٧٨)

وهكذا يرفض ابن الصيرفى الاحتكام الى عنصر (المكان) شجبا للعصبية الاقليمية ·

والجدير بالدارس المعاصر أن يرفض أيضا الاحتكام الى (عامل المكان) تجنبا لتعسف الاقليمية العلمية ·

ومع ذلك فنحن لاننكر أثر البيئة فى الادب ··· ولكن ننكر أنها العامل الحاسم فيه ··· أجل للبيئة أثرها ··· ولكنه الاثر الخارجى ··· لاالاثر العضوى الداخلى ··· أثر فى العرض ··· وليس آثرا فى الجوهر ··· فقدتمد البيئة الاديب بالموضوع أو بمادة الصورة ··· أما قوانين الادب الفنية ··· وتقاليده الجمالية فلا دخل للبيئة فيه ··· ذلك أن

---

(٧٧) معجم الادباء ٧٩/١٥ لياقوت الحموى ·

وفيات الاعيان ٢٧/١، ١٧٧/٢، ٣٣٤/٣، ٣٧٤/٤ ابن خلكان ·

(٧٨) المختار من شعر شعراء الاندلس ص ٤٥ لابن الصيرفى ــ تحقيق الدكتور عبدالرزاق حسين (دار البشير) عمان١٩٨٥م ·

الادب يتأثر بالادب ... والفن يتغذى من الفن ... وكما لايجدى الانسان دم من غير فصيلته ... فكذلك الادب لايؤثر تأثيرا عضويا فيه شئ خارج عن معدن الادب ... (٧٩)

ان تطور التقاليد الفنية رهن بظهور الاديب العظيم المبدع الذى يعمل عمله فى التجديد والاضافة ... فلا تلبث أن تؤخذ عنه ، وتتردد فى الافاق منه ... سواء ظهر هذا العبقرى فى أقصى المشرق أو فى أقصى المغرب .

واذن فليس هناك أدب أندلسى ... ولكن هناك أدب عربى فى الاندلس ...

ومن ثم فان من يتصدى لدراسة قضية من قضايا الادب العربى فى الاندلس ... عليه أن يدرسه فى سياق الادب العربى العام .

فان وجد اتباعا فعليه أن يرصده ثم يرجعه الى أصوله الفنية ...

وان وجد ابتداعا فعليه أن يضعه فى مكانه من الادب العربى ككل ...

أما هذا البحث فقد اختار للدراسة الادبية قضية من قضايا فن النثر من الادب العربى فى الاندلس آخذا فى الاعتبار أنه جزء لاينفصل عن فن النثر فى الادب العربى على اطلاقه ... ومن ثم فانه ليس من الغريب فى ظل هذا المنهج أن يتسلل الى الاندلس أثر الاتجاهات الفنية من النثر فى المشرق متمثلة فى هؤلاء العمالقة : عبدالحميد ، وابن المقفع ، والجاحظ

---

(٧٩) انظر الدراسة الادبية ـ د. مصطفى ناصف ص ٩٣ ـ ١٢٧ . مطبعة الدار القومية ـ القاهرة .

ومحاضرات الدكتور عبدالبصير عبدالله حسين ، ص ١ ـ ٣ (بالآلة الكاتبة)

وابن العميد والبديع والحريرى ،والقاضى الفاضل ... (٨٠) فتظهر فى آثار ابن برد الاكبر وابن برد الاصغر،وابن زيدون،وأبى مروان الجزيرى وابن بسام ،والفتح بن خاقان،وأبى طاهر السرقسطى وأبى مروان ابن حيان وابن الخطيب ... كما ظهر تأثيرهم فى جملة من كتاب المشرق : فى مصر والشام ،والعراق ،سواء بسواء . (٨١)

* * * * * *

وقد اخترت للدراسة الفنية من ميدان " فن النثر" فى الاندلس ثلاثة أعمال أدبية متميزة يمثل كل واحد منها تجربة فنية متميزة للتدليل على تجديدات الاندلسيين فى فن النثر العربى ككل ... آخذا فى الاعتبار

---

(٨٠) انظر : تاريخ الادب العربى ٦٧/٣ ـ ١٦٥،ط١ ،القاهرة تأليف السباعى بيومى .

وانظر : تطور الاساليب النثرية ـ تأليف أنيس المقدسى ،بيروت ١٩٣٥م. ص ١٤٦ ـ ص ٢٩٩ .

وانظر : نشأة الكتابة وتطورها ـ تأليف د. حسين نصار .

وانظر : تاريخ الادب العربى ج٣ . ت : محمود مصطفى .

وانظر : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ـ شوقى ضيف :ص ١١٣، ١٣٤، ١٥٤، ٢٠٥، ٢٣٨، ٢٩٢، ٣٦٨ .

وانظر : بلاغة الكتاب فى العصر الحديث ـ د. نبيه حجاب ص ١٣ ـ ٩٧ القاهرة ،ط ١ .

(٨١) انظر : الفن ومذاهبه فى النثر العربى، ٣٨٩ ـ ٣٩٠ .

وانظر : الادب العربى فى الاندلس ـ د. عبدالعزيز عتيق ،ص ٤٢٩ ـ ٤٣٦.

وانظر : النثر الاندلسى فى عصر الطوائف والمرابطين،تأليف د. حازم عبدالله خضر ص ٥١٥ ـ ٥٢٥، العراق (دار الحرية) ١٩٨٠م .

وانظر : تاريخ الادب الاندلسى ـ عصر الطوائف والمرابطين ص ٢٨٠ ـ ٢٣٦ ط/احسان عباس.

وانظر : الادب الاندلسى ـ د. مصطفى الشكعة ص ٥١٥ ـ ٥٩٣ ،دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٥م،ط ٣ .

أن هذه التجديدات لاترجع فى تطورها الفنى الى عوامل اقليمية ... ولكنها ترجع الى السياق العام للادب العربى باطلاقه ...

أما العمل الادبى الاول : فيعالج " تجربة خيالية" وقد اختار لهما صاحبها عالم ما وراء الحس وهو" رحلة ابن شهيد فى عالم الجن" . أو رسالة "التوابع والزوابع" الموسومة ب" شجرة الفكاهة" .

وأما العمل الثانى : فيعالج " تجربة عاطفية" وقد اختار لها صاحبها قالب الحكايات القصيرة مبثوثة كبقع الضوء فى اطار عام جاف من التقسيمات المنطقية والتفصيلات الفرعية وهو " اعترافات ابن حزم العاطفية" أو كتاب " طوق الحمامة" .

وأما العمل الثالث : فيعالج " تجربة ذهنية" وقد اختار لها صاحبها قالب القصة الرمزية محاولا أن يزاوج فيها بين الفكر والفن ،وهى " قصة حى بن يقظان" .

وفى ضوء هذا المنهج ... بتوفيق من الله ... نكون قد نجونا من عسف العصبية الاقليمية ،وبعدنا عن حيف الاقليمية العلمية ... ووضعنا القضية فى اطارها الفنى الصحيح .

الباب الأول

رحلة ابن شهيد في أرض الجن

أو

قصة «التوابع والزوابع»

الفصل الأول

ابن شهيد بين أدباء الجن ونقادهم

قبل أن نستعرض أحداث " رسالة التوابع والزوابع " لابن شهيد . (١)

---

(١) أبو عامر أحمد بن مروان : عبدالملك بن مروان بن أحمد بن عبدالملك بن محمد بن عيسى بن شهيد الاشجعى... من ولد الوضاح بن رزاح الذى كان مع الضحاك بن قيس الفهرى يوم مرج راهط ،ولد فى بيت أبيه بقرطبة سنة ٣٨٢ هـ في أيام المنصور بن أبى عامر...كانت لعائلته صلة واشجة بأسرة الحاجب الحاكم الفعلي للاندلس ... مدح المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ... وصحب أبا عامر ابن المظفر بن المنصور ... كان ولاؤه للامويين ولكنه لم يكن موفور الحظ معهم خلا عبد الرحمن المستظهر الذى استوزره... واتصل بالحموديين ،ولكنه كان سيء الحظ معهم فسجن في أيامهم خلا يحيى بن حمود الذى قربه وشجعه على الهجرة من قرطبة الى مالقة...كان له نخبة من الخلصاء مثل أبي محمد بن حزم وأبى المغيرة بن حزم... كما كان ضده عصبة من الكاشحين مثل ابن فتح وابن عباس ... له من التصانيف البديعة : " كشف الدرك وايضاح الشك " و " حانوت عطار" و" التوابع والزوابع " ... وقد ضاع الاولان.

أما شعره : فقد جمعه المستشرق " شارل بلا " ... ثم المستشرق " يعقوب زكى " توفى بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ ودفن بجانب صديقه أبى الوليد الزجالى بوصية منه ... انظر ترجمته في :

١ ـ وفيات الاعيان ـ لابن خلكان ـ ت / احسان عباس ـ دار صادر ١٩٦٨م ـ ١ / ١١٦ .

٢ ـ جذوة المقتبس ـ للحميدى ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ص ١٣٣.

٣ ـ بغية الملتمس ـ للضبى ـ دار الكتاب العربى رقم ٤٣٧ ،ص ١٩١ .

٤ ـ الذخيرة ـ لابن بسام ـ ت / احسان عباس ـ دار الثقافة ،بيروت ١٩١/١ .

٥ ـ المغرب ـ لابن سعيد ـ ت / شوقى ضيف ،ط ٣ ،دار المعارف ، ١٧٨/١.==

يحسن أن نقدم بين يدى ذلك خلاصة موجزة لنشأة فن القصص بالمعنى العام عند العرب لنضع هذه القصة فى مساقها التاريخى من الادب العربى ،فنقول :

عرفت العرب القصص غير المدون منذ فترة مبكرة ،وقد وصل هذا الفن الى الاجيال المتعاقبة عن طريق الرواية الشفوية ... فقد كانت مجالس الخلفاء والولاة الميدان الطبيعى الذى ينفق فيه ... لاهتمامهم بأخبار من سبقهم ،وحرصهم على معرفة تجارب غيرهم ... ولعل طبقة الوعاظ أسبق

= ٦ – مطمح الانفس – للفتح بن خاقان – دراسة وتحقيق محمد على شوابكة ط١ ،دار عمار ،مؤسسة الرسالة ،بيروت ١٤٠٣هـ،ص ١٦ .

٧ – اعتاب الكتاب – لابن الابار ،ص ٧٤ .

٨ – المطرب – لابن دحية – ت / الابيارى ،وحامد عبدالمجيد، المطبعة الاميرية، ١٩٥٤م ،ص ١٤٧ .

٩ – معجم الادباء – لياقوت – دار احياء التراث ،الطبعة الاخيرة ٢١٨/٢ – ٢٢٠ .

١٠ – الوافى بالوفيات – للصفدى ،ص ٧ .

١١ – الورقة ،ص ٧ .

١٢ – يتيمة الدهر – الثعالبى – ت / محيى الدين عبدالحميد ط١ ، ٣٥/٢ .

١٣ – المسالك – لابن فضل الله العمرى ، ٢٨/١١ .

١٤ – نفح الطيب – للمقرى – ت / احسان عباس – دار صادر – بيروت ١٥٦/١ ومابعدها .

١٥ – وله ذكر فى بدائع البداية ،و شرح الشريشى .

ومن المراجع الحديثة : تاريخ الادب الاندلسى – عصر سيادة قرطبة احسان عباس ،ط٢ ،ص ٢٧ .

رسالة التوابع والزوابع – ت / بطرس البستانى – دار صادر، ١٣٨٧هـ .

الناس الى اصطناع هذا الفن اذ كانوا يجلسون الى الخلفاء ويوجهون لهم النصائح الارشادية يتخللها بعض القصص التى تحتوى على أخبار الممتازين من الاسلاف ... نجد بعضا من هذه الاخبار فى كتب ابن قتيبة والجاحظ وغيرهم (٢)

وقيل : ان أول من قص من الصحابة الاسود بن سريع ... ثم كان أول من قص من التابعين بمكة عبيد بن عمير الليثى ، وقد جلس اليه عبد الله بن عمر وسمع منه وكان ذلك داعية الى اقبال الناس ورغبتهم فى استماع القصص لمكان ابن عمر من الدين والورع ، وقد أقرته على ذلك عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، ولم تنكر عليه .

ثم صار القصص مما يلقى فى المسجد ، وقد خصص له بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حلقات كحلقات الدروس .

ورحم الله الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠هـ فقد كان يهتم بهذا القصص الدينى ، ويتخذ منه وسيلة لنصح الخلفاء وارشادهم ... وقد كان رأس طبقة القصاص فى القرن الثانى . (٣)

ثم دونت بعض الاقاصيص المترجمة عن الهند وفارس امثال " كليلة ودمنة " و " ألف ليلة وليلة " التى يغلب عليها طابع الخرافة والطرافة فأعجب بها الناس ، ولعبت دورا كبيرا فى امتاع قرائها مما جعلها

---

(٢) انظر تاريخ آداب العرب ـ الرافعى ج ١ ، ص ٣٨٢ .

وانظر : الادب فى موكب الحضارة الاسلامية ـ د. الشكعة ، ص ٥٦٤ .

(٣) انظر المصدرين السابقين .

تذيع وتشيع حتى وصلت الى اوروبا وتأثر بها كتاب القصص هناك . (٤)

اذا فالقصص بمعناه العام قديم قدم الانسان نفسه ،ولكن لم يؤثر عن عرب الجاهلية قصص يذكر، اللهم الا مالايخلو منه مجتمع أيا كانت درجته من البدائية أو التحضر من أقاصيص قصيرة تتضمن خرافات وأساطير وتعوزها العناصر الاساسية للقصة ولايرجع ذلك الى طبيعة العقلية العربية بقدر مايرجع الى الظروف الثقافية السائدة ،فقد ضرب هؤلاء بسهم في الشعر فأبعدوا المرمى ،وقد طغى هذا الوعاء الثقافى على الاوعية الاخرى حتى قيل بحق " الشعر علم قوم لم يكن علم أصح منه " (٥).

ولذلك لما نزل القرآن الكريم يقص على الناس نبأ من قبلهم ،نظر كفار قريش الى تراث العرب فلم يجدوا فيه مايمكن أن يتسم بسمة القصص حتى يلهو الناس به عند سماع القرآن فاتجهوا الى قصص الفرس ظنا منهم أنها قد تنجح فى أداء هذا الغرض ... فالقصص اذا من نتاج الثقافة العربية الاسلامية التى بدأت منذ القرن الهجرى الاول ... والقرآن الكريم أسهم اسهاما عظيما فى بذر البذور الاولى لهذا الفن فى التربية العربية بما اصطنعه من أساليب القصص والحوار ... وحكاية أخبار الامم السالفة ،وموقفهم من الانبياء والرسل صلوات الله عليهم . (٥)

ثم جاء بديع الزمان الهمذانى فوضع فى باب القصص مقاماته

---

(٤) انظر المصدرين السابقية ،وكذلك الادب المقارن - غنيمى هلال .

(٥) ينسب هذا القول الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،أنظر : طبقات فحول الشعراء ،لابن سلام الجمحي ،ص ١٠ ،من نص ابن سلام .

(٥) انظر : تأثير القصص العربى - د. عبد الحكيم حسان - محاضرات كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى لعام ١٤٠٣/١٤٠٤هـ .

المشهورة فوطد اركان هذا الفن فىأدب العرب ،وقد سبق بديع الزمان ابن دريد الذى مهد له الطريق ويسر له سبل الاجادة فى هذا الحقل الادبى البكر ... ومن هنا يعتبر الربع الاخير من القرن الرابع الهجرى هو بداية انشاء القصة على نحو متميز على يد هذا الكاتب الموهوب أبى الفضل الملقب ببديع الزمان . (٦)

ثم يبزغ بالافق الغربى بالاندلس نجم أبى عامر أحمد بن شهيد فيؤلف قصة مفارقة فى الطريقة لمقامات البديع مجانبة لمنهج القصص فى كليلة ودمنة أو ألف ليلة وليلة ... تلك هى قصة " التوابع والزوابع " أو " شجرة الفكاهة " وقد كتبت فى الربع الاول من القرن الخامس الهجرى وهى قصة خيالية تدور أحداثها فى عالم ماوراء الطبيعة ... تحكى رحلة أبى عامر فى عالم الجن ... والتقائه بشياطين الشعراء السابقين ... فناقشهم وناقشوه ،وأنشدهم وأنشدوه وعرض أثناء ذلك بعض آرائه فى النقد والادب ،وكثيرا من أشعاره ،ونثره كما نقد خصومه ،ودافع عن فنه ،وانتزع منملهمى الشعراء والكتاب الاقدمين شهادات بتفوقه ،وعلو كعبه فى الادب ،كل هذا مع بث الفكاهات ،ونشر الطرائف ،وايراد الدعابة ... ونستطيع أن نقول انها أول قصة فى أدبنا العربى تدور أحداثها فى عالم ماوراء الحس ،وسنعرف ذلك من خلال عرض احداث القصة فى الصفحات القادمة ان شاء الله تعالى . (٧)

---

(٦) انظر مقدمة شرح مقامات الحريرى للشريشى ،وزهر الاداب ص ٣٠٦ .

(٧) ينظر فيما سبق :

١ - مقدمة شرح مقامات الحريرى للشريشى .

٢ - زهر الاداب للحصرى ص ٣٠٦ ط/٤وتعليق زكى مبارك عليه . =

....

= ٣ ـ الادب الاندلسى ،د٠ الشكعة ص٦٤١ ٠

٤ ـ انظر النثر فى عصر الطوائف والمرابطين ص ٢٩٥،٢٢٦ ٠

٥ ـ الادب المقارن ـ غنيمى هلال ص ٢٢٨ ٠

٦ ـ كتاب الادل الاندلسى من الفتح حتى سقوط الخلافة ، احمد هيكـــــل ص ٣٧٨ ٠

٧ ـ تاريخ آداب العرب ـ للرافعى ج / ١ ،ط / ٤ ٠

٨ ـ تأثير القصص العربى ،د٠ عبد الحكيم حسان ،مقال نشر فى مجلـــة محاضرات كلية اللغة العربية ،جامعة أم القرى ،لعام ١٤٠٤/١٤٠٣ ١٩٨٣ /١٩٨٤م ٠

يبدأ أبو عامر ـ قبيل بدء قصته ـ بتوجيه الخطاب الى من يكنيه "أبا بكر" فذكر له متحدثا عن نفسه : كيف تعلم ونبغ ،وحذق العلوم والآداب ... حتى أوتى الحكم صبيا وهز بجذع نخلة الكلام فاساقط عليه رطبا جنيا ... مما جعل صاحبه " أبا بكر" المخاطب يتعجب منه ... ويقسم أن له تابعة تنجده ... وزابعة تؤيده ... لأن ما أحرزه من المعارف والآداب يفوق قدرة الانس ... ويقره أبو عامر على هذا الظن ... واندفع يفسر له جلية الخبر فيقول : "أما وقد قلتها أبا بكر فأصخ أسمعك العجب العجاب"ثم انبرى يحدثه بأنه كان له هوى كلف به ... فاتفق أن مات من يهواه ... فأراد رثاءه ... فأنشده ما أنشد من الابيات ثم ارتج عليه وأفحم ... فجاءه المنقذ فى هيئة فارس وقف بباب المجلس يمتطى فرسا أدهم وصاح بأبى عامر أعجزا يافتى الانس ... فقال : لا وأبيك،للكلام أحيان،وهذا شأن الانسان ... ثم أكمل له البيت، قال أبوعامر : فأثبت اجازته ... وقلت له من أنت ؟ قال : أنازهير بن نمير من أشجع من الجن ... وجرت بينهما محاورة لطيفة أخبره خلالها برغبته فى اصطفائه ... فسر أبو عامر بذلك ورحب به قائلا : " صادفت قلبا اليك مقلوبا ،وهوى نحوك مجنوبا ... ثم تحادثا حينا ... وأعطاه أبياتا ،ينشدها حال ارادته اياه ،فيحضر ،ثم أوثب الادهم وغاب عنه .

ويستمر ابن شهيد يحدثنا عن لقاءاته مع زهير الجنى الذى مافتئ يأتيه كلما أنشد أبياته .

ففى يوم من الايام تذاكرا معا أخبار الخطباء والشعراء،وماكان يألفهم من التوابع والزوابع... وطلب مقابلةمن اتفق منهم فاستمهله

زهير حتى يأخذ الاذن من شيخهم،فانصرف ثم عاد مأذونا له ... ويركب أبوعامر خلف زهير على متن جواده فطار بهما الجواد يجتاب الجو فالجو ... ويقطع الدوفالدو ... حتى دخلا أرض الجن ،فاذا هى أرض ليس كأرضنا ،وتعطرا من نسيم جو ليس كجونا ،متفرع الشجر،عطر الزهر،وأخبره صاحبه بأنه قد حل أرض الجن،وماعليه الآن يختار من يريد من التوابع فطلب أن يبدأ بصاحب امرئ القيس .

وكأن هذا يقطن واديا من الأودية له دوح تتكسر أشجاره ،وتترنم أطياره ... فاستدعاه زهير قائلا : " عتيبة بن نوفل،بسقط اللوى بين الدخول فحومل ويوم دارة جلجل الاماعرضت لنا وجهك ،وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الانس وعرفتنا كيف اجازتك له ؟ فتجلى لهم فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب ... فتبادلا الانشاد حتى انتهيا بفوز أبى عامر واجازته له .

ويتجه أبو عامر مع صاحبه قاصدين عنتر بن العجلان صاحب طرفة حتى انتهيا الى غيضة شجرها شجران ... وبدت لهما عين معينة تسيل ،ويدور ماؤها فلكياولايحول ،نادى زهير عنتر بن العجلان ،بخولة ،وماقطعت معهما من ليلة ، الا ماعرضت لنا وجهك ... وهنا يتجلى لهما راكب جميل الوجه قد توشح السيف ،واشتمل عليه كساء خز ،وبيده خطى ... فرحب بهما ... ثم تناشدا الشعر،فأنشد أبو عامر شعرا رائعا ... مما أذهل عنتر فصاح به لله أنت وأجازه .

ويسائل زهير صاحبه:الى من تتوق نفسك بعد من الجاهليين ؟،فقال له كفانى من رأيت أصرف وجه قصدنا الى صاحب أبى تمام .

وبينما هما كذلك اذا بفارس كأنه الاسد على فرس كأنها العقاب يهدر صوته بشعر حماسي: يقول أبو عامر : فاستربت منه فقال له زهير : لاعليك هذا أبو الخطار صاحب قيس بن الخطيم .

ثم قابلاه وحياه زهير، وعاتبهما كيف يحاد عن أبى الخطار، ولايخطر عليه ؟ فاعتذر اليه بكونه صاحب قنص ... لايريد ان مشغلته .

فطلب أبو الخطار من أبى عامر أن ينشد وهدده ان لم يجد ... ولكن أبا عامر أنشده أبياتا رائعة جعلته يتبسم ويثنى على حسن تخلصه وقال له : اذهب فقد أجزتك .

وتستمر الرحلة حتى وصلا الى شجرة غيناء، يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء ... وكان يقطنها عتاب بن حبناء صاحب أبى تمام ، فناداه زهير : بعمرو والقمر الطالع ، وبالرقعة المفكوكة الطابع الا ما أريتنا وجهك ! يقول : فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفلقة القمر، ثم اشتق الهواء صاعدا الينا من قعرها حتى استوى معنا ... وحياهم ، فأخذ أبو عامر يسأله : ما الذى أسكنه قعر هذه العين ؟ فأجاب بقوله حيائى من التحسن باسم الشعر ولا أحسنه .

فصاح أبوعامر : ويلي منه ، كلام محدث ورب الكعبة . ثم استنشده فأنشد أبو عامر بعضا من رثائه ، فأعجب به ونصحه بقوله :" ان كنت ولابد قائلا ، فاذا دعتك نفسك الى القول فلاتكد قريحتك ، فاذا أكملت فجمام ثلاثة لاأقل ونقح بعد ذلك .. وما أنت الامحسن على اساءة زمانك . يقول أبو عامر : فقبلت على رأسه ، وغاص فى العين .

ثم يواصل أبو عامر وصاحبه رحلتهما يقطعان الفيافى والوديان

قاصدين دير حنة ليلتقي بحسين الدنان صاحب أبي نواس ... وفي طريقهما تجاوزا قصرا عظيما أمامه ميدان للخيول تتطارد فيه ... فسأل أبوعامر لمن هذا القصر ،فقال زهير : لطوق بن مالك صاحب البحتري ،وكنيته أبو الطبع .فرغب أبو عامر في مقابلته ،فناداه زهير،فاذا هو فتى على فرس أشعل وبيده قناة ... فخاطبه زهير بقوله : انك لمؤتمنا .... فقال: لا صاحبك أشمخ مارنا من ذلك لولا أنه ينقصه .فرد أبوعامر : أبا الطبع على رسلك. ان الرجال لاتكال بالقفزان ... ثم تناشدا ... وعندما أنشد أبو عامر : غضب ابو الطبع وكأنما غشي وجهه قطعة من الليل ،وكر راجعا الى ناورده دون أن يسلم ... ولكن زهيرا لم يتركه ،بل صاح به : أأجزته؟ فقال : أجزته ،لابورك فيك من زائر ،ولابورك في صاحبك أبي عامر !

ويستمران في رحلتهما الى جبل دير حنة قاصدين حسين الدنان ،فيقول أبوعامر : فشق سمعي قرع النواقيس ،فصحت من منازل أبي نواس ورب الكعبة! وماعلامات هذا الدير ياتري ؟ انها الكنائس والحانات،ويدخل زهير قائلا : سلام على أهل دير حنة ،فأقبلت نحوهم الرهابين مشددة بالزنانير قد قبضت على العكاكيز ،بيض الحواجب واللحى اذا نظروا الى المرء استحيا ،مكثرين للتسبيح،عليهم هدى المسيح ،فقالوا : أهلا بك يازهير من زائر وبصاحبك أبي عامر . وطلبا مقابلة حسين "الدنان صاحب أبي نواس ... فاعتذروا اليهما بأنه لفي شرب الخمرة منذ أيام عشرة ،وماتراكما منتفعين به .

ولكنهما أصرا على مقابلته فدخلا بيتا قد اصطفت دنانه ،وعكفت غزلانه وعلى فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة ،قد افترش اضغاث زهر واتكأ على

زق خمر ... فصاح به زهير : حياك الله يا أبا الاحسان فرد عليهم بكـلام لايعقل لغلبة الخمر عليه ... فقال زهير لصاحبه : اقرع أذن نشوته باحدى خمرياتك فصاح أبو عامر ينشد واصفا للخمرة حتى أيقظه من حبائل نشوته قائلا : أأشجعى ؟ واستدعى ماء قراحا فشرب منه وغسل وجهه وأفاق واعتذر اليهما من حاله ... يقول أبو عامر : فأدركتنى مهابته لمكانه من العلم والشعر ... فتناشدا شيئامن الخمريات . فلما أنشد أبوعامر أبياتا جيدة فى ذلك وأخرى غزلية فى امرأة مرت أمامه وفرت مسرعة خشية ان يشبب بها .

فلما نظرها قال فيها هذه الابيات التى أعجب بها صاحب أبى نواس ،وأخذ يرقص ويرددها ،وعندما أفاق قال : هذا والله شىء لم نلهمه نحن .ثم استدنانى فدنوت منه فقبل بين عينى ،وقال : اذهب فانك مجاز .

وينحدر أبو عامر وصاحبه من الجبل ليختم جولته مع الشعراء بحارثة ابن المغلس صاحب أبى الطيب ... فقال له زهير : اشدد له حيازيمك وعطر له نسيمك ،وانثر عليه نجومك ... يقول أبو عامر : فأمال عنان الادهم الى طريق ،فجعل يركض بنا وزهير يتأمل آثار فرس لمحناها هناك فقلت له : ماتتبعك لهذه الآثار ؟ قال : هى آثار فرس حارثة بن المغلس صاحب أبى الطيب ،وهو صاحب قنص ... ثم اتجها اليه فاذاهو فارس على فرس بيضاء ،كأنه قضيب على كثيب وبيده قناة قد اسندها الى عنقه ،وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عذبة صفراء ... فحياه زهير ،فأحسن الرد ناظرا من مقلة شوساء ،قد ملئت تيها وعجبا ... يقول أبو عامر : فعرفه زهير قصدى ،وألقى اليه رغبتى .فقال : بلغنى أنه يتناول ... قلت

للضرورة الدافعة،والا فالقريحة غير صادعة،والشفرة غير قاطعة،قال:
أنشدني ،وأكبرته أن أستنشده ... وأنشد أبوعامر فلما انتهى ... قال
حارثة لزهير : ان امتد به طلق العمر،فلابد أن ينفث بدرر،وما أراه
الا سيحتضر بين قريحة كالجمر،وهمة تضع أخمصه على مفرق البدر،فقلت : هلا
وضعته على صلعة النسر ! فاستضحك الى وقال : اذهب فقد أجزتك بهذه
النكتة،فقبلت على رأسه وانصرفنا .

وبعد أن قضى أبو عامر وقتا ممتعا مع الصفوة التى اختارها من
الشعراء الفحول الذين شاع ذكرهم فى الادب العربى،لما لهم من قوة
شاعرية ... وقدرة بيانية فائقة فأصبح بعضهم صاحب مدرسة مستقلة فى
عالم الشعر ... رغب فى خوض تجربة أخرى مع من اتفق من الكتاب ،ليختبر
قدرته النثرية ،ويقارنها بما عند هؤلاء مبرزا قوة نثره كما أبرز قوة
شعره ... ويطلب من صاحبه أن يميل به الى الخطباء - يقصد الكتاب -
فيقول : فركضنا حينا طاعنين فى مطلع الشمس،ولقينا فارسا أسر الى
زهير خبره وانقطع عنا ... وكان هذا السر: هو اخباره بأن الخطباء
قد اجتمعت فى مرج دهمان على بعد فرسخين من مكانهما ... وسبب اجتماعهما
أنهم اختلفوا على الفرق بين كلامين لبعض فتيان الجن . وانتهيا الى
المرج فاذا هما بناد عظيم قد جمع كل زعيم ... فسلم زهير على فرسان
الكلام ... فرحبوا مشيرين بالنزول ... وتراكض الجمع مقدمين لزهير
وصاحبه ... وكلهم ينظر الى شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه
قلنسوة بيضاء طويلة ... ذلك هوعتبة بن أرقم صاحب الجاحظ،وكنيته

أبو عيينة. فقام زهير ليعرف الحاضرين بصاحبه أبي عامر ... وبين رغبته في مقابلة صاحب الجاحظ،وصاحب عبد الحميد الذي كان يجلس الى جواره . يقول أبو عامر : انصاحب الجاحظ استدناه وأخذ في الكلام معه فصمت أهل المجلس ،وقال له : انك لخطيب،وحائك للكلام مجيد،لولا أنك مغرى بالسجع ،فكلامك نظم لانثر .

فهمس أبوعامر في نفسه " قرعك الله بقارعته ،وجاءك بمماثلته " ثم قال له : ليس هذا أعزك الله ،مني جهلا بأمر السجع ... ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ،ودهيت بغباوة أهل الزمان ... فأردت أن أحركهم بالازدواج ... فأنكر صاحب الجاحظ ذلك منهم قائلا : أهذا على تلك المناظر وكبر تلك المحابر وكمال تلك الطيالس ؟

ويجيب أبوعامر : نعم انها لحاء الشجر،وليس ثم ثمر ولاعبق فقال له : صدقت .اني أراك قد ماثلت معي ... ثم سأله عن كلامهم فأجاب أبو عامر : ليس لسيبويه فيه عمل ولاللفراهيدي اليه طريق ولاللبيان عليه سمة ، انما هي لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط . فصاح : انا لله ،ذهبت العرب وكلامها! ارمهم ياهذا بسجع الكهان،فعسى أن ينفعك عندهم ... ويطير لك ذكر فيهم ... يقول أبو عامر : فقال الشيخ الذي الى جانبه ،وقد علمت أنه صاحب عبد الحميد ونفسي مرتقبة الى مايكون منه : لايغرنك منه ، أبا عيينة ،ماتكلف لك من المماثلة ، ان السجع لطبعه .. وماأراه الامن اللكن ،والا فما للفصاحة لاتهدر،ولا للأعرابية لاتومض ؟

يقول أبو عامر : فقلت في نفسي : طبع عبدالحميد ومساقه ورب الكعبة ! ويدخل معه فى هذا الحوار :

قال أبو عامر : لقدعجلت ،أبا هبيرة — وكان قد عرف كنيته من زهير — ان قوسك لنبع ،وان ماء سهمك لسم ،أحمارارميت أم انسانا وقعقعه طلبت أم بيانا؟... ويشتد أبو عامر قائلا : ان البيان لصعب وانك منه لفى عباءةتتكشف عنها أستاه معانيك، تكشف است العنز عن ذنبها ... الكلام عراقى لاشامى ،انى لأرى من دم اليربوع بكفيك ،وألمح من كش الضب على ماضغيك ... يقول أبو عامر : فتبسم الى وقال :أهكذا أنت يا أطيلس تركب لكل نهجه ،وتعج اليه عجه ؟ فقلت : الذئب أطلس وان التيس ماعلمت ... فصاح به أبو عيينة : لاتعرض له وبالحرا أن تخلص منه ،فقال أبو عامر : الحمد لله خالق الأنام فى بطون الانعام . فقال انهاكافية لو كان له حجر .... قال أبو عامر : فبسطانى وسألانى أن أقرأ عليهما من رسائلى ،فقرأت رسالتى فى صفة البرد،والنار والحطب فاستحسناها ... ثم قرأ عليهما بعد ذلك رسالته فى الحلواء،فأثنيا عليها ... ثم بثهما شكواه من معاصريه ممن يجحدونه مكانته ،وخص منهم أبامحمد وأبا القاسم وأبا بكر يقول أبو عامر : فأما أبو محمد فانتضى على لسانهعند المستعين ،وساعدته زرافة من الناس .

وأما أبو بكر فأقصر،واقتصرعلى قوله : لهتابعة تؤيده ...

وأما أبو القاسم فمكانه من نفسى مكين ،وحبه بفؤادى دخيل ،على أنه حامل على ،ومنتسب الى ... يقول أبو عامر : فصاحا — يقصد صاحب

الجاحظ وصاحب عبدالحميد ــ يا أنف الناقة بن معمر يريدان صاحب أبى القاسم الافليلى،وهو جنى أشمط ربعة وارم الانف يتظالع فى مشيته كاسرا لطرفه ،وزاويا لأنفه ،وسألاه عن أبى عامر : فأجاب قائلا : فتى لم أعرف على من قرأ ... يقول أبو عامر : فقلت لنفسى : العصا من العصية ... وأخذت للكلام أهبته ،ولبست للبيان بزته ،فقلت وأنا أيضا لاأعرف على من قرأت ... فغضب أنف الناقة وقال : ألمثلى يقال هذا ؟ فقال أبوعامر : فكان ماذا ؟ قال أنف الناقة : فطارحنى كتاب الخليل .

قال أبو عامر : هو عندى فى زنبيل ... قال أنف الناقة : فناظرنى على كتاب سيبويه .قال أبو عامر : خريت الهرة عندى عليه ،وعلى شرح ابن درستويه .

فقال أنف الناقة : دع عنك ،أنا أبو البيان .

قال أبو عامر : لاه الله (٠انما أنت كمغن وسط،لايحسن فيطرب ولايسىء فيلهى ... قال أنف الناقة : لقد علمنيه المؤدبون .

قال أبوعامر : انماهو منتعليم الله تعالى حيث قال : " الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان" ... ودخلا فى مبارزة وجدال عنيف ،وأخذ أبو عامر يصف له كل ماطلب منه ،مبينا قدرته فى الوصف .

وكان بين الحاضرين فتى ينظر الى أبى عامر،بطرفه قائلا :

تحيل على الكلام لطيف ،وأبيك . فقال أبوعامر : وكيف ذاك ؟ قال: أوماعلمت أن الواصف اذا وصف شيئا لم يتقدم الى صفته ولاسلط الكلام

على نعته ، اكتفى بقليل الاحسان ،واجتزى بيسير البيان ؟ لأنه لم يتقـــدم وصف يقرن بوصفه ،ولاجرى مساق يضاف الى مساقه . وهذه نكتة بغداديـــــة أنى لك بها يافتى المغرب ؟

فقال أبو عامر لصاحبه : من هذا ؟ قال زهير : زبدة الحقب ،صاحـــب بديع الزمان ... فتحمس أبو عامر لمبارزته قائلا : يازبدة الحقـــب اقترح لى ،فطلب منه أن يصف جارية فوصفها ،ثموصف له الماء .. فلمـــا انتهى أبو عامر ،ضرب زبدة الحقب الارض برجله فانفرجت له عن مثـــل برهوت ،وتدهدى اليها ،واجتمعت عليه ،وغابت عينه ،وانقطع اثره ... يقـول أبو عامر : فاستضحك الاستاذان من فعله – يقصد صاحب الجاحظ وصاحـــب عبدالحميد – واشتد غيظ أنف الناقة على ... ورجع الى مبارزته مـــرة ثانية ،فنشبت بينهما معركة شعرية فاز فيها أبو عامر ... مما جعـــل الحاضرين يشفقون عليه ... وتركه متجها الى فتى كان الى جانبه قـــد شمر له عن ساعد،وقال لأبى عامر : وهل يضر قريحتك أو ينقص بديهتـــك لو تجافيت لانف الناقة ،وصبرت له ؟ فانه على علاته زير علم ،وزنبيـــل فهم وكنف رواية ... فقال أبو عامر لصاحبه : من هذا ؟ قال : هـــو أبو الاداب صاحب أبى اسحق بن حمام جارك ... فقال أبو عامر : يا أبـــا الاداب وزهرة ريحانة الكتاب ،رفقا على أخيك بغرب لسانك ،وهل كـــان يضر أنف الناقة ، أو ينقص من علمه ، أو يفل شفرة فهمه ، أن يصبر لى علـــى زلة تمر به فى شعر أو خطبة ،فلا يهتف بها بين تلاميذه ،ويجعلها طرفـــذة من طرافيذه ؟. قال زبدة الحقب : ان الشيوخ قد تهفو أحلامهم فـــى الندرة ،قال أبو عامر :انها المرة بعد المرة .

وأخيرا يفصل الاستاذان : عتبة بن أرقم وأبو هبيرة فى هذه القضية قائلين له : انا لنخبط منك ببيداء حيرة ،وتفتق أسماعنا منك بعبرة وماندرى أنقول : شاعر أم خطيب . قال أبو عامر : الانصاف أولى والصدع بالحق أحجى،ولابد من قضاء،فقالا : اذهب فانك شاعر خطيب .

وهكذا لقد أوقع أبو عامر كل الحاضرين فى حيرة ... فينفض الجميع والابصار اليه شاخصة ،والاعناق نحوه مائلة .

وينتقل أبو عامر من مجالس الشعر والنثر الى مجالس النقد ...

وهاهو ذا يتجه مع صاحبه الى نقاد الجن ... وكان حديثهم عما تعاورته الشعراء من المعانى ،ومن منهم زاد فأحسن الاخذ،ومن قصر ... فأنشد أحد الحاضرين بيتا للافوه الاودى ... وينشد آخر أبياتا للنابغة... وأنشد آخر أبياتا لابى نواس... وينشد آخر أبياتا لصريع الغوانى ... وينشد آخر بيتين لابى تمام ... وكانت كلها فى وصف الطير،تتبع الجيش طمعا فى جثث القتلى ... ثم يتقدم أحدنقاد الجن يسمى شمردل السحابى فينتقص كل هذه الاشعار ... ويسمها بالتقصير ... ويقدم عليها جميعا شعرا لابى الطيب انشأه فى نفس الغرض السالف الذكر ... وهنا ينبرى له جنى من مهرة النقاد فيرفض تقديمه شعر أبى الطيب ... ويقدم عليه شعرا قيل فى نفس الغرض أنشأه فاتك بن الصقعب (يقصد به أبا عامر) .

فاهتز المجلس لقوله وعلموا صدقه ... فذهل أبو عامر وسأل زهيرا من فاتك بن الصقعب ؟ قال : يعنى نفسه ويحتج أبو عامر قائلا : فهلا عرفتنى شأنه منذ حين ؟ انى لارى نزعات كريمة ... ويقوم أبو عامر

ويجلس اليه جلسة المعظم له ،فاستدار نحوه ودار بينهما حوار حول المعانى التى أجاد فيها الشعراء وسأله أبو عامر : أى منها سبقه الى الاحسان فيها غيره ؟ فأجاب فاتك بن الصقعب بقوله : معنى قول الكندى وأنشد بيتا لامرئ القيس : فرد عليه أبو عامر قائلا : أعزك الله هو من العقم .

ثم تدور بين أبى عامر وبين هذا الجنى الناقد محاورة حول الاخذ بين الشعراء ... ومتى يبدأ الشاعر فى الاخذ وينجو من تهمة السرقة ،فقال الجنى: اذا اعتمدت معنى قد سبقك اليه غيرك فأحسن تركيبه وأرق حاشيته فاضرب عنه جملة ،وان لم يكن منه بد ففى غير العروض التى تقدم لها ذلك المحسن ،لتنشط طبيعتك ،وتقوى منتك .

ثم اندفع أبو عامر يعرض على الجنى بعض معارضاته لشعر المتنبى فزاد اعجاب فاتك بن الصقعب به مما جعله يصيح صيحة منكرة من صياح الجن ... كاد ينزع لها فؤاد أبى عامر ... يقول أبو عامر :

وكان بنجوة مناجنى كأنه هضبة لركانته وتقبضه ،يحدق فى دونهم يرمينى بسهمين نافذين،وأنا ألوذ بطرفى عنه ،وأستعيذ بالله منه ،لأنه ملأ عينى ونفسى . فقال لى : انتهيت ؟ وقد استخفه الحسد : على من أخذت الزمير ؟ قلت : وانما أنا نفاخ عندك منذ اليوم .قال :أجل! أعطنا كلاما يرعى تلاع الفصاحة ،ويستحم بماء العذوبة ،والبراعة ،شديد الأسر،جيد النظام ،وضعه على أي معنى شئت،قلت : كأى كلام ؟ قال : ككلام أبى الطيب ،وأخذ ينشد أبياتا للمتنبى ... فقلت له : أى ماء لو كان

منحمامك واستهلت به عيون غمامك!،ثم استقدمت فأنشدته ... وينشده أبو عامر نماذج من أشعاره فى تلك المعانى التى ذكرها لابى الطيب ... وأنشد نماذج أخرى لابيه ولاخيه ولعمه ولجده ولجد أبيه ... قال الجنى : والذى نفس فرعون بيده ،لاعرضت لك أبدا ، انى أراك عريقا فى الكلام ... ثم قل واضمحل ،حتى ان الخنفساء لتدوسه ،فلا يشغل رجليها ،فعجب أبو عامر منه وسأل زهيرا ... من هذا الجنى ؟ فقال له : استعذ بالله منه ،انه ضرط فى عين رجل فبدرت من قفاه ،هذا فرعون بن الجون،فقال أبو عامر : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! فتبسم زهير وقال : هو تابعة رجل كبير منكم قال أبو عامر : ففهمتها عنه .

ثم ينطلق أبو عامر فى صحبة زهير قاصدين أهل الآداب من حيوان الجن . يقول أبو عامر : مشيت يوما أنا وزهير بأرض الجن ... اذ أشرفنا على قرارة غناء تفتر عن بركة ماء،وفيها عانة من حمر الجن وبغالهم قد أصابها أولق ،فهى تصطك بالحوافر،وتنفخ من المناخر،وقد اشتد ضراطها وعلا شحيجها ونهاقها ،فلما بصرت بنا أجفلت الينا وهى تقول : جاءكم على رجليه !.

فارتعت لذلك ،فتبسم زهير وقد عرف القصد،وقال لى : تهيأ للحكم فلما لحقت بنا بدأتني بالتفدية ،وحيتنى بالتكنية ،فقلت : ما الخطب حمى حماك أيتها العانة وأخصب مرعاك ؟ قالت : شعران لحمار وبغل من عشاقنا اختلفنا فيهما،وقد رضيناك حكما . قلت : حتى أسمع . فتقدمت الى بغلة شهباء،عليها جلها وبرقعها لم تدخل فيما فيه العانه من سوء

العجلة ،وسخف الحركة،فقالت : أحد الشعرين لبغل من بغالنا ... والآخر لدكين الحمار...،فقلت :والله ان للبروث رائحة كريهة،وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم فى الشعر . فقالت : فهمت عنك ،وأشارت الى العانسة أن دكينا مغلوب ،ثم انصرفت قانعة راضية .

ويجرى بين أبى عامر وبين البغلة هذا الحوار اللطيف :

البغلة : أما تعرفنى أبا عامر ؟

أبو عامر : لو كانت ثم علامة .

فأماطت لثامها . والخال على خدها .

أبو عامر : بغلة أبى عيسى ؟

يقول أبو عامر : فتباكينا طويلا وأخذنا فى ذكر أيامنا .

فقالت البغلة : ما أبقت الايام منك ؟

أبو عامر : ماترين ..

البغلة : شب عمرو عن الطوق ،فما فعل الاحبة بعدى ،أهم على العهد؟

قال أبو عامر : شب الغلمان،وشاخ الفتيان،وتنكرت الخلان،ومن اخوانك من بلغ الامارة،وانتهى الى الوزارة .

البغلة : تتنفس الصعداء قائلة: سقاهم الله سبل العهد وان حالوا عن العهد،ونسوا أيام الود ثم توصى أبا عامر قائلة : بحرمة الادب ،الاما أقرأتهم منى السلام .

أبو عامر : كما تأمرين وأكثر .

على أن نهم أبى عامر لايقف عند حد فى التزود بالعلوم

والآداب ... ولايريد أن يغادرمجلس حيوان الجن حتى يشبع هذا النهم ...فهـا هو ذا يقف أمام اوزرة بيضاء شهلاء ،تقطن فى البركة المجاورة لـــــه ... ويصفها أبو عامر بقوله :

" ... وكانت فى البركة بقربنا اوزة بيضاء شهلاء فى مثل جثمـــان النعامة ،كأنما ذر عليها الكافور، أو لبست غلالة من دمقس الحريـــر لم أر أخف من رأسها حركة ،ولا أحسن للماء فى ظهرها صبا ،تثنى سالفتهـــا وتكسر حدقتها ،وتلولب قمحدوتها ،فترى الحسن مستعارا منها ،والشكـــل مأخوذا عنها ،وقد صاحت بالبغلة : لقد حكمتم بالهوى ورضيتم من حاكمكـــم بغير الرضا .

فقال أبو عامر لزهير : ماشأنها ؟ قال : هى تابعة شيخ من مشيختكم، تسمى العاقلة ،وتكنى أم خفيف ،وهى ذات حظ من الادب ،فاستعد لها .

فقال أبو عامر : أيتها الاوزة الجميلة، العريضة الطويلة، أيحســـن بجمال حدقتيك واعتدال منكبيك،واستقامة جناحيك ،وطول جيدك ،وصغـــر رأسك مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام ،وتلقى الطارئ الغريب بشبـــه هذا المقال ؟ وأنا الذى همت بالاوز صبابة ،واحتملت فى الكلف بها عض كل مقالة وأنا الذى استرجعتها الى الوطن المألوف ،وحببتها الى كل ظريـــف فاتخذتها السادة بأرضنا ... واستهلك عليها الظرفاء منا ،ورضيـــت بدلا من العصافير،ومتكلمات الزرازير،ونسيت لذة الحمام ،ونقار الديـــوك ونطاح الكباش .

يقول أبوعامر : فدخلها العجب من كلامى،ثم ترفعت وقد اعترتها خفة شديدة فى مائها ،فمرة سابحة ،ومرة طائرة ،تنغمس هنا وتخرج هناك قد تقبب جناحاها ،وانتصبت ذناباها ،وهى تطرب تطريب السرور ،وهذا الفعل معروف من الاوز عند الفرح والمرح ... ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها ،وعملت بمجدافيها ،واستقبلتنا جاثية كصدر المركب . فقالت أيها الغار المغرور :

– كيف تحكم فى الفروعوأنت لاتحكم الاصول ؟ ما الذى تحسن ؟

– أبو عامر : ارتجال شعر واقتضاب خطبة ،على حكم المقترح والنصبة .

– الاوزة : ليس عن هذا أسألك .

– أبو عامر : ولابغير هذا أجاوبك .

– الاوزة : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال،وأنا انما أردت بذلك احسان النحو و الغريب اللذين هما أصل الكلام،ومادة البيان .

– أبو عامر : لاجواب عندى غير ماسمعت .

– الاوزة : أقسم أن هذا منك غير داخل فى باب الجدل .

– أبو عامر : وبالجدل تطلبينا ،وقد عقدنا سلمه ،وكفينا حربه وان مارميتك به منه لانفذ سهامه ،وأحد حرابه ،وهو من تعاليم الله عز وجل،عندنا فى الجدل فى محكم تنزيله .

– الاوزة : أقسم أن الله ماعلمك الجدل فى كتابه .

– أبو عامر : محمول عنك أم خفيف ،لايلزم الاوز حفظ أدب القرآن قال الله عز وجل فى محكم كتابه حاكيا عن نبيه ابراهيم عليه السلام

" ربى الذى يحيى ويميت قال : أنا أحيى وأميت " . فكان لهذا الكلام من الكافر جواب ،وعلى وجوبه مقال،ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ،لما لاحت له الواضحة القاطعة ،رماه بها وأضرب عن الكلام الاول ،قال : " فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ،فبهت الذى كفر" وأنا لاأحسن غير ارتجال شعر واقتضاب خطبة ،على حكم المقترح والنصبة .

يقول أبو عامر : فاهتزت من جانبيها،وحال الماء من عينيها وهمت بالطيران،ثم اعتراها مايعترى الاوز من الالفة وحسن الرجعة فقدمت عنقها ورأسها الينا تمشى نحونا رويدا،وتنطق نطقا متداركا خفيا ، وهو فعل الاوز اذا أنسته واستراضت ،وتذللته على أنى أحب الاوز وأستظرف حركاتها ،ومايعرض من سخافاتها .

ثم تكلمت بها مبسبسا،ولها مؤنسا حتى خالطتنا وقد عقدنا سلمها وكفينا حربها ،فقلت : ياأم خفيف ،بالذى جعل غذاءك ماء،وحشا رأسك هواء،ألا أيما افضل : الادب أم العقل ؟

الاوزة : بل العقل .

أبو عامر : فهل تعرفين فى الخلائق أحمق من اوزة ،ودعينى من مثلهم فى الحبارى ؟

الاوزة : لا .

أبو عامر : فتطلبى عقل التجربة ،اذ لاسبيل لك الى عقل الطبيعة فاذا أحرزت منه نصيبا،وبوءت منه بحظ،فحينئذ ناظرى فى الادب ... فانصرفت

وانصرف أبو عامر وصاحبه . (٨)

* * *

وبعدهذه الجولة الرائعة فى أرض الجن مع أبى عامر وتابعته زهير ... وهم يتنقلون بين شياطين الشعراء وتوابع الكتاب والنقاد وحيوان الجن ... وقد عرفنا شعرهم ... واستمتعنا بنقدهم - وبعد أن نلتقط أنفاسنا - نحب أن نسجل عقب هذه الرحلة طائفة من الملحوظات وهى :

أن أبا عامر فى لقاءاته كان يظهر التوقير والاكبار لامرىء القيس وأبى تمام وأبى نواس ،وأبى الطيب والجاحظ،وكان يظهر الاستخفاف بالبحترى وعبدالحميد وبديع الزمان .

على أنه من الواضح أنه كان يخص أبا نواس فوق الاكبار والتقدير بفيض من الاجلال والهيبة ... والشوق والانس ... والعواطف الحارة ... ربما لأن ابن شهيد كان أقرب فى التكوين النفسى والملامح الشخصية اليه من غيره ،وماذلك الا لاجتماعهما فى حب حياة المجون،والاغراق فى الملذات الحسية والشهوات العارمة .

---

(٨) قمت بتلخيص القصة من كتاب (رسالة التوابع والزوابع) ت الاستاذ بطرس البستانى مقابلا بالاصل من الذخيرة م١ ق١ ص ٣٥١ ومابعدها .

ونلاحظ أيضا أن ابن شهيد كان يبخس علماء النحو واللغة حقهم من الاكبار وربما كان ذلك يرجع الى طبيعته الفنية التى تكره القيود والحدود ،وكذلك كراهيته لأصحابها ،ويظهر ذلك فى محاوراته الساخرة مع أنف الناقة ،صاحب عالم اللغة الكبير أبى القاسم الافليلى ... ويظهر ذلك أيضا فى موقفه المتهكم من الاوزة الادبية التى كانت تدافع عن النحو والغريب ... حيث أشبعها سخرية وتهكما وايذاء ... ثم وصمها بالحماقة ... والجهل ...

الفصل الثاني

البناء الفني لقصة « التوابع والزوابع »

قصة " التوابع والزوابع " (١) ـ كما أسلفنا القول ـ رحلة خيالية في عالم الجن قام بها أبو عامر في صحبه تابعه " زهير بن نمير" الذى يلهمه اشعاره ... وقد التقى خلال هذه الرحلة بشياطين الشعراء والكتاب من عمالقة الادب العربي القديم وانتزع منهم اعترافات بتفوقه فى الكتابه وفن القريض ... كما اتصل بنقاد الجن فى نواديهم ... بل وقابل آدباء من خيوانهم واستمع لابيات من الغزل فى مباراة آدبية طريفة بين بغل عاشق وحمار وامق ... اذن هذه القصة تنتمى الى جنس القصص الذى يتجاوز عالم الحس الى ما وراءه... متخذا مغامراته فى عالم خيالى مسحور ... مبدعا بناءه الفني من غرائب التصورات وعجائب المشاهدات .

و " التابعة فى لغة العرب : الرئى من الجن ... والجنية تتبع الانسان .... وتتبع الرجل بمعنى : تحبه .... والجنى يتبع المرأة أى يحبها .... والاصل " تابع " ... وانما آلحقوا به الهاء للمبالغة آو لتشنيع الامر عليه ارادة الداهية (٢).

و " الزوابع " : الدواهي ... و " الزوبعة " و " الزابعة " ريح تدور فى الارض لا تقصد وجها واحدا ... تحمل الغبار وترتفع الى السماء كأنها عمود .. أخذت من التزبع ... وصبيان الاعراب يكنون الاعصار

---

(١) وتسمى آيضا " بشجرة الفكاهة " انظر الذخيرة ق ١ مجلد ١ ،ص ٣٥١ .

(٢) لسان العرب ٢٩/٨ ط :دار صادر ـ بيروت .

" أبا زوبعة" يقال فيه شيطان مارد ... و " زوبعة" اسم شيطان ... أو رئيس من رؤساء الجن ... ويقال أم " زوبعة" أيضا . (٣)

وقد تحدث العرب عن عالم الجن ... وروت المصادر مأثورات عن قبائل الجن وقراهم ... ولعل أشهر مادار على ألسنتهم من ذلك تلك الحكايات التى أذاعوها عن "وادى عبقر" ذلك الوادى العجيب المليء بالسحر والغرائب ... حيث يلتقى الشعراء فى أنحائه بشياطينهم الملهمين ... فهناك " جهنام" تابعة الاعشى ... و " لافظ بن لاحظ" صاحب امرىء القيس ... و " هبيد" ملهم عبيد ... وبشر بن خازم ... و " هاذر ابن ماذر" تابعة زياد الذبيانى ، الذى يقولون عنه " انه أشعر أهل الجن " ... و " عمرو " صاحب المخبل السعدى وهناك من " بنى الشيصبان" جنى يلقي الى حسان ... و " مدرك بن واغم" صاحب الكميت ...و"سنقناق" تابعة "بشار" ... وحدث جرير أن مكتهلا من الشياطين يلقى اليه الشعر وذكر الفرزدق أن للشعر شيطانين : أحدهما يسمى " الهوبر" وهو يلهم الشعر الجيد ... والثانى يسمى " الهوجل" وهو يلقى الشعر الفاسد ... وذكروا من شياطين الشعراء" مسحل بن أثاثة"وشيطان آخر يقال عنه : انه من أشعر قبيل الجن ... ويسمونه " الصلادم" (٤) ويذكر الجاحظ فى كتابه

---

(٣) المصدر السابق . نفس الصفحة .

(٤) تاريخ آداب العرب ، الرافعى ٦١/٣ .

(وجمهرة أشعار العرب ص ١٩ ــ ٢٤ .

والاغانى لابى الفرج

وشياطين الشعراء للدكتور عبدالرزاق حميد ص ١٠ ــ ١٥ .

"الحيوان" أن من استعمالات العرب لكلمة "شيطان" مايريدون به الفطنة وشدة العارضة ··· فيكون استعمالهم لشياطين الشعراء ملحوظ فيه هذا المعنى ··· وربما أخذوا هذا المعنى من الكهانة لأنها أقدم من الشعر وقد كان لكل كاهن " نجي" يسمونه " الرئى أو التابع " · (٥)

وقد ذكرت المصادر أيضا حكايات أخرى عن الجن : " كقصة خنافر الحميري الذي كان له صاحب من الجن من أهل الصلاح والتقوى ··· زعموا أنه قد أرشده الى الاسلام ···"(٦)

ولعل أهم أثر أدبي سبق ابن شهيد في توظيف الجن في عمل فني يمس قضايا الشعر والشعراء في الادب العربي هو " المقامة الابليسية " لبديع الزمان فهاهو ذا بطل المقامة يفقد ابله ··· ويخرج في طلبها ويسعى في سبيل ذلك حتى تلقى به المقادير في واد ممرع ··· غني بالخضرة والازهار ··· مبهج باشجاره الباسقة وثماره اليانعة ··· وهناك التقى بشيخ يجلس في ناحية ··· وبعد أن أنس اليه سأله الشيخ فيما اذا كان يروى شيئا من أشعار العرب ··· فأنشده شعرا لامرىء القيس ،وعبيد ابن الابرص ··· وطرفة بن العبد فلم يبهش الشيخ لذلك واندفع ينشد شعرا

---

(٥) تاريخ آداب العرب لمصطفى الرافعي ٦٠/٣ ·
والحيوان للجاحظ
والبيان والتبيين للجاحظ
(٦) انظر : النقد الادبي الحديث ،احمد غنيمي هلال ،دار الثقافة ودار العودة ــ بيروت ــ ١٩٧٣/٧/١،ص ٥٢٤ ·

يدعى أنه له ... ولكن صاحبنا يكشف أنه لجرير ... ويصارح الشيخ بذلك فيحاول أن يتهرب منه ... ثم يطلب من الشيخ أن ينشده بعض شعر أبى نواس ... فيلقى عليه سينيته الخمرية الماجنة .

وهنا طرب الشيخ وشهق ،وزعق ... فقال له : قبحك الله من شيخ لا أدرى أبانتحالك شعر جرير أنت أسخف أم بطربك من شعر أبى نواس ،وهو فويسق عيار ... ويكتشف أن الشيخ لم يكن الاشيطان جرير ...

ثم يغيب الشيطان زمنا،ويلقاه صاحبنا... فيقص عليه خبر ابله... فيناولة مسرجة ... وينصحه بدخول غار مظلم ... ويفعل ماطلب منه ... فاذا بابله أمامه .. فيسوقها .

وبينما هو على هذه الحال ... اذا بأبى الفتح الاسكندرى أمامه ... فيقص عليه خبره مع الشيخ ...

وهنا يشير أبو الفتح الى عمامته قائلا : " هذه ثمرة بره ..."

فيقول له : يا أبا الفتح ... شحذت حتى من ابليس ... (٧)

ويجب ألا ننسى قبل ذلك كله أن القرآن الكريم قد قص علينا - وقصه الحق - كثيرا من أخبار الجن صالحهم وطالحهم ... وبخاصة ابليس فى طائفة من سور القرآن بل يجب ألا ننسى أن فى القرآن الكريم سورة اختصت بخبر الجن وسميت بسورة " الجن" .

---

(٧) مقامات البديع ص ٥٣ ط٢ محيى عبد الحميد ١٣٩٩هـ دار الكتب .

وبيسير من التأمل فى قصة ابن شهيد نستطيع أن نقول : " انه قد استوحى موضوعها من الثقافة العربية القديمة فى جاهلية العرب ،فأرض الجن تعادل وادى عبقر ... و " التوابع والزوابع " هى نفس توابع وادى عبقر وزوابعه ... وليس هناك فى هذه القصة من تأثيرات اسلامية الاماكان من استشهاد ببعض آى القرآن الكريم ،وايراد بعض شعر الشعراء أو نثر الكتاب الذين جاءوا بعد الاسلام .

أما ماسوى ذلك من أحداث ومشاهد،وسرد قصصى .. فانه من عمل خياله ولم ينسحب فى ذلك على أى عمل أدبى آلف من قبل .

وينبغى أن نصرح بأنه ليس هناك أدنى صلة بين التوابع والزوابع المقامة الابليسية ،فالموضوع غير الموضوع،والاحداث غير الاحداث ... والهدف غير الهدف ... والهيكل غير الهيكل ... ولايلتقيان الا فى اسم الشيطان وهو كلمة "تابعة" ونحن نعرف سلفا أن هذا الاسم معروف قبل أن يولد البديع .

ومن الخطأ الفاحش أن يظن ظان أو يتوهم متوهم أن هناك تشابها بين فن المقامات بعامة وبين التوابع والزوابع ،فان فن المقامات محدد القسمات واضح الشيات ... ولايختلط أبدا برسالة ابن شهيد ...

ان العمل الادبى الوحيد الذى يستوقف الباحث فى هذا الميدان هو (رسالة الغفران) لابى العلاء،لانها تشترك مع رسالة " التوابع والزوابع" فى أنها رحلة ادبية الى ماوراء العالم المنظور ... ومن أجل ذلك سنعالج هذه القضية آخر هذا الفصل ... والى ذلك الحين نستطيع

أن نقول مؤقتا ان قصة التوابع والزوابع لابن شهيد تعد أول عمل فنى فى الادب العربى يتجاوز عالم الحس الى ماوراءه .

هذا وقد ألف أبوعامر قصته هذه ليرد على خصومه وحساده من أدباء الاندلس الذين جحدوا قدره حسدا من عند أنفسهم ... ولما ضاق به عالم الواقع هرب الى عالم الخيال ... وهناك استطاع أن ينتزع لنفسه شهادات بتفوقه واعترافات بامتيازه من أساطين الشعر،وجهابذة الكتاب ... بل ممن يلهم هؤلاء روائعهم وبدائعهم من حر القول ،وبديع القريض ... وهكذا رحل أبو عامر الى هذا العالم الغريب العجيب ... ليحقق فى عالم الخيال مالم يستطع تحقيقه فى عالم الواقع ... وليشبع خصومه وحساده هزءا وسخرية وتهكما،وازراء ... وليشبع فى نفسه غريزة الاستعلاء والفخار والمطاولة ...

وقد ذكر فى قصته من هؤلاء الخصوم ثلاثة بكناهم،وكأنه قد ضاقت نفسه من التصريح بأسمائهم ... فحاول أن يذيبهم فى غيرهم ممن يشتركون معهم فى هذه الكنى ... وفى هذا النوع من التجهيل المصطنع شفاء لنفسه الموتورة ... وراحة لقلبه المغيظ ... وأول من ذكر من هؤلاء " أبو محمد" ولعله على بن سعيد بن حزم ... وقد كان معروفا بحدة اللسان حتى مع الاصدقاء .

وثانيهما : أبو القاسم ... والمقصود به الافليلى ... وهو الوحيد من بينهم الذى صرح باسمه فى رسالته ... بعدأن أشبعه هزءا وسخرية ... وجعل له تابعا سماه " أنف الناقة" ... ويظهر أن أبا عامر

لما شعر أنه قد نجح فى الانتقام منه بالفعل ... جعل التصريح باسمه تتمة للتشنيع عليه .

وثالثهما : أبو بكر ... ولعله الكاتب المشهور بأشكمياط ... وهو ممن رمى ابن شهيد بالسرقة الادبية والتلصص ... واستباحة كنوز غيره ... روى ابن بسام أنه عرضت على أبى بكر أشكمياط فصولا من نثر أبى عامر فعلق عليها قائلا : " فقرحسان الاأنه عثر عليها " .

فكتب اليه ابن شهيد غاضبا : " ما أغيرك أبا بكر ،على نظم ونثر ... عرضت عليك الدر منظوما ،فقلت : نعم ماصنعت لواخترعت ... وما أحسن ما أطلعت لو ابتدعت،معرضا بالتقص ،ومشيرا الى التلصص ... لأقطعن حبالك هاجرا ،ولأتركن ليلك ساهرا ... (٨)

وأما خصومه الذين لم يذكرهم فى رسالته فمنهم : جعفر بن محمد بن فتح ... الذى أوغر عليه صدر أبى القاسم الافليلى .

يظهر ذلك من رسالة أبى عامر التى بعثها الى أبى القاسم يشكو فيها تغيره عليه فيقول : " بحثت عمن طرأ عليك من الأنذال ،وحل بساحتك من الاعلاج فقيل لى : ابن فتح ،فأنعمت البحث ،وأعملت لطائف الكشف ،حتى صح عندى أنه كدر صفوك على ... وغير شربك لدى ،فقلت من هاهنا أتينا ،ومن هذه القوس اللئيمة رمينا وقصصى مع هذا

---

(٨) الذخيرة ،ق/١ ،م/١ ،ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .
ومقدمة الرسالة لبطرس البستانى ص ٣٠ .

العلج طويل ... " (٩)

ومنهم الوزير الكاتب خالد بن يزيد الذى حاول الايقاع بأبى عامر فنظم قصيدة فى هجاء الخليفة المستظهر بالله ونحلها ابن شهيد ليحل به غضب الخليفة ،ولكن لم تنجح مكيدته عند الخليفة لأن ابن شهيد كان مقربا عنده محببا اليه . (١٠)

ومنهم أبو جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الصقلبى وكاتب ديوانه ... وكان هذا الوزير متعاليا شديد الذهاب بنفسه ... مغرورا سىء الخلق ... يروى ابن بسام أنه كان ينتقص أبا عامر ... فى حال لم يكن يحسن أن يكون مستمليا . (١١)

ومنهم أبو عبد الله بن الحناط الضرير ... وقد كان كثير الانحاء على أبى عامر ... جاحدا مكانه فى الشعر والنثر ... عائبا عليه الاسهاب والتطويل غامزا شخصيته بالزهو والخيلاء ...

يقول فى بعض رسائله " الاسهاب كلفة ،والايجاز حكمة ... وخواطر الالباب سهام ،يصاب بها خواطر الكلام ،وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ويطيل نظما ،شامخا بأنفه ،ثانيا من عطفه متخيلا أنه قد أحرز السبق فى

---

(٩) الذخيرة ،ق /١ ،م/١ ،ص ٢١٤ .

(١٠) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢١٧ .
والبستانى ص ٣١ .

(١١) نفس المصدر . ص ٢١٣ - ٢١٦ .
والبستاني ،ص ٣٤ .

الاداب ،وأوتى فصل الخطاب ،فهو يستقصر آساتيذ الأدباء،ويستجهل شيـــــوخ العلماء . (١٢)

هذا هو المناخ الادبى الذى كان يحيط بابن شهيد،والذى كدر عليـــه حياته السياسية والثقافية والاجتماعية ... والذى أقلقه كثيرا ... وأقض مضجعه وأدمى مشاعره ... وجعله يمتشق قلمه ... ويزمع الرحلة عن عالـــم الانس... مفضلا عليه عالم الجن مؤثرا العيش بين التوابع والزوابع ...

والآن يحسن أن نطيل التأمل فى قصته ... ونحاول أن نرصد الوسائـــل الفنية التى حاول أن يبرز بها ملامح شخصياته ويصور بها أحداثـــــه والاسلوب الادبى الذى اصطنعه فى السرد .

والوسيلة الفنية الاولى التى اصطنعها أبو عامر هى " الرمز" .

فقد أبدع عدة رموز أدبية أضفاها على شعراء قصته وكتابها .

وأول ماترمز اليه "التوابع والزوابع" بصفة عامة بالنسبة الـــــى الشعراء والكتاب هو " الالهام" مؤكدا أن فنون الادب من شعر ونثر مـــن عطاء الموهبة .. وليست من كسب المعرفة .

ويركز ابن شهيد على هذا المبدأ تركيزا شديدا ... ويلح عليـــــه الحاحا متصلا ... وربما كان ذلك للدفاع عن نفسه ... فقد كان خصومـــه يتهمونه بأنه لم يجلس الى الاساتيذ ... ولم يطل النظر فى الكتب ،ولـــم

---

(١٢) الذخيرة م١ ح١ ص ٣٠٦ ، ٤٣٩ .
والبستانى ص : ٣٦ .

يستوعب مافيها من علم ومعرفة . (١٣)

ولاشك أن مجرد تفكيره فى هذه الرموز يعد لفتة ذكية منه ... ولكن هذا لايمنع من القول بأن هذه الرموز شديدة السذاجة ... فقد كانت شفافة بحيث لاتحجب ماوراءها ... ويمكن أن يرى المرموز اليه من خلالها رأى العين من غير بذل جهد عقلى كبير ... فهى الى التصريح أدنى منها الى التلميح .

وفى مقدمة مايقابلنا من هذه الرموز (زهير بن نمير) ... (١٤) وحسبك أن تعرف أنه من أشجع من الجن ... لتدرك فى التو أن هذا أبو عامر بشحمه ولحمه ... وربما كان أهم مايشير اليه هذا الرمز أن ابن شهيد أديب موهوب مستعد دائما للابداع لايلحقه الاجبال أبدا فما يكاد يطلب القول حتى تسعفه القريحة ... فهو (قد أوتى الحكم صبيا ... وهز بجذع نخلة الكلام فاساقط عليه رطبا جنيا) .

وهذا " عتبة بن نوفل " شيطان امرئ القيس ... يناديه زهير : ياعتبة بن نوفل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل ... ويوم دارة جلجل الا ماعرضت لنا وجهك ،وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الانس وعرفتنا كيف اجازتك له ...؟

---

(١٣) انظر الذخيرة ،ق /١ ،م /١ ،،ص ٢٤٦ .
والرسالة ت : البستانى ص ٨٨، .
(١٤) الذخيرة ،ق /١، م/١ ،ص ٢٤٧ .
والبستاني : ص ٨٩ .

ويقبل عليهم من بعيد فارس على فرس شقراء تكاد تلتهب . (١٥)

يشير بذلك الى شعره الداعر ومغامراته الحمراء الفاحشة ...

ومايوم " دارة جلجل" ألا نموذجا واقعيا من حياته الصاخبة في الملذات ...

وهذا هو " عنتر بن العجلان" صاحب طرفة ... فتى جميل الوجه قد توشح السيف واشتمل عليه كساء خز ... وبيده خطى ... (١٦)

يشير بذلك الى نشأة الشاعر المترفة والى اجادته فى شعر الفتوة والنجدة ...

أما شيطان قيس بن الخطيم ... فهو فارس كأنه الاسد على فرس كأنها العقاب (١٧) يقصد بذلك اجادة الشاعر فى وصف الحروب ،والحض على التراث واثارة الاحقاد .

و " عتاب بن حبناء"تابعة أبى تمام فتى بديع التكوين وجهه كفلقة القمر . يسكن قعر بئر عميقة ... يتفجر من أصلها الماء كمقلة حوراء . (١٨)

---

(١٥) المصدرين السابقين ص ٢٤٩ ،و ص : ٩١ - ٩٣ .

(١٦) الذخيرة ق/١ ،م/١ ،ص٢٥٠ ،والرسالة ت : البستانى ص ٩٣ - ٩٥ .

(١٧) الذخيرة ق/١ ،م/١ ،ص٢٥٢ ،والرسالة ت : البستانى ص ٩٦ - ٩٧ .

(١٨) الذخيرة ق/١ ،م/١ ،ص٢٥٣ ،والرسالة ت : البستانى ص ٩٨ - ١٠١ .

يشير بذلك الى غوص أبى تمام وراء المعانى ... والى كلفه الشديد بالبديع ... والى مبالغته فى الصنعة التى ميزت مذهبه الشعرى ... حتى أنه يوصى أبا عامر ألايكد قريحته ... وأن ينقح شعره بعد ثلاثة أيام ... وهذا يذكرنا بوصية أبى تمام لتلميذه أبى عبادة .

و " طوق بن مالك" شيطان البحترى ... يكنيه "بأبى الطبع " (١٩) مشيرا بذلك الى أن شعر البحترى من الفن المطبوع الذى يصدر عن اسماح وليس من الفن المصنوع الذى يصدر عن تكلف .

و "حسين الدنان" رفيق أبى نواس ... يقطن جبل دير حنة ... حيث تقع ذات الاكيراح ... تفوح منها الخمور ... ويعربد فيها الفجور... ويخطر فيها الرهابين ... مشددة بالزنانير ... وهو شيخ طويل الوجه والسبلة قد افترش أضغاث زهر ... واتكأ على زق خمر ... وحوله صبية كأظب ... وانه لفى شرب الخمرة منذ أيام عشرة . (٢٠)

يشير أبو عامر بذلك الى أن أبا نواس كان يجيد فى شعره وصف الخمرة ... ولايتورع عن الغزل الشاذ،ورغم ذلك يظهر له الاحترام ...ويتقدم اليه بالاجلال ... لالتقائهما فى كثير من الملامح الشخصية ... ولاتفاقهما

---

(١٩) الذخيرة ق/١،م/١ ،ص ٢٥٧ .

والرسالة ت : البستانى ص ١٠٢ - ١٠٤ .

(٢٠) الذخيرة ق/١،م/١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

والرسالة ت : البستانى ص ١٠٤ - ١١١ .

على درب واحد فى الحياة هو وأمثاله من شعراء العبث والمجون ٠

و " حارثة بن المفلس " صاحب أبى الطيب ٠٠٠ فارس يستوى على متن فرس بيضاء ٠٠٠ كأنه قضيب على كثيب ٠٠٠ قد أسند قناته الى عنقه ٠٠٠ على رأسه عمامة حمراء ٠٠٠ قد أرخى لها عذبة صفراء٠٠٠ ينظر من مقلة شوساء ٠٠٠ (٢١)

يشير أبو عامر بذلك الى أن أبا الطيب كان يجيد فى وصف الحروب والفرس البيضاء كناية عن صراحته ووضوحه ٠٠٠ والعمامة الحمراء ترمز الى أن فى أصل طبعه كلفا بالدماء ٠٠٠ والعذبة الصفراء ترمز الى حقده على حكام عصره ورغبته فى الانتقام منهم ٠٠٠ وهو فى الجملة متكبر شديد الذهاب بنفسه ٠٠٠ مجنون الطموح ٠

و"عتبة بن أرقم " صاحب الجاحظ ٠٠٠ شيخ أصلع ٠٠٠ جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة ٠ (٢٢)

ونحن نلاحظ أن أبا عامر فى هذه الاوصاف يركز على الملامح الشخصية لأبى عثمان دون الاشارة الى طريقته الفنية فى عالم النثر ٠٠٠

---

(٢١) الذخيرة ق/١، م/١ ،ص ٢٦٥ –٢٦٧ ٠
والرسالة ت : البستانى ص ١١١ – ١١٤ ٠

(٢٢) الذخيرة ق/١،م/١ ، ٢٦٧ – ٢٦٨ ٠
والرسالة ت : البستانى ص ١١٥ – ١٢٣ ٠

ولكن من خلال محاورته لعتبة بن أرقم نستطيع أن نلتقط الملامح الفنية لاسلوب الجاحظ من مماثلة وازدواج دون القصد الى السجع ...

وأبو هبيرة تابعة عبدالحميد شخص بدوى خشن ... يرى دم اليربوع بكفيه ... ويلمح من كشي الطُب على ماضغيه ... (٢٣)

ثم يشير الى جفاء اسلوبه قائلا : وانك لفى عباءة تتكشف عنها استاه معانيك تكشف است العنز عن ذنبها .

و (أنف الناقة) تابعة أبى القاسم الافليلى ... جنى أشمط ربعة وارم الانف يتظالع فى مشيته ... كاسرا لطرفه زوايا لانفه ... من سكان خيبر ... يتعاطى النحو ويروى الغريب ... يجادل على الخطأ ويتشبث به معاندا ... (٢٤)

وواضح أن ابن شهيد لايكاد يكتم حقده على أبى القاسم ،فهو خصمه اللدود ولذلك سخر منه ورسم له صورة هزلية تثير الضحك .

ولايخفى أنه قد جعل تابعه رمزا لمن حرمه الله ملكة الموهبة ...فلم ينفعه كسب المعرفة .

---

(٢٣) الذخيرة ق/١ ،م/١ ،ص ٢٦٩ .
والرسالة ت : البستانى ص ١١٨ .

(٢٤) الذخيرة ق/١ ،م/١ ،٢٧٣ – ٢٧٤ .
الرسالة ت : البستانى ص ١٢٤ – ١٣٠ .

وقد صدق فيه قول أبى حيان : انه سلك فى كتابته الديوانية (طريقة المعلمين المتكلفين ... متنكبا طريقة الكتاب المطبوعين) . (٢٥)

و " زبدة الحقب " تابعة بديع الزمان ... فتى حاد النظرات شديد الثقة بنفسه وبفنه ... عظيم الشك فى موهبة غيره ،لايعبأ أن يعبث بالآخرين . (٢٦)

وقد رمز ابن شهيد باسمه " زبدة الحقب " الى أن بديع الزمان الهمذانى هو الخلاصة الذى انتهت اليه الصنعة ... بل التصنيع فى فن الكتابة ...

و " أبو الآداب " صاحب اسحق بن حمام ... فتى رقيق الحاشية ... سمح الطبع ... رضى النفس ... شديد التوقير لمشيخة الاندلس ... مؤثر للسلم على الحرب ... وربما قصد أبو عامر من هذه الاوصاف انعكاسها على اسلوب هذا الكاتب فى فن الكتابة . (٢٧)

ومن الوسائل الفنية التى استخدمها أبو عامر فى قصته الحوار الحى الرشيق ...

ومن ذلك هذا المشهد الذى ضمه مع عتبة بن أرقم تابعة الجاحظ . .. وأخذا يتحاوران :

صاحب الجاحظ : انك لخطيب وحائك للكلام مجيد،لولا أنك مغرى بالسجع فكلامك نظم لانثر .

– أبو عامر : ليس هذا أعزك الله جهلا منى بأمر السجع ،ومافى المماثلة والمقابلة من فضل ،ولكنى عدمت ببلدى فرسان الكلام ،ودهيت

---

(٢٥) الذخيرة ،ق/١،م/١ ،ص ٢٨٢ .
(٢٦) الذخيرة ، ق/١، م/١ ،ص ٢٧٦ .
والبستانى ، ص ١٢٧ – ١٢٩ .
(٢٧) الذخيرة ،ق/١، م/١، ص ٢٧٨ .
والبستاني ، ص ١٣١ .

بغباوة أهل الزمان ...

ـ صاحب الجاحظ : أهذا على تلك المناظر ،وكبر تلك المحابر وكمال تلك الطيالس ؟

ـ أبو عامر : نعم انها لحاء الشجر،وليس ثم ثمر ولاعبق .

ـ صاحب الجاحظ : صدقت ، انى أراك قد ماثلت معى .

ـ أبو عامر : كما سمعت .

ـ صاحب الجاحظ : فكيف كلامهم بينهم ؟

ـ أبو عامر : ليس لسيبويه فيه عمل ؟ ولاللفراهيدى اليه طريق ولاللبيان عليه سمة ، انما هى لكنة أعجمية يؤدون المعانى بها تأدية المجوس والنبط .

ـ صاحب الجاحظ : انا لله ،ذهبت العرب وكلامها . ارمهم ياهذا بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم ،ويطير لك ذكرا فيهم . (٢٨).

وهذا مشهد حوارى آخر بين أبى عامر وبين اوزة أديبة ...

ـ الاوزة : أيها الغار المغرور ،كيف تحكم فى الفروع ،وأنت لاتحكم الاصول ؟

... ثم تقول له : ما الذى تحسن ؟

ـ أبو عامر : ارتجال شعر ... واقتضاب خطبة .

ـ الاوزة : لست عن هذا أسألك .

ـ أبو عامر : ولابغير هذا أجاوبك .

ـ الاوزة : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال ،وأنا انما

(٢٨) الذخيرة، ق/١ ، م/١ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
والبساتني ،ص ١١٦ ـ ١١٧ .

أردت بذلك احسان النحو والغريب .

- أبو عامر : لاجواب عندى غير ماسمعت .

- الاوزة : اقسم أن هذا غير داخل فى باب الجدل .

- أبو عامر : وبالجدل تطلبينا ،وقد عقدنا سلمه ،وكفينا حربه .

- الاوزة : أقسم أن الله ماعلمك الجدل فى كتابه ...

- أبو عامر : محمول عنك أم خفيف . لايلزم الاوز حفظ أدب القرآن .

- يا أم خفيف بالذى جعل غذاك ماء،وحشى رأسك هواء، ألا أيما أفضل الادب أم العقل ؟

- الاوزة : بل العقل .

- أبو عامر : فهل تعرفين فى الخلائق أحمق من اوزة ؟

- الاوزة : لا .

- أبو عامر : فتطلبى عقل التجربة، اذ لاسبيل الى عقل الطبيعة فاذا أحرزت منه نصيبا ... وبوئت منه بحظ .. فحينئذ ناظرى فى الادب (٢٩)

ومن الوسائل الفنية التى استغلها أبو عامر فى قصته أيضا اسلوب السخرية والتهكم المصوغ أيضا فى قالب الحوار الذى يغلب على فنه ...

فهذا مشهد يضمه بالافليلى ،يتبادلان فيه العبارات القارصة

---

(٢٩) الذخيرة، ق/١، م/١ ، ص ٢٩٩ - ٣٠١ .
والبستاني ،ص ١٤٩ - ١٥٢ .

حيث ينكر أبو القاسم على أبى عامر حظه من العلم والمعرفة ... فيقول :

- الافليلى : فتى لم أعرف على من قرأ .

- أبو عامر : وأنا أيضا لاأعرف على من قرأت .

- الافليلى : أمثلى يقال هذا ؟

- أبو عامر : فكان ماذا ؟

- الافليلى : فطارحنى كتاب الخليل ...

- أبو عامر : هو عندى فى زنبيل.

- الافليلى : فناظرنى على كتاب سيبوية .

- أبو عامر : خريت الهرة عليه وعلى شرح ابن درستويه .

- الافليلى : دع عنكأنا أبو البيان .

- أبو عامر : انما أنت كمغن وسط ،لايحسن فيطرب ،ولايسىء فيلهى .

- الافليلى : لقد علمنيه المؤدبون ...

- أبو عامر : انما هو من تعليم الله تعالى " الرحمن ،علم القرآن خلق الانسان ،علمه البيان " . (٣٠)

وهذا مشهد ساخر آخر ،يعتبر من أفانين السخرية الرفيعة ... يمـزج فيه بين السرد والحوار ... فيقول :

" فتقدمت الى بغلة شهباء ... عليها جلها وبرقعها فقالت :

- أما تعرفنى أبا عامر ...؟

---

(٣٠) الذخيرة ، ق/١، م/١ ،ص ٢٧٤ .
والبستاني ،ص ١٢٤ - ١٢٥ .

ـ فقلت : لو كان ثمة علامة .

فأماطت لثامها ،فاذا بغلة أبي عيسى ... والخال على خدها .

فتباكينا طويلا .. وأخذنا فى ذكر أيامنا .

فقالت : ماأبقت الايام منك...؟

ـ قلت : ماترين .

ـ قالت : شب عمرو عن الطوق ،فما فعل الاحبة بعدى ...؟

ـ قلت : شب الغلمان ،وشاخ الفتيان ،وتنكرت الخلان ... ومن اخوانك من بلغ الامارة ... وانتهى الى الوزارة ... فتنفست الصعداء وقالت :

ـ سقاهم الله سبل العهد ... وان حالوا عن العهد ... ونسوا أيام الود ... بحرمة الادب الاما أقرأتهم السلام .

ـ قلت : كما تأمرين . (٣١)

ومن وسائله الادبية كذلك استخدامه الاسلوب الظلى الموشى فى السرد ... والتصوير الرائع فى الوصف ... وهاهو ذا يصور مشهد اوزة تسبح فيقول :

" كانت فى البركة بقربنا اوزة بيضاء شهلاء ،فى مثل جثمان النعامة ،كأنما ذر عليها الكافور ،أو لبست غلالة من دمقس الحرير ،لم أر أخف من حركتها ولاأحسن للماء فى ظهرها صبا ،تثنى سالفتها ،وتكسر حدقتها ،فترى الحسن مستعارا منها ..." . (٣٢)

ثم يوجه اليها الخطاب قائلا :

---

(٣١) الذخيرة ،ق/١ ،م/١ ،ص ٢٩٨ .
والبستاني ،ص ١٤٩ .

(٣٢) نفس المصدرين ، ص ٢٩٨ ، و ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

"أيتها الاوزة الجميلة ، العريضة ، الطويلة ، أيحسن جمال حدقتيك واعتدال منكبيك ،واستقامة جناحيك ،وطول جيدك ،وصغر رأسك مقابلة الضيف بمثل هذا ؟

فدخلها العجب من كلامى ،ثم ترفعت وقد اعترتها خفة شديدة ،فمرة سابحة ،ومرة طائرة ،تنغمس هنا ،وتخرج هناك ،قد تقبب جناحاها وانتصبت ذناباها ،وهى تطرب ،تطريب السرور ... ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها ... وعملت بمجدافيها ... واستقبلتنا جاثية كصدر المركب ... " . (٣٣)

---

(٣٣) المصدرين السابقين .

بقيت كلمة لابد من تدوينها عن خيال ابن شهيد الذى يتصف بالجرأة والطموح ... ذلك انه مما لاشك فيه أن انعتاق خيال ابن شهيد من عالم الحس الى ماوراءه انما ينتمى الى خيال كبار الادباء العالميين سواء سابقوه أو لاحقوه .

ومن سابقيه الشاعر الاغريقى " هوميروس " فى ملحمته "الاوديسا" حيث استطاع خياله أن يأخذ " أوديسيوس" الى رحلة وراء هذا العالم يشاهد فيها مناظر عجيبة ،ويلاقى أحداثا مرعبة قبل أن يصل الى زوجه الوفية "بنيلوب "ويلتقى بابنه الوحيد "تيلماخوس" فى موطنه بجزيرة " اتاكا" . (٣٤)

كذلك من سابقيه شاعر اللاتين " فرجيل" الذى احتذى فى ملحمته " الانياذة" على شاعر اليونان " هوميروس " فى ملحمتيه الباقيتين " الالياذة والاوديسا" فاستطاع أن يرحل ببطله " ايناس" الى ماوراء هذا العالم ويطلعه بعينى خياله على عالم اسطورى عجيب فيه من مشاهد العذاب وفيه من مشاهد النعيم مايدهش ويبهر . (٣٥)

ومن سابقيه أيضا الشاعر الاغريقى "أريستوفان " زعيم مسرح الملاهى الذى استطاع بخياله أن يرحل الى ماوراء هذا العالم الى عالم اسطورى ملىء بالغرائب والاعاجيب ،وأن يعقد هناك محاكمة أدبية يوازن فيها بين شاعر الملاهى المسرحية

---

(٣٤) الادب المقارن : د. غنيمى هلال ص ١٤٤ .

(٣٥) الادب المقارن : د. غنيمى هلال ص ١٤٧ .

"يوربيدوس" وبين زعيم المسرح الاغريقى " اسخيلوس" واستطاع أن يهيىء هناك جوا قضائيا هزليا أحضرت فيه المساطر والبراجل والامتار ،والزوايا والمناشر لقياس الشعر وجىء بميزان كبير ذى كفتين لتوزن فيها أبيات القريضكما يوزن اللحم أو القشاء٠(٣٦)

أما لاحقوه فأسبقهم أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخى المشهور بأبى العلاء المعرى الذى استطاع أن يحمل ابن القارح على جناحى خياله ويطير به الى ماوراء عالم الحس ،ويطلعه على كل مدهش ومرعب ••• ويطوف به على الشعراء والادباء ورجال الفكر ويعقد له حلقات المناقشة والحوار مع النحاة واللغويين ،وسيتضح ذلك فى الفصل الثالث الذى نعقده لدراسة قضية السبق الزمنى بينه وبين ابن شهيد • (٣٧)

ومن لاحقيه كذلك الشاعر الايطالى " دانتى" فقد استطاع بخياله أيضا أن يرحل الى ماوراء هذا العالم وأن يجوس خلال عالم معجب مرعب معا وأن يلتقى هناك بكبار الادباء والفلاسفة والمفكرين من عباقرة العالم منهم على سبيل المثال من أمة العرب " ابن سينا" و " ابن رشد " • (٣٨)

ومن لاحقيه أيضا الشاعر الانجليزى " ميلتون" فى ملحمته

---

(٣٦) المصدر السابق ص ١٦٣ •

(٣٧) ينظر هذا الفصل فى الباب الاول •

(٣٨) غنيمى هلال ص ١٥٦ – ١٥٧ •

"الفردوس المفقود" الذى قفز الى ماوراء هذا العالم ليقص فى نسق خيالى خبر خروج آدم وحواء من الجنة واغواء الشيطان لهما .... (٣٩)

نلاحظ من بين هؤلاء الذين يمتازون بقوة الخيال وغزارته وخصوبته ثلاثة من غير المبصرين اولهم : هوميروس ،وثانيهم أبو العلاء ،وثالثهم : ميلتون . فهل ياترى بين فقدان البصر وتوقد الخيال ارتباط ؟

نلاحظ كذلك أن " أرستوفان" الاغريقى ،و "فرجيل " اللاتينى ودانتى الايطالى ،وملتون الانجليزى ،كل هؤلاء اتبعوا طريقة "هوميروس" فى فكرة الرحلة الى ماوراء عالم الحس .

حقا ان "دانتى" من الثابت فى الدراسات المقارنة فى العالم أنه متأثر بأصول اسلامية ،ولكن ذلك فى الاحداث والتفاصيل ،وليس فى القالب ،فالقالب قديم فى الآداب الغربية ... وحسبنا أن دليله فى رحلته كان " فرجيل" صاحب الانيادة .

وليس هناك أدنى شك فى أن ابن شهيد فيما وصل الينا من كتابه " التوابع والزوابع" أو " شجرة الفكاهة" كان ذا خيال محلق ولم يحتذ فى ذلك على سابق ... فمن المقطوع به حتى الآن أن ملاحم الاغريق ومسارحهم لم تترجم الى العربية فى عصور

---

(٣٩) غنيمى هلال ص ١٥٨ .

الترجمة المعروفة ،كما أنه من الثابت تاريخيا أن أبا العـــــلاء لاحق به غير سابق له فى تأليف " الغفران" ولكن هذا لايمنـــــع أن ابن شهيد قد استوحى الخرافات العربية القديمة حول وادى عبقر والاقاصيص المبثوثة حول قرى الجن ... والاخبار الشائعة حـــــول شياطين الشعراء،بل ان عنوان التوابع والزوابع يشى بذلك ،بـــــل يصرح به تصريحا ...

وغنى عن البيان أن ذلك لن يعطى " التوابع والزوابع " قيمة أدبية يجعلها فى محاذاة الاعمال الادبية السابقة التى تــــــدور كلها حول عالم ماوراء الحس ... بل حسب ابن شهيد الاندلسى أنـــه فتح هذا الباب فى أدبنا العربى ... من غير أن يسبقه الى هـــذا الفكر سابق ... يلاحظ كذلكأن ابن شهيد أقرب الى أرستوفـــــان الاغريقى فى الهدف الذى كان يرمى اليه من تأليفه ... فهدف كـــل منهما أدبى ويلحق بهما صاحب الغفران فى ذلك ... (٤٠)

---

(٤٠) محاضرات الدكتور عبدالبصير عبدالله حسين فى الادب الاندلسى مطبوعة بالآلـــة الكاتبة.

بقى أن نعرف هل تأثر أبو عامر فى بناء قصته " التوابع والزوابع" بأبى العلاء ... أو تأثر أبو العلاء فى بناء قصته " رسالة الغفران" بأبى عامر ؟

يجيب على ذلك الدكتور أحمد ضيف فى أثناء حديثه عن اسلوب ابن شهيد وطريقة تأليفه لرسالة " التوابع والزوابع " قائلا :

" ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء فى ذلك ،لأنه أدرك عصره ،ولان شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب " .

والحقيقة أن المرحوم أحمد ضيف لم يصدر رأيه هذا بعد تحقيق دقيق للقضية ،فهو يقول : " ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء " فهو لايجزم بتقليد ابن شهيد لأبى العلاء ... ثم كونه أدرك عصره يجعلهما متساويين فى الاحتمال من غير ترجيح ،ولعل مادفع الدكتور ضيف الى هذا الرأى هو عظم مكانة أبى العلاء فى نفسه ... غير أن هذا لم يمنع الاستاذ بطرس البستانى أن يذهب الى رأى مخالف تماما بعد أن ثبت له بعد الدرس والتمحيص ،سبق ابن شهيد فى تأليف " التوابع" أبا العلاء فى تأليف " الغفران" ولذا يقول " فغير مستنكر أن يكون أبو العلاء قد اطلع على هذه الرسالة " فنبهت فيه فكرة الرحلة الى ماوراء الحس ... ثم جاءت رسالة ابن القارح تدعوه الى تصنيفها ،ولايدفع هذا الرأى بعد الشقة بين قرطبة والمعرة ،أو قلة انتشار الادب الاندلسى

فى الشرق فان ابن شهيد لم يكن من المغمورين عند المشارقة على تعصبهم لأدبهم ،واستخفافهم بأدب المغاربة - ثم ان دعوى التقليد التى ذكرها المرحوم أحمد ضيف قضية لايعول عليها ،ولاتثبت للتحقيق العلمى الدقيق - وقد روى أبو منصور الثعالبى فى يتيمة الدهر طائفة صالحة من كلامه ... والثعالبى ولد سنة ٣٥٠ أى قبل ولادة أبى عامر باثنين وثلاثين سنة ،وتوفى سنة ٤٢٩هـ أى بعد ثلاث سنوات من وفاة أبى عامر،فهو معاصر له ولأبى العلاء .

وقد صنف كتابه يتيمة الدهر،فى صيغته الاولى سنة ٣٨٤هـ والعمر فى اقباله ، والشباب بمائه كما يقول فى مقدمته . ثم أعاد النظر فيه فلم ترض نفسه عنه فاستأنف العمل ،ومازال يبنى وينقض ،ويمحو ويثبت ،حتى أخرج نسخته الاخيرة من بين النسخ الكثيرة ،ولم يتم له هذا الامر الا بعد ما أدرك عصر السن والحنكة ،فتسنى له أن يدون من آثار ابن شهيد بعض مدائحه فى يحيى المعتلى سنة ٤١٢هـ وشيئا من رثائه لابى عبيدة بن مالك وزير المستظهر سنة ٤١٤هـ ، وأوصافه للحلواء والبرغوث الثعلب وهى واردة فى رسالة التوابع والزوابع واذا كان أبو عامر قد أنشأها قبل تصنيفه رسالته هذه ،فان وصفه للماء ،ورواه الثعالبى ،هو من صلب التوابع والزوابع كما نرجح ،وضعه خصوصا لينافس به صاحب بديع الزمان ،فتكون هذه الرسالة قد هاجرت الى المشرق ،فى حياة مؤلفها مع غيرها من اثاره ،واخذ منها ابو منصور الى يتيمته . فمن المعقول أن يقف

عليها أبو العلاء المعرى فيتأثر بها ،وهو على مانعرفه،مغرى بالقراءة كلف بالدرس والاطلاع ..."ويواصل بطرس البستاني حديثه قائلا: (ولكن لا نزعم أنه انسحب على أذيالها فى رسالة الغفران فان الشبه الذى نجده بين الرسالتين لايحرم أبا العلاء حق التأليف ،وكلتاهما تسير فى طريق معبد لها ،وترمى الى هدف مخصوص بها " . (٤١)

ومن الذين حاولوا تحقيق(٤٢)تاريخ الرسالتين الدكتور زكى مبارك عندما اطلع على رأى المرحوم احمد ضيف واستناده الى شهرة أبى العلاء وتقليد الاندلسيين للمشارقة وخلوصه الى أن عصر ابن شهيد يندرج فى عصر أبى العلاء اذا فهو مقلد له ... ولكن الدكتور مبارك لم يسلم بذلك حيث قال: "وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذى وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نهتد،ولكن رأينا فى الرسالة نفسها مايدل على أن ابن شهيد وضعها وهو كهل . فقد جاء على لسانه مايشير الى أن من اخوانه " من بلغ الامارة وانتهى الى الوزارة" وألقى اليه على لسان بغلة جنية هذا السؤال : " ماأبقت الايام منك ؟" .

---

(٤١) انظر مقدمة الرسالة لبطرس البستانى ص ٧٤ - ٧٥ .

(٤٢) ينظر فى ذلك أيضا مادونته عائشة بنت الشاطىءفى " رسالة الغفران" حول تاريخ الرسالتين ص ٣٠٠ ومابعدها ط ١ دار المعارف بمصر . وانظر تيارات النقد فى الاندلس فى القرن الخامس ط ،مؤسسة الرسالة ص ٥٧٨ .
وانظر الادب الاندلسى بين التأثر والتأثير رجب البيومى طبعة جامعة الامام محمد بن سعود ص ١٧٧ ومابعدها .

وفى هذا السؤال اشارة الى أنه قد ودع نضارة الشباب ...ولكن لاينبغى أن تخدعنا هذه التعابير ،فهناك نص يدل على أنه وضعها وهو شاب ،فقد حدثنا فى (التوابع والزوابع) أن الجن قالوا له : " قد بلغنا أنك لاتجارى فى أبناء جنسك ،ولايمل من الطعن عليك ،والاعتراض لك ،فمن أشدهم عليك ؟..." وأنه أجاب " جاران دارهما صقب ،وثالث نابته نوب ،فامتطى ظهر النوى ،وألقت به فى سرقسطة العصا، انتضى على لسانه عند المستعين ،وساعدته زرافة من الحاسدين ...الخ" .

وهذا الكلام يشعر بأنه كتب هذه الرسالة فى عهد المستعين والمستعين هذا هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الاموى ، الذى بويع بقرطبة منتصف ربيع الاول سنة ٤٠٠هـ بعد مقتل هشام بن سليمان ،وجددت له البيعة سنة ٤٠٣هـ ثم مات مقتولا سنة ٤٠٧هـ... ومن هنا يمكن أن نرجح أن رسالة " التوابع والزوابع" كتبت بين سنة ٤٠٣ وسنة ٤٠٧هـ .

هذا جانب من المسألة ، أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذى وضعت فيه رسالة الغفران . وفيه يقول :

" وقد بحثنا طويلا فى التراجم عن التاريخ الذى كتب فيه المعرى رسالة الغفران فلم نهتد،ولكنا وصلنا بعد التأمل الى تقريب التاريخ ،ذلك أن رسالة الغفران جواب على رسالة ابن القارح وقد عدنا الى رسالة ابن القارح فدرسناها فقرة فقرة حتى

انتهينا الى قوله : (وكيف أشكو من قاتنى وعالنى نيفا وسبعين سنة) فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين،ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١هـ فاذا أضفنا الى هذا الرقم(٧٠) وجدناه كتب رسالته حوالى سنة ٤٢٢هـ ،واذا قدرنا أن ابن القارح قال نيفا وسبعين وللنيف دلالته ،وقدرنا أن ابا العلاء اعتذرعن تأخير الاجابة بأنه مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٢٢ و ٢٤ ٠

ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة ،وبذلك يتبين أن الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين افترض أن ابن شهيد قلد أبا العلاء ،وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذى قلد ابن شهيد ،وكما كان الاندلسيون يقلدون أهل المشرق فى كل شئ ،فان أهل المشرق كانوا يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الادبية فى الاندلس ،بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت فى الشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران ٠٠٠ " (٤٣) ذلك ماوصل اليه بحث الدكتور زكى مبارك للقضية ٠

أما الدكتور أحمد هيكل فيرى أن هذا الرأى " ليس دقيقا ٠٠٠ فقد اشتملت " التوابع والزوابع " على نصوص آخرى يرجع تاريخها

---

(٤٣) انظر زكى مبارك فى النثر الفنى ٣١٨/١ ومابعدها٠

الى مابعد هذا التاريخ . من ذلك قصيدة ابن شهيد التى قالها
وهوفى سجن الحموديين ،فالمرجح أن يكون قد قال هذه القصيدة
أيام القاسم بن حمود الذى يغلب أن يكون قد سجن ابن شهيد
لصلته بمنافس القاسم ،وهو يحيى بن حمود ،وقد كانت خلافة
القاسم سنة ٤١٣هـ ،وفى الرسالة كذلك مايؤخر زمن تأليفها عن
هذا التاريخ . فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لأبى عبيدة
حسان بن مالك، وكان هذا المرثى ضمن وزراء المستظهر سنة
٤١٥هـ ..." ثم يقول : " على أننا لانستطيع أن نجعله بعد ذلك
الابزمن يسير لاننا لانجد فى الرسالة نصوصا ترجع الى تاريخ متأخر
عن هذا التاريخ ،ولان فى " التوابع والزوابع " أبياتا يمدح بها
ابن شهيد صديقه أبا محمد بن حزم ويذكر شافعيته . ومعروف
أن ابن حزم انما كان شافعيا فى تلك الفترة أو بعدها بقليل
وأنه تحول بعد ذلك الى الظاهرية ،وعلى هذا يمكن القول بأن
ابن شهيد قد أتم رسالته سنة ٤١٥هـ . أما رسالة الغفران ،فمعروف
أنها كتبت ردا على رسالة ابن القارح ،وقد ذكر ابن القارح فى
رسالته مايفيد أنه كتبها حين كان عمره نيفا وسبعين فاذا عرفنا
أن مولد ابن القارح كان سنة ٣٥١هـ واذا أضفنا الى ذلك سبعين فقط
كانت النتيجة أن رسالة ابن القارح قد كتبت حوالى سنة ٤٢١هـ ثم
كانت نتيجة النتيجة أن رسالة الغفران التى هى رد على الرسالة
السابقة قد كتبت بعد ذلك .فاذا وضعنا فى حسابنا مايستفاد

من كلام ابن القارح من أنه فوق السبعين وما اعتذر به أبو العلاء من أنه آخر الرد لانه مستطيع بغيره ،كان من المعقول أن تكون رسالة الغفران قد كتبت حوالى سنة ٤٢٤هـ ،وهذا مايرجحه نص ،فى رسالة الغفران ، اذ يقول أبو العلاء فيمن يتحدثون عن الغيب "ولايجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، اسمه فلان بن فلان ..." وعلى هذا يتحقق أن رسالة ابن شهيد سبقت رسالة أبى العلاء بنحو تسعة أعوام برغم أن ابن شهيد أدرك عصر أبى العلاء ..." . (٤٤)

وذهب المستشرق بروكلمن الى رأى قريب من رأى زكى مبارك من أن التوابع والزوابع كتبت قبل الغفران بعشرين سنة ،ولكن بطرس البستانى خطأه فى ذلك لأنه لم يدل على شئ اعتمد عليه فى ذلك ... وذهب الى أن التوابع والزوابع تقدمت " الغفران" بتسع سنوات أو أقل فقد كتبها أبو عامر فى قوة شبابه ،بعدمانيف على الثلاثين ،واستند فى ذلك الى بعض الاشارات التى وردت فى الرسالة نحو قوله : " انه أوتى الحكم صبيا .." وقوله : " ان امتد به طلق العمر فلابد أن ينفث بدرر .." ثم حديثه مع بغلة أبى عيسى عندما قالت له : " ما أبقت الايام منك ؟ قلت كما ترين . قالت شب عمرو عن الطوق ..." ويعلق على ذلك الاستاذ بطرس قائلا : "فهذه

---

(٤٤) انظر احمد هيكل ص ٣٨٣، ٣٨٤ .

الاشارات الى صباه أو الى شبابه أو الى مجاوزته سن الحداثة لاتأذن لنا بأن نجعل رسالة " التوابع والزوابع" وليدة أواخر حياته ،لانها من دلائل فتوته .." (٤٥)

ومن مجمل هذه الآراء نخلص الى تقدم رسالة ابن شهيد على رسالة أبى العلاء ... ولكن مامدى التشابه بين الرسالتين ؟

فى الواقع ان التشابه بين الرسالتين كبير ،وان اختلفت طريقة كل منهما ...فالموضوع واحد ،وهو عرض المشاكل الادبية والعقلية بطريقة قصصية ... والخلاف فى جوهر الموضوع يرجع الى روح الكاتبين ... (٤٦) فطريق أبى عامر قادته الى وادى الجن وطريق المعرى قادته الى الاخرة وقد توافقا فى الطواف على الشعراء ... وعقد مجالس الادب والمناظرة والنقد ... (٤٧) فالمسرح واحد تقريبا لدى الرجلين ،والممثلون عند ابن شهيد جن يسخرون وعند أبى العلاء انس تسخرهم الملائكة والشياطين ... وهكذا يلتقى الرجلان ... ويتفقان فى التعريض بمن عاصرهما ،وشرح ما أخذا على المتقدمين من أساطين العقل ... (٤٨)

---

(٤٥) البستانى ص ٧٤ .

(٤٦) زكى مبارك ص ٣٢٠ .

(٤٧) البستانى ص ٧٥ .

(٤٨) زكى مبارك ص ٣٢١ .

وقد " وجه المعرى رسالته الى رجل يعرف بابن القارح ،كما وجه ابن شهيد رسالته الى رجل يدعى أبا بكر، الا أن أبا العلاء جعل صاحبه بطلا لقصته ،تدور عليه حوادثها ،ولم يذكر أبو عامر صاحبه الا فى مقدمة رسالته ،ثم سكت عنه ،وأقام من شخصه بطلا للقصة يتعهد حوادثها بنفسه ،مستصحبا تابعه زهير بن نمير دون أن يوليه عملا يستحق الذكر،غير التعريف بالاشخاص والاماكن ،وبنى موضوعه على ماعرف وشاهد من مجالس الادب والمناظرة فى زمانه ،وقبل زمانه ،وعلى مابلغ اليه من عقيدة العرب الاقدمين ،وهى أن لكل شاعر رئيا من الجان يحبه ويتبعه ويوحى اليه . غير أنه لم يوفق فى تصوير عالم الجن ،وغرائب ارضه وخلقه ،وما اشتهر عنهم من القدرة على الحولة والاتيان بالخوارق التى يعجز عنها الاناس ،فما نرى من احوالهم العجيبة الالمحات ضئيلة لايغنى بها أدب الخرافات والاساطير ،كما فى كلامه على جواد زهير بن نمير،وكيف طار بهما الى ارض التوابع او فى حديثه عن تابع ابى تمام " فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفلقة القمر ثم اشتق الهواء صاعدا الينا من قعرها ،حتى استوى معنا " .

أو قوله فى زبدة الحقب صاحب بديع الزمان " فلما انتهيت فى الصفة ضرب زبدة الحقب الارض برجله فانفرجت له عن مثل برهوت ،وتدهدى اليها ،واجتمعت عليه وغابت عينه ... ومثل ذلك اخبار حيوانات الجن فى اجتماعها واحاديثها ،فعالم ابن شهيد

انسى ،وان اضافه الى جنة عبقر،وتوابع الشعراء والكتاب جديرة بأن تكون مثلا لاصحابها ... لان صفاتهم هى نفس صفات أصحابها .

واذا كان تصوير ابن شهيد لعالم الجن ينقصه شئ من البراعة ... غير أنه عوض ذلك فى " احسان تمثيل الادباء فى اشخاص توابعهم وهذا شئ يحمد عليه ... ونتبين ذلك من خلال توقيره لبعض الشعراء والكتاب وجرأته على بعضهم الآخر ،فبينا نراه يلقى عتيبة بن نوفل صاحب امرئ القيس ،فيتلكأ عن الانشاد فى حضرته ،ويبهم بالحيصة ... ثم ينظر الى حسين الدنان فتدركه مهابته ،ويأخذ فى تعظيمه لمكانه من الشعر والعلم ،نجده يتعرض لابى الطبع صاحب البحترى ،فيباريه فى القريض ،فيسود وجهه ويكر راجعا الى ناورده دون أن يسلم ،وينافس زبدة الحقب صاحب البديع فى وصف الماء فيشق الارض برجله فتبتلعه من شدة الخجل وهو فى الغالب يستطيل على معاصريه .

أما أهل الجاهلية فلهم فى نفسه حرمة ووقار ...

وأما أبو العلاء المعرى فانه بنى موضوع رسالته الغفران على ماذكر " من وصف الجنة والنار وموقف الحساب فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وتصانيف الزهاد من أمثال كتاب التوهم للمحاسبى ،وماجاء فى الشروح على خبر المعراج ... فكان فى تصوير عالم الآخرة أبرع من أبى عامر فى تصوير عالم الجن وان الخيال عند هذا وذاك ينساق الى الاتباع أكثر منه الى

الابداع ،فظهرت الجنة بأنهارها وأشجارها ،وطعامها وشرابها ...الخ ومؤقف الحشر شديد الهول والظمأ،كثير الزحام ،لايدخل الجنة الا من غفر له ،وختم عليه بالتوبة ... وأعطى جواز المرور فيعبر الصراط الى جنات النعيم " .

" ويرى الناظر من المطلع الى النار ابليس اللعين يضطرب فى الاغلال والسلاسل ،ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية .

وهذا صخر أخو الخنساء كالجبل الشامخ تضطرم النار فى رأسه كأنه علم فى رأسه نار،وذاك بشار قد أعطى عينين لينظر الى مانزل به من النكال،فاذا أغمضهما حتى لاينظر،فتحهما الزبانية بكلاليب من نار،وهناك عنترة يتلذذ فى السعير ،والاخطل ،يتضور ويزفر زفرة تعجب لها الزبانية .

واقام ابو العلاء فى الفردوس المآدب الانيقة ... على ماهو مألوف فى الحياة الدنيا ،مع استفادته من أوصاف الكتب الدينية أو زينه بخياله وفنه .

ويلتقى مع أبى عامر فى عقد حلقات الادب والمذاكرة ... فقد طوف صاحبه ابن القارح على الشعراء،وعلماء اللغة،ينظر فى شؤونهم وأحوالهم ،ويسألهم بم غفر لهم ؟ ويستفسرهم أمورا تختص بهم أو يوقع بينهم المشاحة،والمناظرة على مثل ماتقع بين الادباء فى الدار العاجلة .

.. وفى النقد يشتد أبو العلاء فى الغمز على المحدثين أكثر

منه على الاقدمين فنقد بشارا ،ونقد أبا على الفارسى ،وأنزل سخطه على الرجازين وفى مقدمتهم رؤبة بن العجاج ..." .

وللجن فى رسالة الغفران موضع باسم جنة العفاريت ليس عليها النور الشعشعانى ... وانما هى أدغال وغماليل ...

ويذكر أبو العلاء (أشياء من خصائص الجن كرجم العفاريت بالشهب المحرقة ،مما لم يعن به أبو عامر فى رسالته ... الا أنه لم يرفع شأن التوابع مثله ،بل عدهم أطيفالا من الجن ينفشون الى الانس القليل من الشعر ،والاوزان " وهل يعرف البشر من النظيم الاكما تعرف البقر من علم الهيئة ،ومساحة الارض ؟ " .

والحيوان عند المعرى عاقل ناطق كما هو عند ابن شهيد ،غير أنه يستطيع التحول متى شاء ... وهذا لم تستطعه بغلة أبى عيسى فى التوابع والزوابع مع مابها من الشوق الى أبى عامر ...

وكلاهما ذكر الاوز فى رسالته ،فأما اوزة ابن شهيد فانها أديبة نحوية تبحث فى الاصول والفروع ،ولكنها بلهاء حمقاء كما هو معروف عن بنات جنسها ،وأما اوزة المعرى فقد نفضت عنها بله الاوز،وتمتاز بقدرتها على التحول .

والسخر فى " الغفران" من أخص ميزاتها الادبية ،وهو سخر هادئ ناعم شديد النفاذ مستمد من تشاؤمه المظلم ...

ولاتخلو رسالة " التوابع والزوابع" من السخر،فابن شهيد فى تعرضه للشعراء،والادباء ، أخرج الكلام عليهم مخرج الهزل

والتهكم ، الا أن سخريته تتسم بالحدة والخشونة ، والاقذاع ... كقوله (والله ان للروث لرائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم فى الشعر ...) (٤٩)

وأخيرا فان للتوابع والزوابع لغة رشيقة طلية ، موشاة أنيقة غنية بالاوصاف والصور والالوان ، بخلاف الغفران ، فانها تكاد تفتقر الى الوشى والتصوير الا ما اقتبس صاحبها من القرآن الكريم ، أو أخذ عن سابقه .

وهذا أمر طبيعى فى كاتب ضرير طفىء النور فى عينيه عن الصورة واللون ، قبل سن الادراك والتمييز ، فأبو عامر يسمو على المعرى برونق الديباجة ، ودقة الوصف ، ولكنه ينحدر عنه بعمق الفكرة ، ولطافة السخر ، وقوة الجاذبية ، وسحر الاستهواء ، وله فضل المتقدم على كل حال . (٥٠)

وفضل السبق لابى عامر ، لايعنى أنه لم يكن يوجد شىء من ذلك فى أى أدب قبل أدبنا العربى ... كلا ... بل سبق الى ذلك فى الادب اليونانى القديم : الشاعر الاغريقى " أرستوفان" فى

---

(٤٩) انظر البستانى ص ٧٤ ـ ٨٣ .
وانظر : احمد هيكل ص ٣٨١ ـ ٣٨٥ .
وانظر : النثر الفنى ـ زكى مبارك ٣١٨/١ ومابعدها .

(٥٠) انظر البستانى ص ٨٣ .

مسرحيته (الضفادع) بأزمان متطاولة ... ولكن من السخف الشديد أن يعقد كاتب أو يحاول أدنى محاولة لمقارنة توحى بصلة تأثير أو تأثر بين أديب الاغريق وأديبى العرب أبى عامر وأبى العلاء لانه لايوجد وثائق تدل على أن العرب ترجموا شعر الاغريق .

اذا فمغامرة ابن شهيد تعتبر لونا جديدا من الوان القص العربى ،بل تجربة غيرمسبوقة فى الادب العربى بعامة ... وهى الطريق لمن ولج هذا الباب من أدباء المشرق والمغرب كأبى العلاء فى " غفرانه " ودانتى فى " الكوميديا الالهية " . (٤٨)

وأما بالنسبة لما ذكر من أن أصل هذا النوع من القصص يرجع الى خبر الاسراء والمعراج (٤٩) فليس صحيحا لأنه لاينطبق الاعلى غفران أبى العلاء ومن تأثر به ،أما "التوابع والزوابع " فانهما ترجع كما أسلفنا الى اسطورة وادى عبقر .

---

(٤٨) انظراحمد هيكل ص ٣٨٥ .

(٤٩) انظر احمد هيكل ص ٣٨٥ .

الفصل الثالث

قيم نقدية عند ابن شهيد

لأبى عامر آراء نقدية صادرة عن وعى ورأى تجريبى لا رأى نظرى وقــد دارت ملاحظاته هذه حول مشاكل كان له فيها فلج ، وناقش أمورا أخذهـــا على غيره ... وسنجد فى مختلف آرائه ما يكون نظرة شاملة متكاملـــة ، وأحكاما على مدارس واتجاهات فى الشعر والنثر . وعلى نفر من الشعـــراء والكتاب من معاصريه وأهل بلده ....(١) وهذه الآراء تدل على فكره الشاقب وعلمه الواسع فى طرق النقد الأدبى وكأنها آراء مبنية على نظر عميـــق أو دراسة فنية علمية.... وكما يقول احمد ضيف " ان آراء ابن شهيـــد فى النقد اكبر ميزة من شعره ونثره ،لأنها تدل على سعة اطلاعه ،وابتكاره الخالص من كل تقليد فقد انفرد بين نقاد الادب العربى فى ذلك ....."(٢) ويؤيد ذلك مادونه " جارثيا جومث " عن ابن شهيد عندما قال : " أمـــا ابن شهيد الشاعر الناقد فهو المفكر العقلى الخالص ، الذى لا يتخـــذ بفضل منزلته وأصله النبيل من ميدان الادب حرفة للتكسب ،وانما يجد فـــي الادب فنا خالصا للتعبير عن طبيعة نفسه ..." . (٣)

وابن شهيد صاحب نظرية التجديد الدائم فى الادب (٤) فهـــــو

---

(١) تاريخ النقد الادبى فى الاندلس ،محمد رضوان الداية ،ص ٢٩٦ .

(٢) بلاغة العرب فى الاندلس ،ص ٥٤ .

(٣) الشعر الاندلسى لجارثيا جومث ،ص ٢٩ .

(٤) ديوان ابن شهيد ،تحقيق يعقوب زكى ط/١،دار الكتاب العربى ،القاهرة ، ص ٦٥ .

يقول : " وكما أن لكل مقام مقال،فكذلك لكل عصر بيان ،ولكل دهر كلام ،ولكل طائفة من الامم المتعاقبة نوع من الخطابة ،وضرب من البلاغة لايوافقها غيره ،ولاتهش لسواه ،وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نقل وتغاير فى العادة ، آلاترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الاول فى هذا الفن الى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون ،وغيرهم من أهل البيان ؟ (٥) ..وكأنه يشير هنا الى أثر البيئة فى الادب ... ويرى أن " اقامة البيان لايقوم بها حفظ كثير من الغريب ،واستيفاء مسائل النحو،بل بالطبع مع وزنه من هذين ،ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ،فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يطلع صور الكلام ،والمعانى فى أجمل هيئاتها ... ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من أصل تركيبه والغالب عليه جسمه ،كان مايطلع فى تلك الصور ناقصا عن الدرجة الاولى فى التمام والكمال وحسن الرونق ... فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تتأتى منه فى حسن النظام صور رائعة

---

(٥) ديوان ابن شهيد ،تحقيق يعقوب زكى ص ٦٦ .
وانظر الادب الاندلسى ـ احمد هيكل ص ٣٩٣ .
وانظر ابن شهيدحياته وادبه ،د. حازم خضر ص ٢٦٩ .
وانظر ملامح التجديد فى النثر الاندلسى ـ د. السيوفى ص ٩٦، ٩٧.

من الكلام تملأ القلوب ...وتشغف النفوس ،فاذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ،ولجمال تركيبها وجها لم تعرفه ،وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ... (٦)

وكان يرى أن لتركيب الاعضاء كما يقتضى علم الفراسة تأثير فى صلاح الآلة الروحانية ،وفسادها ،ففساد الالات الظاهرة فى الجسم يعين على فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم منها : فرطحة الرأس وتسفيطه ،ونتوء القمحدوة ،والتواء الشدق وخزر العين ،وغلظ الانف ،وانزواء الارنبة ...(٧) ورأينا كيف طبق ذلك عندما سخر من الافليلى،وقال :" ليست مشيته مشية اديب ولاوجهه وجه أريب ولاجلسته جلسة عالم ،ولاأنفه أنف كاتب ،ولانغمته نغمة شاعر ..." . (٨)

ويلاحظ على هذه النظرات النقدية أنها تتصف بشىءمن المجازفة ولايمكن الاعتماد عليها ولكنه وضع هذه الآراء كخطوة أولى فى النقد الادبى وقد علق على ذلك الاستاذ احمد ضيف بقوله : " هذا شىء طريف

---

(٦) الذخيرة،ق/١، م ١ ص ٢٣١ ،وانظر حازم خضر ـ ابن شهيد حياته وادبه ص ٢٦٩ . وانظر الادب الاندلسى ـ احمد هيكل ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ ،وانظرتاريخ النقد الادبى فى الاندلس ـ محمد رضوان الداية ص ٢٩٦،٢٩٧ .

(٧) الذخيرة،ق/١، م ١ ص ٢٤٠،وانظر البستانى ص ٥٧ ،واحمد هيكل ص ٣٩٤ .

(٨) الذخيرة،ق/١،م/١،ص ٢٤٢،وانظرالبستانى ص ٥٧ .

فى النقد الادبى عند العرب ،وكأنه يشير الى مذهب النقاد الذين يأخذون صور الكتاب من كتاباتهم . ويقولون ان البلاغة من نثر ونظم تدل على نفوس البلغاء وفى هذا الكلام اشارة الى مذهب علمى فى النقد ،وهو أن للاعضاء ووظائفها اتصالا بالادراك ،وذلك ان كان ليس مبنيا على تجارب علمية أو على دراسة فنية فهى أفكار جالت فى نفسه تدل على قوة الفكر لديه ،وهو يميل الى أن الافتنان فى الكلام أو البلاغة فى النظم والنثر أو مايسمونه بالبلاغة نوع من الالهام أو شئ من الغيبيات ، أو سر من أسرار النفوس وهذه الآراء هى أصول مذاهب النقد الادبى ..." . (٩)

فابن شهيد يرى أن البيان يحصل من جراء عنصرين متلازمين :

الطبع : ويعنى به مافطر عليه المرء من موهبة ومقدرة ...

والآلة : ويقصد بها محصلة تعليم المرء ومايتمى به موهبته ...

وكان يرى أن الاديب يجب أن يكون فى شخصيته وهيئته بحكم عمله واتصاله بالآخرين ،نظيفا حسن المنظر،حتى لاينفر منه ،ويسئ الى أدبه فيقول : " ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة ،سليم آلات الحواس ،نقى الثوب ،ولايكون وسخ الضرس ،منقلب الشفة ،مكحل الاظفور،وضر الطوق ..." (١٠)

---

(٩) انظر : بلاغة العرب فى الاندلس ـ احمد ضيف ص ٥٥ .

(١٠) الذخيرة ق١م١ ص ٢٠٥،٢٠٦،وانظر الادب الاندلسى ـ احمد هيكل ص ٣٩٤ .

ولم يحفل أبو عامر بالقراءة كثيرا، فقد كان يعتمد على غرب ذاكرته، وتوقد ذهنه، وذكاء قلبه فيكتفى بيسير المطالعة وقليل النظر، وكان دائما يسخر بالمعلمين والنحاة لانهم فى نظره حساد الادباء لايحسنون الكتابة والشعر، لضعف روحانيتهم وسوء فهمهم، وغلاظة اكبادهم، فكان يقول : " سقطت اليهم كتب فى البديع والنقد، فهموا منها مايفهمه القرد اليمانى من الرقص على الايقاع، والزمر على الالحان، فهم يقدمون غرائبها، فيما يجرى عندهم تصريف من لم يرزق آلة الفهم ..." (١١) وقد كثرت سخرية أبى عامر بالنحاة فى هذه الرسالة اذ جعل تابعةً أحد شيوخهم اوزة لما عرف عن الاوز من الحمق والسخافة، ودخل معها فى جدال عنيف اذ تقول له : " ما الذى تحسن ؟ فيجيبها : قائلا: ارتجال شعر، واقتضاب خطبة، قالت : ليس عن هذا أسألك ؟ فيقول أبو عامر : ولابغير هذا أجاوبك، قالت : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال، وأنا انما أردت احسان النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام، ومادة البيان " . فيرد عليها قائلا : فهل تعرفين فى الخلائق أحمق من اوزة ؟ قالت: لا قال : فتطلبى عقل التجربة اذ لاسبيل الى عقل الطبيعة، فاذا

---

(١١) الذخيرة، ق/١، م /١، ص ٢٣٩ .

وانظر البستانى ص ٥٥ .

وانظر أحمد ضيف ص ٥٨ .

أحرزت منه نصيبا وبؤت منه بحظ ،فحينئذ ناظرى فى الادب ··" (١٢)

ولعل سخريته هذه من النحاة نابعة من عدم فهمهم لادبه فهم كما يقول : " لاكقوم عندنا حظهم من الفهم والحفظ،ومن العلم الذكر وهذا خظ القصاص ،وأعلى منازل النواح ،فترى الممخرق منهم إذا قرئ عليه الشعر ،يزوى أنفه ،ويكسر طرفه ،واذا عرضت عليه الخطبة يميل شقه ويلوى شدقه ،فان تناولها لم يبق ملحة الاحشدها ،ولا أبقى عفصة فجة الا جلبها ،وأصل قلة هذا الشأن وعدم البيان ،فساد الأزمنة ونبو الامكنة ··· انا طلبنا البيان فأدركناه بكل لسان والتمسنا الابداع فأثبتنا كل معجب ···" (١٣)

وكان يرى أن من الواجب على الاديب أن يراعى تناسب الألفاظ فى أسلوبه وتوافقها حيث يقول : " ان للحروب أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام ،فاذا جاور النسيب ،النسيب ،ومازج القريب القريب ،طابت الالفة وحسنت الصحبة واذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر،وطابت المخابر ··· وللعذوبة اذاطلبت ،وللفصاحة اذا التمست قوانين من الكلام من طلب بها أدرك،ومن تنكب عنها قصر ··· وكما تختار مليح اللفظ ،ورشيق الكلام ،فكذلك يجب أن

---

(١٢) انظر رسالة التوابع والزوابع ،ت البستانى ص ٢٠٧ ·

(١٣) الذخيرة ،ق/١،م/١ ،ص ٢١٢، ٢١٣ ·

وانظر البستانى ص ٥٥،٥٦ ·

وانظر أحمد هيكل ص ٣٩٢ ·

تختار مليح النحو ،وفصيح الغريب ،وتهرب عن قبيحه ..." (١٤)

ويبدو أن أبا عامر كان شديد الاهتمام بالنقد فنراه يوقف صاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد للحكم بين كلامين ... ويدخل معهم فى حوار ينتهى بشهادة الجاحظ له بأنه بارع فى الصناعتين ،وذلك فى قوله له : " انك لخطيب ،وحائك للكلام مجيد لولا أنك مغرى بالسجع فكلامك نظم لانثر ..." فاعتذر اليه أبو عامر بأن ذوق عصره اقتضى ذلك،ولابد من مجاراتهم فيقول : " ليس هذا أعزك الله منى جهلا بأمر السجع ،ومافى المماثلة والمقابلة من فضل ،ولكنى عدمت ببلدى فرسان الكلام ،ودهيت بغباوة أهل الزمان ،وبالحرا أن أحركهم بالازدواج ..." . (١٥)

ويتهم كلامهم عندما سأله الجنى عنه " بأنه ليس لسيبويه فيه عمل ،ولاللفراهيدى اليه طريق ،ولاللبيان عليه سمة ، انما هى لكنة أعجمية ،يؤدون بها المعانى تأدية المجوس والنبط " فيشتد تأثر صاحب الجاحظ من ذلك ،ويقول انا لله ذهبت العرب وكلامها !!

---

(١٤) الذخيرة ،ق/١،م/١ ،ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

وانظر البستانى ص ١٠٦ .

وانظر أحمد هيكل ص ٣٩٢ .

(١٥) انظر تاريخ النقد الادنلسى . د. رضوان الداية ص ٣٠٢ .

ارمهم ياهذا بسجع الكهان ،فعسى أن ينفعك عندهم ،ويطير لـــك ذكرا فيهم ... " . (١٦)

وكان أبو عامر يرى أن الموهبة من لوازم الابداع الفنـــى ولذلك رد على أنف الناقة عندما قال انه أبو البيان ،وانه تلقـى ذلك عن المؤدبين ،فرد عليه قائلا : " ليس هو من شأنهم ،انمـا هو من تعليم الله حيث قال : " الرحمن ،علم القرآن ، خلــق الانسان ،علمه البيان"(١٧) ليس من شعر يفسر ولا أرض تكسر ..." (١٨)

ولذلك يعول كثيرا على هذه الموهبة لانها تجعل الاديب يؤثـر بنفسه على أى معنى يتناوله ،ومقياس الجودة فى نظره أن (تتنـاول الوضيع فترفعه ،والرفيع فتضعه ،والقبيح فتحسنه ... " (١٩)

ولابن شهيد رأى فى السرقات الادبية : فحواه أن من يريـد أن يأخذ عن غيره معنى شديد الروعة والحسن فعليه أن يلتمس لـه عروضا غير العروض الذى أخذ به الاول ،وقد أجرى ذلك على لسـان شيخ من الجن يعلم ابنه صناعة الشعر فيقول له : " اذا اعتمدت معنى

---

(١٦) انظر تاريخ النقد الاندلسى . د. رضوان الداية ص ٣٠٢ .
وانظر ابن شهيد ـ د. حازم خضر ص ٢٧٠ .

(١٧) سورة الرحمن : آية ١ ـ ٤

(١٨) انظر تاريخ النقد الاندلسى د. الداية . وكذلك ابن شهيـد حازم خضر ص ٢٧٠ .

(١٩) المصادر السابقة نفس الصفحات .

قد سبقك اليه غيرك فأحسن تركيبه ،وأرق حاشيته ، فاضرب عنه جملة ،وان لم يكن بد ففى العروض التى تقدم اليها ذلك المحسن لتنشط طبيعتك ،وتقوى منتك ... " . (٢٠)

ثم يعرض أبو عامر بعد ذلك لقضية اللفظ والمعنى : من خلال نصائح وجهها الى الاديب الذى يريد أن يأتى بما يذيع اسمه وينشر ذكره حيث ينصح بالبحث عن اللفظ الرائق ،والمعنى الرفيع بحيث يحصل من اجتماعهما البيان الذى طالما أشار اليه ،ويحذر من تزويق اللفظ وبهرجته بما يذهب بأصالته ونصاعته فكم من شعر فضى البشرة رصاص المكسر،فاذا اجتمع للاديب المعنى الكريم فى اللفظ الكريم الى شىء من البديع مع توشية بنادره أو حكمه فقد حاز مايريد وانما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان وتعمد كرائم المعانى والكلام ،وأن ينطق بالفصل ،ويركب أثباج الجد،ويطلب النادرة والسائرة ،وينتظم من الحكمة مايبقى بعد موته ... " (٢١)

ولأبى عامر رأى فى الوحدة الفنية (فذكر أنه على من يتعرض لمعالجة موضوع أن يستوفى جوانبه أولا،وألا يخرج عما هو بسبيله

---

(٢٠) رسالة التوابع والزوابع – ت البستانى ص ٦٠ .
وانظرتاريخ النقد فى الاندلس– رضوان الداية ص ٣٠٣ .
(٢١) انظر المصدر السابق ص ٣٠٤ .

ثانيا،وفى ذلك يقول ابن شهيد " ومما يلزم المدعي لصناعة الكلام اذا اعتمد وصف حالة أن يستوفي جميعها ويكون مايطلبه من الابداع والاختراع فيها غير خارج عنها،وماهو بسبيلها فذلك أبهى لكلامه وأفخم للمتكلم به ،وأدل على أن الكلام من تأليفة ٠(٢٢)٠

تلك هى أهم النظرات النقدية لدى أبى عامر،والتى انطلق فيهامن ذكاءمفرط،ومعرفة جيدة للمعانى التى تتعاورها الادباء ان شعرا وان نثرا ومدى اجادتهم فيها ٠٠٠ وقد جعل أحكامه النقدية فى ضوء هذه المعايير ،وهى تدل كما يرى الاستاذأحمد ضيف على اطلاع أبى عامر ابن شهيد على كتب العلم والفلسفة ،على الرغم مما فيه من الغموض ٠٠٠ ثم يقول : وهل نجد بين أدباء العرب فى النقد الادبى هذا الطريق العلمى؟ ان هذه الآراء ممتازة فى النقد الادبى العربى ،وطريقة علمية تشبه ماحدث فى الادب عند أهل أوروبا فى القرن التاسع عشر ،وكان هذا يكون نموذجا للنقد الصحيح وطرقه العلمية التى تصل أفكار الكاتب وآراءه بتكوينه العصبى ،وتركيبه الجسمى ،ولكن واحدا من الأدباء الذين تكلموا عن أبى عامر ابن شهيد لم يذكروا له غير "شعره الدقيق ،وأسلوبه الرشيق ،ومجونه الكثير ،وأدبه الوافر ٠٠٠" ٠

---

(٢٢) انظر : الذخيرة ق١ م١ ص ٣١٨ ،٣١٩ ٠

وانظر الادب الاندلسى لأحمد هيكل ص ٣٩٤ ٠

ويختم حديثه قائلا : " ان ابن شهيد من أفذاذ الآدباء المفكرين الذين أنجبتهم حركة العقول والادراك فى الأندلس " (٢٣)

ولابن شهيد آراء عامة تتعلق بالمفاضلة بين الادباء،وكأنه بذلك يصنفهم الى أصناف ثلاثة فيقول : " وأهل صناعة الكلام متباينون فى المنزلة ،متفاضلون فى شرف المرتبة على مقدار احسانهم وتصرفهم .

فمنهم الذى ينظم الاوصاف ،ويخترع المعانى ،ويحرز جيد اللفظ الاأنه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحته فى التأليف حتى انه ربما قصر فى الوصف ،وأساء الوضع .

ومنهم الكارع فى بحر الغزارة، القادح بشعاع البراعة ، الذى يمر مر السيل فى اندفاعه فهذا يمتاز بقدرة خارقة على اجتلاء المعانى والغوص على اللطيف المبتكر اذا ازدحمت فى الكلام عليه المطالب ، أعمل فكره المتوقد ،واستطاع أن يجذب الأسماع ويخرس الالسن،ولايقف أمام بيانه شئ .

ومنهم من يتجافى الكلام ،ويروع عن المقال ،فاذا منى به أخذ بأطراف المحاسن ،وشارك فى أنحاء من الصنعة ،وجل ماعنده تلفيق وحيله ،وبذلك يصاحب الايام ،ويجارى أبناء الزمان .

وفى رأى أبى عامر أن " من خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم

---

(٢٣) بلاغة العرب فى الاندلس ص ٥٩ .

يستحق اسم البيان ،ولايدخل فىأهل صناعة الكلام ... " (٢٤)

وكما نرى أن جل آراء ابن شهيد النقدية نابعة من قضايا عصره ،وأنه فى نقده لمن سبقه ،قد جعل لنفسه مقياسا لم يخرج عنه وهو " الاسلوب الذى يرعى تلاع الفصاحة ويستحم بماء العذوبة والبراعة ،شديد الاسر،جيدالنظم فى أى معنى من المعانى " (٢٥)

هذا ويعتبر أبو عامر أول من حاول أن يقدم تصورا معتدلا للبديع وجهدا فى التقعيد للتجديد الفنى ... وكان منظاره للقديم والمحدث هو مقياس الفصاحة والعذوبة ... " . (٢٦)

---

(٢٤) انظر الذخيرة،ق/١،م/١ ،ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .
وانظر رضوان الداية ص ٢٩٩ .

(٢٥) انظر : تيارات النقد فى الاندلس ،د. مصطفى عليان ص ٥٨٣ .

(٢٦) انظر : تيارات النقد فى الاندلس ،د. مصطفى عليان ص ٥٨٦ .

الباب الثاني

اعترافات ابن حزم العاطفية

أو

« طوق الحمامة »

الفصل الأول

الحب قبل «طوق الحمامة» وبعده

موضوع الحب من الموضوعات الشائكة التى شغلت العرب منذ بداية الازدهار الثقافى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ...

فقد تناوله مجموعة من العلماء والادباء قبل أبى محمد بن حزم...(1).

---

(1) هو : أبو محمد على بن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح ابن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد ،كانت اسرته فى اقليم لبلة في بلدة كانت تسمى " منت ليشم " وأصبحت تسمى اليوم"منتيجار" أو"كاسامنتيخا ...ويذكر مؤرخ الاندلس أبو حيان أن أسرة ابن حزم من أصل أسباني ... ولد ابو محمد بقرطبة فى الجانب الشرقى من ربض منية المغيرة ،سنة ٣٨٤هـ فى أيام المنصور بن أبى عامر ... وكان أبوه آنذاك وزيرا له وهذا ما جعله ينتقل من بلاط مغيث غربى قرطبة الى مدينة الزاهرة شرقى العاصمة ،حيث قصر الحاجب ... وظل محتفظا بمكانته عند الحاجب والخليفة معا .

قضى أبو محمد حياته فى قصر أبيه حيث عهد الى النساء بتربيته وتحفيظه القرآن ... فكانت نشأته مترفة ناعمة خرج الى مجالس العلماء حوالى سنة ٣٩٩ هـ وظل يواصل تعليمه فى قرطبة حتي شبت الفتنة المبيرة ،فاضطر الى ترك قرطبة سنة ٤٠٤ هـ واختار ألمرية ،وهناك واصل درسه وتحصيله... ولكن الظروف لم تساعده على التفرغ للعلم ... فقد قبض عليه فى ألمرية بسبب ولائه للامويين وسجن بها حينا ثم نفى ،فتوجه الى حصن القصر ... وعندما علم أن أمويا دعى له فى " بلنسية" وهو عبدالرحمن الرابع الملقب بالمرتضى انتقل الى بلنسية ليناصره الا أن هذا الامير لم يصدم كثيرا حيث =

....

= فشلت حركته ،وقتل بعض أنصاره ،واعتقل بعضهم ،ومنهم أبومحمد حيث اعتقله صاحب غرناطة وسجنه حينا ثم أطلقه ... وعاد بعد ذلك الى قرطبة سنة ٤٠٩هـ بعد قيام القاسم بن حمود ... ثم بويع فى قرطبة لاموى جديد هو عبدالرحمن الخامس الملقب بالمستظهر ،وكان محبا للمفكرين والادباء فاستوزر بعضهم ومنهم أبو محمد الاأن المستظهر سقط بعد قليل ،وخلفه المستكفى ،فسجن ابن حزم حينا حتى سقط المستكفى ، وخرج من السجن فهاجر الى شاطبة فى شرق الاندلس وهناك ألف أعظم كتبه وأهمها (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) و (طوق الحمامة) . وبعد سقوط الخلافة الاموية نهائيا ،وساد عصر الطوائف ،اتجه ابن حزم للعلم وأكثر من التجوال بين اقاليم الاندلس لنشر مذهبه الظاهرى ... وقد أبحر ابن حزم الى جزيرة (ميورقة) وكان عليها أحمد بن رشيق نائبا عن مجاهد العامرى ،وفيها نشر علمه فكثر تلاميذه ،وأحدث ضجة علمية هائلة ... فتكتل كثير من الفقهاء ضده ،حتى نفر حاكم الجزيرة منه ،فاضطر الى ترك ميورقة ،وتوجه أخيرا الى اشبيلية حيث المعتضد بن عباد ... ولكن مقامه فى اشبيلية لم يطل ... حيث عاد الى موطن أسرته الاول فى اقليم لبلة وهناك قضى بقية حياته فى التعليم والتأليف ... وقد أحرق المعتمد بن عباد والى اشبيلية كتبه نتيجة تأثير الفقهاء الحانقين على ابن حزم ... ولكنه لم ييأس ،بل ظل يواصل رسالته العلمية الكبيرة حتى وافته المنية سنة ٤٥٦هـ بعد أن عاش أكثر من سبعين عاما . =

....

= له من المؤلفات جم غفير فى فنون مختلفة :
فقد ألف فى (الفقه والاصول) عدة كتب أهمها : الابطال بطفيه مذهبه الظاهرى ،وله أيضا (المحلى) وناقش فيه أصول المذهب الشافعى وله كذلك كتاب (الخصال) الذى ضاع قيل أنه كان شرحا لاصول المذهب المالكى .
ثم كتاب (الايصال) الذى اوجز فيه مابسطه فى كتاب (الخصال).
وله كتاب (الاخلاق والسير فى مداواة النفوس) وكذلك كتاب (جمهرة أنساب العرب) و (نقط العروس) .
وله رسائل كثيرة منها (رسالة فى فضل الاندلس) كما أن له فى التاريخ (الامامة والخلافة) ... وهناك مؤلفات يطول المقام بذكرها .
انظرترجمته فى :

١ – وفيات الاعيان لابن خلكان ٤٢٨/١ ومابعدها .
٢ – جذوة المقتبس – الحميدى رقم ٧٠٨ .
٣ – بغية الملتمس – الضبى – رقم ١٢٠٤ .
٤ – الذخيرة – لابن بسام ق١ م ١ ص ١٤٠ .
٥ – المغرب – لابن سعيد ٣٥٤/١ – ٣٥٧ .
٦ – المطمح – لابن خاقان ص ٥٥ – ٥٦ .
٧ – طبقات الامم – لصاعد الاندلسى ص ١١٧ –١١٩ .
٨ – الصلة لابن بشكوال ٣٩٥/١ .
٩ – المعجب – للمراكشى ص ٩٣ – ٩٧ . =

....

= ١٠ ـ النجوم" الزاهرة ٧٥/٥ ٠

١١ ـ تاريخ الحكماء للقفطى ص ١٥٦ ٠

١٢ ـ شذرات الذهب ٢٩٩/٣ ٠

١٣ ـ تذكرة الحفاظ ٢٤١/٣ ٠

١٤ ـ معجم الادباء لياقوت ٢٣٥/٢ ٠

١٥ ـ سير أعلام النبلاء للذهبى ١٨٨،٢/١١، ١٩٥ ٠

ثم انظر المراجع الحديثة وأهمها :

طبعات طوق الحمامة ،وترجمة ابن حزم لسعيد الافغانى من كتاب سير أعلام النبلاء فيجزء خاص ،وانظر ابن حزم صورة أندلسية للحاجرى ،وابن حزم لابى زهرة ،وابن حزم لعبد الكريم خليفة وعصر سيادة قرطبة لاحسان عباس ،والادب الاندلسى لاحمد هيكل وكذلك تاريخ النقد الاندلسى لرضوان الداية ،والحب فى الأدب العربى لمصطفى عبد الواحد ،ج ٢ ، وكذلك : دراسات الدكتورطاهر مكى عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ،وابن حزم الكبير لعمر فروخ وانظر ابن حزم وجهوده فى البحث التاريخى لعبد الحليم عويس ٠

هذا وقد ترجم (الطوق) الى الانجليزية والروسية والفرنسية والايطالية والاسبانية والبولندية ٠٠٠ اهـ

وأول هؤلاء الباحثين أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ فقد كان رائداً كعادته في هذا الموضوع . وقد تحدث في مقالة مشهورة عن النساء والقيان تحت عنوان " مفاخرة الجواري والغلمان" ...

وكان حديثه عن الحب متميزا مستمدا من منهجه في الكتابة فهو يجمع بين التسلية والمسامرة، والافادة والتعليم، ولقد عرض لهذا الموضوع في موضعين :

أولهما : في كتاب " الحيوان" حيث أفاض القول عن الجانب العلمي : فمنه مايحسن ويسعد، ويجمل، ومايكون في صالح طرف دون الآخر، فيؤدي الى الملل، والنفور والتعاسة، ووازن بين ألوان ممارسته عند الشعوب المختلفة، وبين المخلوقات غير الانسانية، وخلال ذلك كله يلقي بتجاربه، وملاحظاته، وهي مفيدة ومتقدمة، وتقع من العلم الحديث موقع الرضا، ويتحدث عنها صريحا لايتحرج ولايواري ولايكني وكتابه "الحيوان" وهو مما كتب في أواخر حياته، يعتبر وثيقة ثقافية عامرة بالمعارف الصادقة في هذا الباب ... (٢)

---

(٢) انظر " دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة" د.طاهر مكي ص ٢٨١ .

وانظر : ابن حزم الاندلسي ـ عبدالكريم خليفة .

وانظر : الحب في التراث ـ د. محمد حسن عبدالله .

ولأبى عثمان أيضا رسالة فى " العشق والنساء" وهى عبارة عن مقتطفات من كتاب لم يكن الجاحظ راضيا عنه كل الرضا . (٣)

وكان يرى أن المرأة أرفع حالا من الرجل فى أمور منها " أنها هى التى تخطب وتعشق ،وتطلب ،وهى التى تفدى وتحمى ... ونحو ذلك ... " .

ويتحدث الجاحظ عن المثل الاعلى فى الجمال عند النساء فيقول عن البصراء بجواهر النساء أنهم " يقدمون المجدولة والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة ولابد من جودة القد ،وحسن الخرط،واعتدال المنكبين واستواء الظهر،ولابد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة وانما يريدون بقولهم مجدولة : جودة العصب ،وقلة الاسترخاء وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول ،ولذلك قالوا : خمصانة وسيفانة ،وكأنها جان ،وكأنها : جدل عنان،وكأنها قضيب خيزران ،والتثنى فى مشيها أحسن مافيها ،ولايمكن ذلك من الضخمة والسمينة ،وذات الفضول والزوائد على أن النحافة فى المجدولة أعم ،وهى بهذا المعنى أعرف ،وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور،فقالوا : أعلاها قضيب وأسفلها كثيب " . (٤)

---

(٣) هذه الرسالة قصيرة جدا لاتتجاوز عشر صفحات فى طبعة حسن السندوبي لمجموعة رسائل الجاحظ ـ القاهرة ١٣٥٢هـ .
انظر دراسات عن ابن حزم ـ طاهر مكى ص ٢٨١ .

(٤) انظر دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ص ٢٨٣ .

ثم تحدث عن الحب ودوره فى حياة الناس ،ومايمليه من مواقف ومايفرضه من سلوك ... (٥) ويقسم الحب الى مراتب ثلاث: الحب ،والهوى ،والعشق ،ويعلق على ذلك بقوله :" فتأملنا شأن الدنيا ،فوجدنا أكبر نعيمها ، وأكبر لذاتها : ظفر المحب بحبيبه ،والعاشق بطلبيه ... " (٦) . فهى فى نظره سعادة لاتعدلهـا سعادة .

وللفيلسوف العربى أبى يوسف يعقوب الكندى المتوفى سنة (٢٥٣هـ) رسالة فى العشق ،ولكنها ضاعت شأن مؤلفاته الاخرى ... ولعل هذه الرسالة استقرت مترجمة الى اللاتينية فى خزانة كتب مغمورة فى جانب من أوروبا ... (٧)

وهناك كتابات فى هذا المجال كتبها : أحمد بن الطيب السرخسى المتوفى سنة ٢٨٦هـ وهو تلميذ الكندى .

وللشاعر الخليفة العباسى أبى العباس ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ كتاب فى العشق (٨) ولكن ليس لدينا معلومات كافية عنه .

---

(٥) انظر : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ص ٢٨٣ .

(٦) انظر : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ص ٢٨٤ .

(٧) نفس المصدر ص ٣٨٣ .

(٨) ذكر ذلك الاستاذ هلال ناجى نقلا عن صلاح الدين المنجد وأن مخطوطة الكتاب موجودة فى مكتبة طشقند فى الاتحاد السوفييتى . انظر دراسات الدكتور مكى عن طوق الحمامة ص ٢٩٨

ثم جاء محمد بن داود الظاهري المتوفى سنة ٢٩٦هـ وألف كتابه المشهور " الزهرة" وهو بهذا الكتاب يعتبر مؤسس (٩) اتجاه جديد في دراسة الحب ،وقد كان ابن داود عالما وأديبا ... حاد العاطفة ،يقول عن نفسه " ما انفككت عن هوى منذ أن دخلت الكتاب . " ...

وقد بدأ تأليف كتابه هذا،وهو ابن ستة عشر سنة ...ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة مسجوعة ،ثم عرض لمنهجه ،فذكر أنه :استودعه مائة باب ،ضمن كل باب مائة بيت ... ذكر في الخمسين بابا الاولى منها : جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله ،وجعل الابواب المنسوبة الى الغزل أمثالا ،ورتبها على ترتيب وقوعها حالا فحالا،فقدم وصف الهوى وأسبابه ،وبسط ذكر الاحوال العارضة فيه بعد استحكامه ... من الهجر والفراق ،وماتوجبه غلبات التشوق والاشفاق ،ثم ختمها بذكر الوفاء بعد الوفاة بعد أن أتى على ذكر الوفاء في الحياة ووضع لكل باب عنوانا مسجوعا ،مثالا محكما ،يومئ الى محتواه ،مثل " من كثرت لحظاته ،دامت حسراته العقل عند الهوى أسير ،والشوق عليهما أمير،من تداوى بدائه

---

(٩) انظر الحب في التراث العربي - د. محمد حسن عبدالله .
وانظر : دراسة الحب في الادب العربي - مصطفى عبدالواحد
ط ١ دار المعارف بمصر ١/٤٥ ومابعدها .

لم يصل الى شفائه ، ليس بلبيب من لم يصف مابه لطبيب ،اذا صح الظفر وقعت الغير ...

هذا ويحتوى الكتاب على خمسين بابا أخرى فى أفانين الشعر وقد أشار الى منهجه فيها عند نهاية القسم الاول ،وجاءت أبوابه على النحو التالى :

" ماقيل فى تعظيم الله ،مامدح به النبى،وما استشهد به وأنشد بين يديه،وماقاله شعراء الاسلام فى أهل بيت النبى ،مراثى الملوك والسادات ،وأهل الفضل والرياسة ،نوح الاهل والاخوان على مافقدوه من الشجعان ،ذكر النوح على من مات من الابناء والقرابات ذكر من جزع فاحتاج الى تعزية أوليائه ،ومن رزق الصبر فاستغنى بحسن عزائه ،ذكر التزهيد فيما يفنى ،والترغيب فيما يبقى ،ذكر أشعار الظرفاء من الملوك والخلفاء ... ويستمر المؤلف فى سرد أبواب النصف الثانى على هذا النحو ... وكما نلاحظ أن هذا القسم ليست له صلة بموضوع العشق ،وانما هى مختارات شعرية تتناول قضايا عامة ،مما يدور حولها الشعر العربى عادة ...

وقدتعرض بعض المستشرقين لقراءة هذا الكتاب ... فنال اعجابهم ... ومن هؤلاء المستشرق الفرنسى " ماسينيون" فى كتابه "محنة الحلاج" فوصف كتاب الزهرة بأنه رائع عن الحياة العاطفية فى تلك الايام ،ومعرض غنى بآراء المفكرين ،والادباء فى بغداد وماكان يدور بأذهانهم عن موضوع الحب ... " ... ويمكن القول

بأنه أول مجموعة من الشعر تدور حول الحب العذرى ،قيلت في اللغة العربية فى بغداد خلال القرن الثالث الهجرى .

وعندما وصل هذا الكتاب الى قرطبة فى أثناء خلافة الحكم الثانى (٣٥٠ – ٣٦٦هـ) كان منطلقا لابن فرج الجيانى ،عندما ألف كتاب " الحدائق" وهو مختارات من شعر الاندلسيين نحا فيه منحى ابن داود فى كتابه "الزهرة" ... وقلده فى منهجه فجعل "الحدائق" فى مائتى باب ،يضم كل باب مائتى بيت من الشعر ،ليس منها بأب تكرر اسمه لابى بكر ،ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئا . (١٠)

ثم كتب " اخوان الصفا" (١١) رسالة فى (الحب) تسمى "ماهية العشق " وقد كان لهم فلسفة فى الحب هى مزيج من حضارة العرب وتراث الاغريق ،مستمدين تفسيرهم من التعليلات الاسطورية

---

(١٠) انظر : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ص ٢٨٥ومابعدها
وانظر : الحب فى الادب العربى – مصطفى عبد الواحد ج ١
وانظر : ابن حزم الاندلسي – عبد الكريم خليفه ،ص ١٨٨ .
وانظر : الحب فى التراث – د. محمد حسن عبدالله ص ٤٨،٤٩ .
وانظر : رسائل ابن حزم – د. احسان عباس ٢٨/١ .

(١١) (اخوان الصفا) هى مدرسة فلسفية ازدهرت فى البصرة قريبا من نهاية القرن العاشر حوالى القرن الرابع ،وكانت لهم اتجاهات سياسية ودينية ذات ميول شيعية وقد كتبوا مجموعة من الرسائل مرتبة على غرار الموسوعات ،وبعض المقالات وتبلغ عدتها اثنتين وخمسين رسالة تعالج الرياضيات والفلك والجغرافيا،والموسيقى والفلسفة ... وفيها عرضوا للعشق ومحبة النفوس . انظر د. مكى ص ٢٢٩،٣٠٠ .

أو التنجيم ،فيعللون مثلا محبة شخص لآخر دون سائر الاشخاص باتفاق فلكى بينهما فى أصل مولدهما ،وأما تغيير العشق بعد ثباته زمنا طويلا فهو نتيجة تغير أشكال الفلك، أما محبة النساء للرجال وعشقها فذلك لايقتصر على النوع البشرى وانما هو فى طباع أكثر الحيوانات " التى لها سفاد" . والغرض من محبتها (بقاء النسل وحفظ الصورة فى الهيولى بالجنس " ... وقد حشدوا فى رسائلهم طرفا من أقوال الحكماء والفلاسفة فى الحب ،والاسباب الداعية اليه ،والغرض الاقصى منه ،ووقفوا عند الحكماء الذين ذموا العشق ،وذكروا مساوئ أهله وقبح أسبابه ،ومازعموا من رذيلة فيه وعند الحكماء الذين قالوا : ان العشق فضيلة نفسية فمدحوه وذكروا محاسن أهله ... وعند أولئك الذين لم يعرفوا أسراره وعلله ،وأسبابه ... فزعموا أنه مرض نفسى أو جنون ... أو همة نفس فارغة ... واخوان الصفا أنفسهم يرون أنه هوى غالب فى النفس نحو طبع مشاكل فى الجسد أو نحو صورة مماثلة فى الجنس ... ثم تعرضوا للعشق الصوفى وفسروه بأنه تنبيه النفوس من الغفلة ورقدة الجهالة ،ورياضة لها ،وتعريج بها ،وترقية من الامور الجسمانية المحسوسة الى الامور النفسية المعقولة ... " (١٢) فكانت

---

(١٢) انظر : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ـ د. مكى ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

وانظر : فاروق سعيد ـ طوق الحمامة ص ٤٥ .

وانظر : عبدالكريم خليفة ص ١٨٨ .

وانظر : مجموعة رسائل ابن حزم ـ احسان عباس ١/ ٣٠، ٣٣ .

دراستهم للحب فلسفية ممزوجة بخطرات علمية ونفسية ووقفوا وقفوا عند نزعة الحب والاسس النظرية التى تقوم عليها هذه النزعة .

وممن تناول موضوع الحب المؤرخ المشهور أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ صاحب " مروج الذهب" وكان حديثه ضمن كتابه هذا حول " تنازع الناس فى ابتداء وقوع الهوى ،وكيفيته ،وهل ذلك من نظر وسماع ،واختيار ،واضطرار ،وماعاد وقوعه بعد أن لم يكن ،وزواله بعد كونه ،وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه ... " (١٣)

وقد ذكر المستشرق " جوستاف قرونباوم" فى طبعة باريس من هذا الكتاب حديثا مفعلا عن مجلس فى قصر يحيى بن خالد البرمكى ضم اثنى عشر (١٤) مسلما وموبذا واحدا ،قدم كل منهم رأيه فى

---

(١٣) انظر دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ـ د. مكى ص ٢٧٧ وكذلك المراجع الآنفة الذكر .

(١٤) هؤلاء الاثنى عشر كما ذكرهم المسعودى هم : على بن الهيثم وابو مالك الحضرمى ـ ومحمد بن الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ)وهشام ابن الحكم الكوفى ت نحو (١٩٠هـ) وابراهيم بن سيار النظام آبو اسحق (ت ٢٢٠ ـ ٢٣٠هـ) وعلى بن منصور والمعتمر بن سليمان بن طرخان أبو محمد (ت ١٨٧هـ) وبشر بن المعتمر أبو سهل (ت ٢١٠هـ) وثمامة بن أشرس النميرى (ت ٢١٣هـ) والسكال أو السكاك من الامامية (ت ٢٣٦هـ) والصباح بن الوليد من المرجئة وابراهيم بن مالك فقيه بصرى قيل أنه توفى سنة (٢٦٤هـ) واخيرا الموبذ قاضى المجوس . ينظر فى ذلك مانقله د. مكى عن المسعودى ص ٢٧٨،وكذلك احسان عباس فى رسائل ابن حزم ص ٢٦، ٢٧ .

طبيعة العشق فى جمل محكمة تتفق جوهرا،وان اختلفت شكلا وتركيبا وجملة ماراوا :"أن الحب ثمرة المشاكلة بين المحب والمحبوب ولايكون الا بازدواج النفسين ،وامتزاج الشكلين ،وهو دليل على تمازج الروحين ... ومن اعتدال فى الصورة ،وتكافؤ فى الطريقة وملاءمة فى الهمة ،ويتخلل فى القلب كما تتخلل قطرات المطر بين ذرات الرمل ... وهو سحر أخفى وأحر من الجمر ،والمحب جواد مشرق الطبيعة،فائق الشمائل وينبعث من تجانس الارواح ،نور ساطع تهتز الاشراقة من طبائع الحياة فيصير من اللمح نور خالص لاصق بالنفس،متصل بجوهريتها ،يسمى عشقا ثم يُعَرِّف العشق : بأنه نار تتأجج فى القلب يعقد اللسان ،وبه يصبح المحب عبدا مملوكا ،ولاينجع فيه علاج ،والافراط فيه يحطم الجسد،ويعانى المحب من اللوعة والارق ،" صومه البلوى ، وافطاره الشكوى" ... وهو أشرف سبب للفناء ... (١٥)

ومن عاصر ابن داود وكتب فى الحب : محمد بن أحمد بن اسحاق الوشاء (١٦) أبو الطيب (٢٨٩ ـ ٣٥٩هـ) صاحب كتاب " الموشى"

---

(١٥) دراسات عن ابن حزم ـ د. مكى ص ٢٧٨ .

(١٦) أشار اليه د. مكى فى ص ٢٩٧ وتناوله "جارثيا قومث" بحديث مطول أورده د. مكى فى ص ٣٠٧ تحت عنوان " كتاب سبق طوق الحمامة وكتاب جاء بعده" نقلا عن مجلة الاندلس المجلد١٦سنة ١٩٥١ ص ٣٠٩،٣٣٠ ،من المجلة نفسها . انظر د. مكى ص ٣٠٧ المرجع الآنف الذكر .

وشهر باسم " الظرف والظرفاء" وله كتاب آخر يشى عنوانه بأن لـــه صلة بالموضوع واسمه " أخبار المتظرفات " .

ويعرض ابن اسحق الوشاء فى كتابه (الموشى) لاخبار أهل العشق وملحهم ،وأحوال المتيمين وطرائقهم،ومسالك الهوى وشياتـــه ... ويقدم تحليلا نفسيا للحب العذرى ... ويذكر حب القيان ،ويستشهـد على ذلك كله بنصوص فى الحب وأهله ،وقصائد لاهل الغزل شديـــدة الروعـــة .

وهو بذلك قريب الشبه بكتاب (الزهرة) لمحمد بن داود .

وربما كانت روحه أدنى الى كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم ...

يقول عنه " بروكلمان" فى دائرة المعارف الاسلامية : يعتبـــر كتاب (الموشى) لمحمد بن أحمد بن اسحق الوشاء " دليلا للحيـــاة الانيقة فى عالم بغداد العظيم " واعتبره " آدم ميتز" فى كتابـــه "نهضة الاسلام " سجلا للاخلاق الفاضلة ... وقائمة بقوانين السلـــوك المهذبة .

ولمحمد بن جعفر الخرائطى (٣٢٧هـ) كتاب فى " الحب" أيضـــا يسمى " اعلال القلوب " فى أخبار العشاق ،وهو مخطوط . (١٧)

ولمحمد بن عمر المرزبانى (٣٨٤هـ) كتاب اسمه " الرياض" فـــى أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين ،والاسلاميـــين

---

(١٧) انظر : الحب فى التراث ـ د. محمد حسن عبدالله ص ٤٩ .

والمحدثين ،وله أيضا : كتاب أشعار النساء • (١٨)

ولأبى اسحق ابراهيم بن على بن تميم الحصرى القيروانى المتوفى سنة ٤١٣هـ كتاب فى هذا الموضوع مازال مخطوطا تحت عنوان "المصون فى سر الهوى المكنون" • (١٩)

ويلج فى هذا المجال ابن سينا (٤٢٨هـ) (٢٠) وقد جاء بعد ابن داود وقبل ابن حزم ،فكتب رسالة فى " العشق" وهى لم تنل حظا من الدراسة والشهرة فى العالم العربى •• ولكنها وجدت عناية كبيرة فى العالم الغربى ••• فعندما تحدث الاب " اسكندر دينومى" عن الاصول العربية للحب العفيف فى الغرب بعامة ،وعند شعراء التروبادور بخاصة ،ذهب الى أن هذه الاصول يجب البحث عنها فى الفلسفة العربية ،وبالدقة عند ابن سينا فى رسالته فى "العشق" فقد أعطى للحب البشرى ، أى العشق القوى الحيوانية دورا ايجابيا ••• وليس فى رسالة ابن سينا هذه مايوحى بأنه يقيم أساسا فلسفيا للحب العذرى ،وليس فيها شاهد واحد على أنه

---

(١٨) انظر : الحب فى التراث ـ د• محمد حسن عبدالله ص ٤٩ •

(١٩) يقوم بتحقيق هذا الكتاب طالب تونسى فى جامعة الزيتونة ونشر بحث فى مجلة الفيصل عنوانه " مقارنة بين طوق الحمامة وكتاب المصون فى سر الهوى المكنون لابى اسحق الحصرى" للدكتور محمد سعد الشويعر ص ١٦ ـ ٢١ السنة الاولى ، عدد ١٠

(٢٠) انظر دراسات عن ابن حزم ـ د• مكى ص ٣٠٤ •

كان يوجه النظر الى الادب ،بل ان الاحكام الدقيق فى عرض آرائه ينبىء بأنه كان يطبق مبدأه العام فى النفس وأجزائها على مشكلة أو ظاهرة بعينها،ويحاول أن يجد لها مكانها الصحيح فى نظامه الفلسفى . (٢١)

وهناك كتب موسوعية تناولت هذا الموضوع ... كتب بعضها فى فترة باكرة ... وربما تكون هى المصادر لما كتب بعدها ومنها " عيون الاخبار" لابن قتيبة (٢٧٦هـ) فقد ورد فى هذا الكتاب عناوين صريحة نحو : " كتاب النساء فى أخلاقهن وخلقهن ومايختار منهن ،ومايكره" .

ومنها : " العقد" لابن عبد ربه (٣٢٨هـ) فقد كتب ضمن عقده"كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن". (٢٢)

هذا وتجدر الاشارة هنا الى ذكر الذين آلفوا فى الحب بعد ابن حزم ... وأولهم : جعفر ابن السراج (٥٠٠هـ) (٢٣) وقد آلف كتابا سماه " مصارع العشاق " وألف ابن الجوزى كتابه المشهور "ذم الهوى" ... ثم كتب أحمد بن سليمان الكسائى مؤلفا سماه

---

(٢١) انظر : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ـ د. طاهر مكى ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .

(٢٢) انظر : الحب فى التراث ص ٥١ ـ ٥٣ .

(٢٣) قدم لكتاب ابن السراج د. مصطفى عبدالواحد فى دراسة شاملة فى كتابه "دراسة الحب فى الادب العربى " ص ٣١١ومابعدها .

"روضة العاشق ،ونزهة الوامق" وهو مخطوط ... وكتب شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد (٧٢٥هـ) (٢٤) كتابا أسماه " منازل الاحباب ومنازه الالباب " وهو مخطوط أيضا ... وألف العالم الكبير ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) كتابه المشهور " روضة المحبين ونزهة المشتاقين" .
وهناك كتاب للمؤرخ الحافظ أبي عبد الله الحنفي ((مغلطاي بن قليج)) ت (٧٦٢هـ) عنوانه "الواضح المبين فى ذكر من استشهد من المحبين " وهو مخطوط ... وهناك ديوان يسمى : " ديوان الصبابة" ألفه ابن أبي حجلة (٧٧٦هـ) وألف ابراهيم بن عمر الرباط البقاعى (٨٨٥هـ) كتابا مخطوطا ،وهو اختصار لمصارع العشاق أسماه : " أسواق الأشواق" ثم داود الانطاكى الطبيب الضرير (١٠٠٨هـ) صاحب كتاب : " تزيين الاسواق فى أخبار العشاق " ... ثم مرعى بن يوسف (١٠٣٣هـ) مؤلف "منية المحبين وبغية العاشقين" ... وأخيرا كتاب لرجل يدعى "السلاطى" وهو كتاب " صبابات المُعانى ،وصبابات المعانى " .(٢٥)

تلك هى أهم المصادر التى تناولت موضوع الحب بعد أبى محمد ابن حزم .

وأما الكتب الموسوعية المتأخرة التى تناولت موضوع الحب ... ففى مقدمتها كتاب " محاضرات الادباء" للراغب الاصفهانى (٥٠٢هـ)

---

(٢٤) وذكر الزركلى رسالة لشهاب الدين هذا تسمى " مقامة العشاق" الأعلام ١٧٢/٧ ،نقلا عن كتاب الحب فى التراث العربى /د.محمد حسن عبدالله.

(٢٥) انظر "الحب فى التراث " ص ٤٩ - ٥٠ .

فقد عقد فصلا تحت عنوان " فى الغزل ومايتعلق به " ... ونجد فى "التمثيل والمحاضرة" لابى منصور الثعالبى (٣٥٠ - ٤٢٩هـ) أمثالا سائرة وأبياتا شاردة عن النساء والعشاق ...

وفى "نهاية الأدب للنويرى" (٧٣٣هـ) الجزء الثانى - تناول شيئا مما يتعلق بالادوية والعقاقير المقوية للباه .

وكتب القلقشندى فى " صبح الاعشى" (ت ٨٢١هـ) فى جزئه الثانى شيئا مختصا بالصفات المستحبة المشتركة بين الرجال والنساء جسميا وخلقيا، ومايتفرد به الرجال، وماتنفرد به النساء ... (٢٦)

وهناك كتب أخرى تناولت الموضوع فى نتف يسيرة، تعبر عن آراء أصحابها منها : " كتاب المحاسن والاضداد" المنسوب للجاحظ وكتاب " أخبار النساء" المنسوب الى ابن القيم ...

أضف الى ذلك كتب القصص والنوادر التى تناولت " الحب " نحو كتاب " الفرج بعد الشدة" للقاضى التنوخى (٣٨٤هـ) .

تلكم هى أهم المصادر التى ألفت فى موضوع الحب قبل "الطوق" وبعده فى اللغة العربية . (٢٧)

أما فى الغرب فلعل أول من تناول هذه القضية " أفلاطون" فى " مأدبته" فهو يذهب بالحب الى اتجاهين : اتجاه مادى جنسى

---

(٢٦) انظر : الحب فى التراث ص ٥١ ومابعدها .

(٢٧) انظر : الحب فى التراث ص ٤٩ ومابعدها .

قائم فى تلك الغاية لتوليد أجسام تعمل لخدمة المجتمع ... واتجاه ميتافيزيقى يتمثل فى الرغبة باعطاء أرواح تسمو الى الرب ... ثم يذهب أفلاطون من توحيد هذين الاتجاهين الى تجريدات ميتافيزقية خالصة يصل منها الى الجمال كمثال أزلى كامن فى المقام الالهى يعجز عن الوصف ،وتقف دونه طاقة الخيال والتصور ... ومن هنا التمازج والتوازى بين نظرة أفلاطون فى الحب ونظرته فى المعرفة . فالمحبوب بالنتيجة غير كائن فى الجسد الزائل بل هو مثال الجمال،ومن ثم فالمحبوب ليس هو المحبوب فى ذاته ولذاته ،بل لماهيته كمثال للجمال ... ومن هنا وقف أفلاطون دون الاحاطة ببساطة الحب العادى على حد رأى " جان جيتون" فى كتابه " الحب الانسانى " . (٢٨)

وفى الادب الرومانى كتب " أوفيديوس " كتابا أسماه " فن الحب " ... وهو يعطى دروسا ماجنة فى كيفية الحظو بحب المرأة ،واكتساب المرأة مودة الرجل ثم يستدرك فى كتاب آخر سماه " فى علاج الحب " ليعطى نصائح فى كيفية الخلاص من الحب متوسلا الى ذلك باظهارعيوب المرأة الجسدية ونقائصها الخلقية حتى يقضى على " وله المحبين البله"(٢٩)يعلق الدكتور غنيمى هلال

---

(٢٨) انظر طوق الحمامة ــ ت : فاروق سعد ص ٤٤ ومابعدها .

(٢٩) انظر طوق الحمامة ــ ت : فاروق سعد نقلا عن غنيمى هلال فى كتابه فى الادب المقارن ط ٣،ص ٢٠٥،دار العودة والثقافة بيروت .

على ذلك فيقول : " ويظهر من كتابيه السابقين أن الحب مجـــون ودعابة ولاجد فيه " ٠ (٣٠)

وهناك كتاب أوربيون متأخرون تناولوا القضية ،نذكرمنهم علـى سبيل المثال " دنى ده روجمون" فقد كتب عن الحب كظاهرة وسمـت الثقافة الاوربية بأبرز طوابعها وأخصها ٠ ظل سنوات يبحث عـن ذلك "اللغز" الذى جعل لفظة الحب لم تكسب معناها كعاطفة وهـوى الا فى القرن الثانى عشر الميلادى عندما أدخل هذا المعنـى الشعراء المتجولون (التروبادور) فى شعرهم ٠ وأخيرا وجد حـلا لهذا اللغز لم يلبث أن أعلنه ٠٠ فكتب " لعشرين سنة خلت كـان هذا اللغز مغلقا،أما اليوم فقد وجدنا له حلا : ان مفتاح حلـه هو الشعر العربى الذى ذاع فى القرن الحادى عشر فى الاندلـس وخاصة فى قرطبة التى كانت مهدا لمذهب شعرى نبغ فيه ابن حـزم وابن قزمان ثم المعتمد الاشبيلى ،فاشتهروا فى العالم العربـى وامتد صيتهم حتى بغداد ٠٠٠ ثم يقول :" من هذا الشعر العربـى قد استعار " غيوم دى بواتيه" وتلاميذه الصيغ والمواضيع والتقنية حتى وأنغام أغانيهم ٠٠٠ وقد أيدت هذه النظرية الابحاث التاريخية

---

(٣٠) انظر " فى الادب المقارن" د٠ هلال ص ٢٠٥،وللتوسع ينظـر كتابته عن " فن الحب " والذين تناولوه فى ص ٢٠٣ ومابعدها وانظر رسائل ابن حزم ـ احسان عباس ص ٢٣ ومابعدها٠

والادبية والفلسفية العديدة التى حملت الينا من خلال السنوات العشرين الاخيرة الادلة والبراهين المفصلة الحاسمة ... " (٣١)

ومجمل القول فى هذه المؤلفات التى تناولت (قضية الحب) قبل (الطوق) وبعده أنها تتفق كلها فى خصلة مشتركة : هى تناول هذه الظاهرة من الخارج بعيدا عن الخبرات الشخصية والمعاناة النفسية الا فى الندرة النادرة وهى تتلون بالطابع الثقافى والمنطلق الفكرى لكل مؤلف ...

فمنها ماغلب عليه الاتجاه الفلسفى مثل كتابات أفلاطون وابن سينا واخوان الصفا ،ومن لف لفهم ...

ومنهم من غلب عليهم الاخبار والنقول والاستطراد،واضفاء شىء من مسحة علمية،مثل الجاحظ والمسعودى .

ومنهم من غلب عليه روح التقسيم والخبر ممزوجا بملامح اغريقية واضحة وشىء من الخبرات الشخصية ... بالاضافة الى ثروة بالغة الروعة من اشعار الصبابة مع مسحة عاطفية حيية،ومنطلق دينى ورع ،ويظهر ذلك فى كتاب " الزهرة" لمحمد بن داود ،وكتاب "الموشى" للوشاء على تفاوت بينهما فى الخصائص السالفة .

---

(٣١) انظر : فاروق سعد ص ٤٢ نقلا عن (ده روجمون) من مقال "الحب فى الشرق والغرب" مجلة الحوار، بيروت ،العدد الثانى ، كانون الثانى ١٩٦٣م .

ومنهم من غلب على كتابته النقول والحشد والاتباع والافـــادة من الغير،والاستطرادات ... ويظهر ذلك فى كتابات ابن الســراج والخرائطى والمرزبانى والحصرى .

ومنهم من غلب على كتابته فى هذا الموضوع روح دينية ورعـة ولهجةوعظية زاجرة مثل ابن الجوزى فى كتابه (ذم الهوى) وابـن القيم فى كتابه (روضة المحبين) . بل منهم من وقف جهده علـى اختصار بعض كتب الحب مثل ابراهيم بن عمر البقاعى الذى اختصـر كتاب " مصارع العشاق " لابن السراج فى كتاب له أسماه " أســواق الاشواق " .

ومنهم مناتجه فى الكتابة عن هذه القضية وجهة علمية مثـل الكاتب الرومانى " أفيدوس" فى كتابيه " فى فن الحب " و " فـى علاج الحب " والمؤلف العربى الطبيب الضرير داود الانطاكى فى كتابه "تزيين الاسواق فى اخبار العشاق " .

وبعد ،فما مدى تأثر ابن حزم فى تناوله قضية الحب فـى كتابه " طوق الحمامة" بمن عالج الموضوع قبله ...؟

ومامدى تأثيره فيمن جاء بعده ؟

للاجابة على هذا يجب أن نستعرض أولامحتويات كتاب " طـوق الحمامة" . وهذا ماسنفعله فى الفصل الثانى تحت عنوان " تجـارب ابن حزم العاطفية" ومن ثم يتيسر لنا ان شاء الله الاجابة علـى ذلك فى الفصل الثالث الذى نعقده تحت عنوان " الخصائص الفنيـة والفكرية لكتاب طوق الحمامة" .

الفصل الثاني

تجارب ابن حزم الذاتية

و

تحليله النفسي لعاطفة الحب وشخصيات المحبين

أودع أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم كتابه (طوق الحمامة) نبضات قلبه،وهمسات نفسه عن قضية الحب فى صدق وصراحة تدعو الى الاعجاب ذلك لانه يملك رصيدا ضخما من الاسرار الخفية والمدركات الدقيقة التى لم تتهيأ اسبابها لغيره ... وهو بادىء ذى بدء يكشف السر فى ذلك فيقول :

" ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى... لانى ربيت فى حجورهن ،ونشأت بين أيديهن ،ولم أعرف غيرهن ،ولا جالست الرجال ،الا وأنا فى حد الشباب ، وحين تفيل وجهي وهن علمننى القرآن وروينني كثيرا من الاشعار ،ودربننى فى الخط ولم يكن وكدى ، واعمال ذهنى أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدا الا تعرف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك ،وأنا لا انسى شيئا مما أراه منهن ،وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن فى جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل " (١) .

ثم يقول : " ولم أزل باحثا عن أخبارهن ، كاشفا عن أسرارهن وكن قد أنسن منى بكتمان ، فكن يطلعننى على غوامض أمورهن ،ولولا أن أكون منبها على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن

---

(١) انظر طوق الحمامة ـ ت د . مكى ،ص ٧٩ .

فى الشر،ومكرهن فيه ،عجائب تذهل الالباب ... " (٢)

وهكذا ارتبط الصبى على بن أحمد بن سعيد بالمرأة مبكرا وجعلت عاطفته تنمو وتتطور وفقا لسنى عمره ... ومن هنا شعر بدقات الحب بقلبه فى مرحلة متقدمة من حياته وجعل يرصدها رصدا دقيقا فى حكايات قصيرة عامرة بنبض الحياة ،وحرارة الواقع ... فلنستمع اليه يحدثنا عما يظن أنه أول حب وقع له فى صباه وكان مع جارية شقراء الشعر،فيقول مؤكدا واقعية القصة " وعنى أخبرك أننى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر،فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر،ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه ،وانى لاجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ولاتؤاتينى نفسى على سواه ،ولاتحب غيره البتة ..." . (٣)

وهذه أيضا قصة واقعية يرويها لنا ... وقعت له أيام صباه مع جارية نشأت فى دارهم ... تتمتع بجمال باهر،وأخلاق عالية تجيد الضرب على العود،وتحسن الغناء ... يقول : " وانى لاخبرك عنى أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة،جارية نشأت فى دارنا وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما،وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها،وعفافها ،وطهارتها،وخفرها،ودماثتها،عديمة الهزل ،منيعة

---

(٢) انظر طوق الحمامة ـ ت د. مكى ص ١٦٥ .

(٣) طوق الحمامة ص ١٢٤ .

البذل ،بديعة البشر ،مسبلة الستر،فقيدة الذام ،قليلة الكلام مغضوضة البصر،شديدة الحذر،نقية من العيوب ،دائمة القطوب ،حلوة الاعراض مطبوعة الانقباض ،مليحة الصدود،رزينة القعود،كثيرة الوقار،مستلذة النفار،لاتوجه الاراجي نحوها ،ولاتقف المطامع عليها ولامعرس للامل لديها فوجهها جالب كل القلوب ،وحالها طارد من أمها ،تزدان فى المنع والبخل،مالايزدان غيرها بالسماحة والبذل موقوفة على الجد فى أمرها ،غير راغبة فى اللهو ..." .

فتأمل هذه الصفات التى أسبغها عليها ،وهذه الديباجة التى كساها بها ،مما يدل دلالة واضحة على شدة ولوعه بها ،ومدى اخلاصه لها ،لدرجة أنها اكتسحت كل من معها من الجوارى ،وفاقت كل الحسناوات ... وماذلك الا لأن ابن حزم اذا أعجب أفرط فى الاعجاب ... وكان من أسباب هذا الاعجاب ،والحب الشديد كما يقول (أنها كانت تحسن العود احسانا جيدا ... فجنحت اليها ،وأحببتها حبا مفرطا شديدا ،فسعيت عامين أو نحوهما ،أن تجيبنى بكلمة وأسمع من فيها لفظة ،غير مايقع فى الحديث الظاهر الى كل سامع ،بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك الى شىء البتة ..." . وكان يحاول أن يقابلها لينظر اليها ،ويأنس بقربها فى " مصطنع " فى دارهم يجتمع فيه بعض نسائهم وأقاربهم ... ثم يعيد المحاولة فى النظر اليها ،فيقصد نحو الباب الذى هى فيه أنسا بقربها متعرضا للدنو منها ،فما هو الآن تراه على مقربة منها ،فتترك

ذلك الباب وتقصد غيره فى لطف ورقة ،ويعيد الكرة كما يقول :

" فأتعمد أنا القصد الى الباب الذى صارت اليه فتعود الى مثل ذلك الفعل من الزوال الى غيره .." ثم يقول : " وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ،لانهن كن عددا كثيرا ،واذا كلهن يتنقلن منباب الى باب لسبب الاطلاع من بعض الابواب على جهات لايطلع من غيرها عليها ... " (٤) وكانت على يقين بحبه لها من غير حاجة الى تصريح،او بوح ... وهذا هو شأن النساء فى مثل هذه الاشياء ... يقول : " وأنا أعلم أن قيافة النساء فيمن يميل اليهن أنفذ من قيافة مدلج الآثار ..." ثم يتحدث عن أثر غنائها فى نفسه ،ووقعه فى قلبه كما يعكسه هذا الخبر " رغب عجائزنا وكرائمنا الى سيدتها فى سماع غنائها فأمرتها فأخذت العود وسوته بخفروخجل لاعهد لى بمثله ،وان الشىء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه ،ثم اندفعت تغنى ... فلعمرى لكأن المضراب انما يقع على قلبى ،ومانسيت ذلك اليوم ولاأنساه الى مفارقتى الدنيا،وهذا أكثر ماوصلت اليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها ..." وينقطع عنها فترة من الزمن لنكبة ألمت به حتى صار فى احد الايام عندهم جنازة لبعض أهله ... وكانت هذه الجارية ترفع صوتها بالبكاء ... وهى فى جملة البواكى

---

٤) ص ١٤٦ .

والنوادب ... ولم يشغله الموقف الحزين عن تذكر أيامه التى مضت ،وهو يتابعها فى " المصطنع" من باب الى باب ... استمع اليه يقول : " فلقد أثارت وجدا دفينا ،وحركت ساكنا ،وذكرتنى عهدا قديما ،وحبا تليدا ،ودهرا ماضيا ،وزمنا عافيا ،وشهوراخوالى وأخبار بوالى ،ودهورا فوانى ،وأياما قد ذهبت ... وآثارا قد دثرت ،وجددت أحزانى ،وهيجت بلابلى ،على أنى كنت فى ذلك النهار مرزأ مصابا من وجوه وما كنت نسيت ولكن زاد الشجر وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الاسف ،واستجلب الوجد ماكان منه كامنا فلباه مجيبا ... " (٥) هذا ماكان من قصته معها وهى فى نضارة شبابها وله معها لقاء وقد تغير حسنها ،وذهبت ملامح بهجتها ،وذلك لتبدل الاحوال فقد عدمت كما يقول " الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا ،وامتداد ظلنا ..." ومع ذلك فهو يتحسر عليها وعلى تلك الايام الجميلة التى حرم فيها من تمكنه من وصلها فيقول فى ذلك : " وانى لو نلت منها أقل الوصل وأنست لى بعض الانس ،لخولطت طربا ،أو لمت فرحا ،ولكن هذا النفار الذى صبرنى وأسلانى ... " . (٦)

ويروى لنا قصة مع جارية نشأ معها فى الصبا ،وقد غاب عنها

---

(٥) طوق الحمامة ص ١٤٨ .

(٦) طوق الحمامة ص ١٤٨ .

أعواما كثيرة ،ثم ضمه المبيت ليلة لدى امرأة من معارفه مشهورة بالصلاح ... وكانت الجارية عندها ... وتأتى هذه القصة شاهدا على عفة ابن حزم ... ولنتركه يحدثنا عنها فيقول :

" ولقد ضمنى المبيت ليلة فى بعض الازمان عند امرأة من بعض معارفى مشهورة بالصلاح والخير والحزم ،ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتى قد ضمتنى معها النشأة فى الصبا ،ثم غبت عنها أعواما كثيرة ،وكنت تركتها حين أعصرت (٧) ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ، ففاض وانساب ،وتفجرت عليها ينابيع الملاحة ،فترددت وتحيرت وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت،وانبعثت فى خديها أزاهير الجمال،فتمت واعتمت ... وكانت من أهل بيت صباحة ،وقد ظهرت على صورة تعجز الوصاف وقد طبق وصف شبابها قرطبة ... " (٨) يقول أبو محمد : " فبت عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عنى على جارى العادة فى التربية . فلعمرى لقد كاد قلبى أن يصبو ويثوب اليه مرفوض الهوى ،ويعاوده منسى الغزل . ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار،خوفا على لبى أن يزدهيه الاستحسان،ولقد كانت هى وجميع أهلها ممن لاتتعدى الاطماع اليهن،ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل ... " (٩) هكذا كان الجمال يثير عاطفة ابن حزم ويسحر

---

(٧) فى بعض الطبعات اعمرت .

(٨) ص ١٦٥ .

(٩) ص ١٦٦ .

لبه ،ويذكره بماض يحبه ويحن اليه لما له فيه من ذكريات معطرة ...

وان ابن حزم ليس بدعا فى هذا ... بل ان استحسان الصور الجميلة طبيعى فى النفس ... وقد رأينا عدم قدرة أبى محمد على كبح جماح قلبه عندما كاد يصبو ويثوب اليه مرفوض الهوى ... ولم يجد سبيلا للبعد عن الفتنة الا بالامتناع عن دخول تلك الدار خوفا ان يزدهيه سحر الجمال،فيقع فيما لاتحمد عقباه ... مهما كانت عفة الجارية ،ومكانة أهلها المرموقة ... فللشيطان سبل شتى فى اثارة شهوة الرجل والمرأة ...

ويقص أبو محمد علينا خبر حب وقع له مع فتاة اسمها " نعم" كان قد فجع بفقدها فسيطر عليه الاسى ،وكانت سنه دون العشرين أما هى فكانت تصغره قليلا ... يقول : " وعنى أخبرك أنى أحد من دهى بهذه الفادحة (١٠) وتعجلت له هذه المصيبة ،وذلك أنى كنت اشد الناس كلفا ،واعظمهم حبا بجارية لى كانت فيما خلا اسمها "نعم" وكانت امنية المتمنى،وغاية الحسن خلقا،وخلقا،وموافقة لى ،وكنت اباعذرها ،وكنا قد تكافأنا المودة ،ففجعتنى بها الاقدار ،واخترمتها الليالى ومر النهار،وصارت ثالثة التراب والاحجار،وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة ،وكانت هى دونى فى

---

(١٠) فادحة البين .

السن ،فلقد اقمت بعدها سبعة اشهر لاتجرد عن ثيابى ،ولاتفتر لى دمعة على جمود عينى ،وقلة اسعادها ،وعلى ذلك فوالله ماسلوت حتى الان ،ولو قبل فداء لفديتها بكل ما املك من تالد وطارف ،وببعض اعضاء جسمى العزيزة على ،مسارعا طائعا ،وماطاب لى عيش بعدها ولانسيت ذكرها ولاآنس بسواها ،ولقد عفى حبى لها على كل ماقبله وحرم ماكان بعده " . (١١)

فلنتأمل هذه الرقة تصدر من هذه النفس الشفافة ،وهذه المشاعر الصادقة يبعثها ابو محمد مليئة بالحزن والالم ... وماذلك الا لعظم شأن الحب عنده ... ووفائه واخلاصه لمحبوبه حتى بعد البين مهما بعد الزمان ...

وكان ابو محمد نهما فى الوصل .. وله قصص فى ذلك تنقض قول من يدعى " أن دوام الوصل يودى بالحب ... فيرد قائلا : " وهذا هجين من القول ،انما ذلك لاهل الملل،بل كلمازاد وصلا زاد اتصالا وهاهو ذا يحدثنا عن نفسة قائلا : " وعنى أخبرك أنى مارَوِيْت قط من ماء الوصل ولازادنى الاظمأ،وهذا حكم من تداوى برأيه ،وان رفه عنه سريعا ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لايجد الانسان وراءها مرمى،فما وجدتنى الا مستزيدا،ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولارهقتنى فترة ... " (١٢) .

---

(١١) انظر ص ١٢٤ .

(١٢) طوق الحمامة ص ٩٢ .

واستمع اليه وهو يصور العلاقة بين قرب الوصال واشتعال الاشواق ،يقول : " ولقد ضمنى مجلس مع بعض من كنت أحب ،فلم اجل خاطرى فى فن من فنون الوصل، الاوجدته مقصرا عن مرادى،وغير شاف وجدى ،ولاقاض اقل لبانه من لباناتى ،ووجدتنى كلما ازددت دنوا ازددت ولوعا ،وقد حث زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى .. " (١٣) وهكذا نجد أبا محمد يصل به الوله بالمحب الى أبعد غاياته حتى انه لايجد مسلكا يوصله اليه الآخذ به ،وماهذه القصة الاشاهد على حرص ابن حزم على اخراج هذه التجارب التى طالما أرقت ليله ،وشغلت باله ...وهى وان دلت على شئ فانما تدل على تذوق ابن حزم للحب العذرى الذى طالما تغنى به الشعراء .. وتغنى به ابن حزم .

والوصل فى نظر ابى محمد " حظ رفيع ومرتبة سرية ،ودرجة عالية ،وسعد طالع بل هو الحياة المجددة ،والعيش السنى ،والسرور الدائم ،ورحمة من الله عظيمة ...

ويسترسل أبو محمد فى حديثه عن الوصل قائلا : " ولقد جربت اللذات على تصرفها ،وأدركت الحظوظ على اختلافها ،فما للدنو من السلطان ،ولاللمال المستفاد ،ولا للأمن بعد الخوف ... من الموقع فى النفس ماللوصل ،لاسيما بعد طول الامتناع ،وحلول الهجر،حتى

---

(١٣) طوق الحمامة ص ٩٣ .

يتأجج عليه الجوى ويتوقد لهيب الشوق ،وتتضرم نار الرجاء ..." (١٤)

ولايظن ظان من خلال هذا الكلام أن ابن حزم يريد هنا الوصل الحرام كلا .. فان ذلك لايتأتى ممن هو فى منزلته ،ويؤيد ذلك قوله : " ... يعلم الله وكفى به عليما ،أنى برئ الساحة ،سليم الاديم ،صحيح البشرة ،نقى الحجزة ،وانى أقسم بالله أجل الاقسام أنى ماحللت مئزرى على فرج حرام قط،ولايحاسبنى ربى بكبيرة الزنا مذ عقلت الى يومى هذا ،والله المحمود على ذلك ،والمشكور فيما مضى ،والمستعصم فيما بقى ... " (١٥)

واذا أردنا أن نتحقق من عفة ابن حزم فلنستمع الى هذه القصة يرويها عن نفسه قائلا : " وانى أذكر أنى دعيت الى مجلس فيه من تستحسن الابصار صورته وتألفه القلوب أخلاقه للحديث والمجالسة دون منكر ولامكروه ،فسارعت اليه ،وكان هذا سحرا . فبعد ان صليت الصبح وأخذت زيى طرقنى فكر فسنحت لى أبيات ،ومعى رجل من اخوانى ،فقال لى : ماهذا الاطراق ؟ فلم أجبه حتى أكملتها ،ثم كتبتها ،ودفعتها اليه ،وأمسكت عن المسير حيث كنت نويت ... " .

وابن حزم جرى فى ذلك على مزاجه الشاعرى الذى يعجب

---

(١٤) انظر ص ٩٠ .

(١٥) انظر ص ٩٠ — ٩١ .

بمجالى الحسن فى شتى صور الكائنات ... ومع ذلك لديه القدرة على الرجوع الى الاتزان النفسى ... فاذا به يروع هواه ... ويكبح جماح نفسه ،وينأى عمالايتفق مع العفة ،والصيانة حتى يبتعد عما عسى أن يوقع الناس فى سوء الظن به .

تلك هى أهم القصص العاطفية لابى محمد بن حزم ... وهى فى دقة واقعيتها وصدق تجربتها تعبرعن هوى كامن فى نفس صاحبها لم يسعه كتمانه ،ولاكبته ... فأخرجه الينا فى ضوء هذه الاعترافات الجريئة الصريحة ...

وينقلنا الحديث مع أبى محمد ليسجل طائفة طيبة من ملحوظاته الذكية المرتبطة بخبراته ومعاناته الشخصية فى الحب وأولى هذه الملحوظات : بيان ماهية الحب ... وكيفية بدايته ونهايته ... ومدى دقة أسبابه ،وجلالة معانيه ... اذ يقول :

" والحب ــ أعزك الله ــ أوله هزل ،وآخره جد ،دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلاتدرك حقيقتها الا بالمعاناة " .... (١٦)

ثم يوضح ماهية الحب بعيدا عن التجربة ،ولكن فى ضوء تأثراته الافلاطونية فيقول : " والذى أذهب اليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع " . (١٧)

---

(١٦) طوق الحمامة ص ١٩ .

(١٧) طوق الحمامة ص ٢١ .

وكذلك يعرف العشق على نفس الطريق فيقول : " انه استحسان روحانى وامتزاج نفسانى " (١٨) ... ويرى " أن محبة العشق الصحيح الممكن من النفس لافناء لها الا بالموت " (١٩) ... وأن جميع اجناس الحب " منقضية بانقضاء عللها، وزائدة بزيادتها، وناقصة بنقصانها ومتأكدة بدنوها، فاترة ببعدها حاشا محبة العشق " (٢٠)

والحب لايقع الاعلى الصورة الحسنة، ويعلل ذلك ابن حزم بقوله " وأما العلة التى توقع الحب أبدا فى أكثر الامر على الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شىء حسن، وتميل الى التصاوير المتقنة فهى اذا رأت بعضها تثبتت فيه، فاذا ميزت وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة . وذلك هو الشهوة ... وان للصور لتوصيلا عجيبا بين أجزاء النفوس النائية ... " (٢١)

ثم يعود الى منهجه الاصيل مبتعدا عن مثاليات الافلاطونية منعطفا الى طريقه الاثير : طريق المعاناة والتجربة الذاتية فيقول : " والحب ـ أعزك الله ـ داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة، ومقام مستلذ، وعلة مشتهاة، لايود سليمها البرء

---

(١٨) طوق الحمامة ص ٢٢ .

(١٩) انظر ص ٢٢ .

(٢٠) انظر ص ٢٢ .

(٢١) انظر ص ٢٤ .

ولايتمنى عليلها الافاقة ... يزين للمرء ماكان يأنف منه ويسهل عليه ماكان يصعب عنده حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة " . (٢٢)

ومن خلال ذلك نلاحظ أن ابن حزم لم يجد حرجا فى أن يعترف بعدد من تجاربه العاطفية ... وماحديثه عن علامات الحب الادليل صريح على صدق تجاربه وواقعيتها ... فتأمله يقول : " وللحب علامات يقفوها الفطن،ويهتدى اليها الذكى ... فأولها : ادمان النظر ،والعين باب النفس الشارع وهى المنقبة عن سرائرها ،والمعبرة لضمائرها ،والمعربة عن بواطنها ،فترى الناظر لايطرف يتنقل بتنقل المحبوب ،وينزوي بانزوائه ،ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس" . (٢٣)

ويستمر فى تعداد علامات الحب فيقول : " ومنها الاقبال بالحديث فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ،ولو تعمد ذلك " . (٢٤)... ومن هذه العلامات أيضا " الانصات لحديث المحبوب اذا حدث ،واستغراب كل مايأتى به ،ولو أنه عين المحال،وخرق العادات،وتصديقه وانكذب ،وموافقته وان ظلم،والشهادة له وان جار،واتباعه كيف

---

(٢٢) انظر ص ٢٥،٢٦ .

(٢٣) انظر طوق الحمامة ص ٢٧ .

(٢٤) انظر طوق الحمامة ص ٢٧ .

سلك ، وأى وجه من وجوه القول تناول .. ومنها الاسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ،والتعمد للقعود بقربه والدنو منه واطراح الاشغال الموجبة للزوال عنه ... والزهد،والرغبة عنها والاستهانة بكل خطب جليل داع الى مفارقته ،والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه ... " (٢٥) ويواصل حديثه عن هذه العلامات مصورا لنا الحالة النفسية للمحب عندما يرى حبيبه فيقول : " ومنها بهت يقع ،وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة ... " (٢٦) ولم يقف الامر بحالة المحب عند رؤية محبوبه فحسب ،بل ان رؤية اى من الناس له شبه بمحبوبه أو ذكر أى شىء يتعلق به ليثير تغيرا على قسمات وجهه ولاسيما عند ذكر اسمه وهذه الصفات من أبرز علامات الحب ،وهى لم تصدر من فراغ بل هى نتاج تجربة صادقة ... ولنسمعها من لسان أبى محمد ... يقول :

"ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة ... " (٢٧) ثم يحدد وقت ظهور هذه العلامات بقوله : " وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه ،وتوقد شعله ،واستطارة لهبه ... " (٢٨)

---

(٢٥) انظر طوق الحمامة ص ٢٧ .

(٢٦) انظر طوق الحمامة ص ٢٧ .

(٢٧) انظر ص ٢٧ .

(٢٨) انظر ص ٢٨ .

والحب المتمكن يجعل صاحبه لايكاد يحس بأحد من الناس سوى محبوبه ،يقول فى ذلك : " فأما اذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سرارا ،والاعراض عن كل ماحضر الا المحبوب جهارا... " (٢٩) .
ثم يتابع حديثه مفصلا القول فى الظواهر النفسية والسلوكية " ومن علاماته الانبساط الكثير الزائد والتضايق فى المكان الواسع والمجاذبة على الشئ يأخذه احدهما ،وكثرة الغمز الخفى ،والميل بالاتكاء ،والتعمد لمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة وشرب فضلة ما ابقى المحبوب فى الاناء ،وتحرى المكان الذى يقابله فيه ... " (٣٠) ... ولايقف عند هذه العلامات المتوافقة فى عالم الحب والمحبين - بل يرصد ظواهر من السلوك تبدو وكأنها متنافرة وتلحظ وكأنها متضادة على قدر الدواعى الدافعة ،والعوارض الباعثة ،والاسباب المحركة ،والخواطر المهيجة ،تتبين ذلك من خلال حديثه عن تكافؤ المحبين الذى يقول عنه " فنجد المحبين اذا تكافيا فى المحبة وتأكدت بينهما تأكدا شديدا ،أكثر بهما جدهما بغير معنى ،وتضادهما فى القول تعمدا ،وخروج بعضهما على بعض فى كل يسير من الامور ،وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه

---

(٢٩) انظر ص ٢٨ .

(٣٠) انظر ص ٢٨ .

وتأولها على غير معناها ... " (٣١) ويعلق على ذلك بقوله " كل هذه تجربة ليبدو مايعتقده كل واحد منهما فى صاحبه " (٣٢)

ثم يشرح "سيكولوجية" الخلاف بين المحبين ... ويبين الفرق الفارق بينه وبين الخلاف عند سائر الناس فيقول " والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ،ومخارجة التشاجر سرعة الرضا ... فانك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لايقدر ،يصلح عند الساكن النفس ،السالم من الاحقاد فى الزمن الطويل ،ولاينجبر عند الحقود ابدا ... فلاتلبث أن تراهما قد عادا الى اجمل الصحبة ،واهدرت المعاتبة وسقط الخلاف ،وانصرفا فى ذلك الحين بعينه الى المضاحكة والمداعبة ... " (٣٣) ويؤكد هذا من تجاربه بقوله : " ودونكها تجربة صحيحة وخبرة صادقة " . (٣٤)

ويواصل شيخنا حديثه فى علامات الحب : " ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع من يحب ،ويستلذ الكلام فى اخباره ،ويجعلها هجيراه ولايرتاح لشئ ارتياحه لها ،ولاينهنهه عن ذلك تخوف

---

(٣١) انظر ص ٢٨، ٢٩ .

(٣٢) انظر ص ٢٨، ٢٩ .

(٣٣) انظر ص ٢٩ .

(٣٤) انظر ص ٢٩ .

أن يفطن السامع ويفهم الحاضر .. " (٣٥) ويستشهد لذلك بالمثل القائل : " وحبك الشئ يعمى ويصم " . ولذلك فالمحب " لو أمكن ألايكون حديث فى مكان يكون فيه الاذكر منيحب لماتعداه " . (٣٦)

وصدق المحبة يعرض صاحبه الى كثير من المشاق فهو يتعرض للجوع ويفقد شهيته ،ويغص بطعامه ،ونحو ذلك " ويعرض للصادق المودة أن يبتدئ وهو له مشته فما هو الا وقت ،ماتهتاج له من ذكر من يحب ،صار الطعام غصة فى الحلق ،وشجى فى المرئ ،وهكذا فى الماء وفى الحديث ،فانه يفاتحكه مبتهجا ،فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب ،فتستبين الحوالة فى منطقه والتقصير فى حديثه ... " (٣٧) ويعرف ذلك فى ملامح وجهالمحب فى حركاته وسكناته ،وسائر تصرفاته... يقول : " وآية ذلك : الوجوم والاطراق ،وشدة الانغلاق،فبينما هو طلق الوجه ،خفيف الحركات ،صار منطبقا متثاقلا ،حائر النفس جامد الحركة ،يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال ... " (٣٨) ولاريب أن هذه الاحكام لاتصدر الامن عايشها ،وخاض غمار تجاربها بنفسه . وهذا الداء لاينفك عن صاحبه

---

(٣٥) انظر ص ٢٩ .

(٣٦) انظر ص ٢٩ .

(٣٧) انظر ص ٢٩ .

(٣٨) انظر ص ٣٠ .

فتجده كما يقول : يميل لحب الوحدة ،ويأنس بالانفراد ... (٣٩)ولذلك تجده نحيل الجسم دونما سبب يذكر أو وجع يمنعه من التقلب والحركة والمشى ... فهذا كما يقول " دليل لايكذب ومخبر لايخون عن كلمة فى النفس كامنة ... " (٤٠) وبقليل من التمعن فى هذه الكلمات نحس بما فيها من صدق التجربة ،وحرارة العاطفة ،وارتفاع النبض والاستراحة الى البوح بما يعتمل فى الصدر ، وأعراض الحب كثيرة منها : " الجزع الشديد والحمرة المتقطعة ،تغلب عندما يرى من اعراض محبوبه عنه ونفاره منه ،وآية ذلك الزفير وقلة الحركة ،والتأوه ،وتنفس الصعداء ... " (٤١)

ومن خصال المحب أن عاطفته لاتقتصر على حبيبه فحسب ... ولكنها ترحب وتتسع حتى تشمل أهل محبوبه ،وقرابته ، وخاصته ،حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ،ومن جميع خاصته ... "(٤٢)

والحب الذى يدوم فى نظره هو ذلك الذى لايأتى الا بعد عناء شديد ،وصبر طويل ،وملاحظة ،وهذا هو مذهبه الذى يعبر عنه بقوله " ومن الناس من لاتصح محبته الا بعد طول المخافتة ،وكثير المشاهدة

---

(٣٩) انظر ص ٣٠ .

(٤٠) انظر ص ٣٠ .

(٤١) انظر ص ٣٢ .

(٤٢) انظر ص ٣٢ .

ومتمادى الانس وهذا الذى يوشك آن يدوم ويثبته ولايحيك فيه مر الليالى ،فما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا ،وهذامذهبى " (٤٣) فتأمل قوله " وهذا مذهبى" فالذى نلاحظه أنه يسجل ذلك ،وهو يعانى وليس لمجرد التسلية والتفكه ،لانه يمقت من يحب من نظرة واحدة لان ذلك فى رأيه ضرب من الشهوة ،تأمل كيف يدافع عن هذا المذهب فيقول : " ومالصق بأحشائى حب قط الا مع الزمن الطويل،وبعد ملازمة الشخص لى دهرا ،وأخذى معه فى كل جد وهزل ... ولا أسرعت الى الانس بشىء أول لقائى له ،ولارغبت فى الاستبدال الى سبب من أسبابى ،مذ كنت لا أقول الافى الالاف والاخوان وحدهم ،ولكن فى كل مايستخدم الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم ،وغير ذلك " . (٤٤) وهو لايقوى على الفراق ،ويظل مشغول البال ،لايهنأ بعيش ،وتذكره لماضيه يحرمه من لذة الحياة ،ويفقده بهجتها ،ويبقى اسير همومه " وما انتفعت بعيش ،ولافارقنى الاطراق ،والانغلاق ،مذ ذقت طعم فراق الاحبة ،وانه لشجى يعتادنى ،وولوع هم ماينفك يطرقنى ،ولقد نغص تذكرى لمامضى كلعيش استأنفه ،وانى لقتيل الهموم فى عداد الاحياء ،ودفين الاسى بين اهل الدنيا ،والله المحمود على كل حال لااله الا هو " (٤٥) ويعقب على هذا الطبع الذى طبع عليه بأن

---

(٤٣) انظر ص ٤٢،٤٣ .

(٤٤) انظر ص ٤٤ .

(٤٥) انظر ص ٤٥ .

ذلك لايخالف ماذهب اليه فى صدر الرسالة من أن الحب اتصال بين أجزاء النفوس فى أصل عالمها العلوى ... بل هو مؤكد له " (٤٦)

وفى كيفية التوصل الى المحبوب يرى أن " أول مايستعمل طلاب الوصل ،أو أهل المحبة فى كشف مايجدونه الى أحبتهم : التعريض بالقول " ويكون ذلك التعريض " اما بانشاد شعر،أو بارسال مثل أو تعمية بيت ،أو طرح لغز أو تسليط كلام " . (٤٧)

ثم تختلف وسائل التعريض بالقول بحسب الموقف،فهناك نوع من التعريض لايكون الابعد ارسال الشعر أو المثل ،وحصول الرد بالاتفاق ،والتأكد من المحبة للمحبوب ،فاذا عرف ذلك ،وأحس بالقرب منه " فحينئذ يقع التشكى وعقد المواعيد،والتقرير واحكام المودات بالتعريض ،وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غير مايذهبان اليه ،فيجيب السامع عنه بجواب غير مايتأدى الى المقصود بالكلام ،على حسب مايتأدى الى سمعه ،ويسبق الى وهمه ،وقد فهم كل واحد منهما عن صاحبه ،وأجابه بمالايفهمه غيرهما،الامن أيد بحس نافذ،وأعين بذكاء ،وأمد بتجربة ،ولاسيما ان أحس من معانيهما بشىء،وقلما يغيب عن المتوسم المجيد،فهنالك لاخفاء عليه فيما يريدان " . (٤٨)

---

(٤٦) انظر ص ٤٥ .

(٤٧) نفس المصدر ص ٥٢ .

(٤٨) نفس المصدر ص ٥٢ .

ومتى استطاع المحب أن يعرض بالقول ،ووقع القبول ،تلاه الاشارة بلحظ العين ... وللاشارة بلحظ العين طرق ومعان يصفها لنا بقوله " وأنا واصف ماتيسر من هذه المعانى : فالاشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الامر،وتفتيرها اعلام بالقبول ،وادامة نظرها آية الفرح ،والاشارة الى اطباقها دليل على التهديد،وقلب الحدقة الى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار اليه ،والاشارة الخفية بمؤخر العين كلتاهما سؤال ،وقلب الحدقة من وسط العين الى الموق بسرعة شاهد المنع ،وترعيد الحدقتين من وسط الحدقتين نهى عام ،وسائر ذلك لايدرك الابالمشاهدة ... " (٤٩)

وللعين فى طرق الحب وظائف كثيرة ... منها أنها "تنوب عن الرسل ،ويدركبها المراد،والحواس ،الاربع ابواب الى القلب ومنافذ نحو النفس والعين أبلغها،وأصحها دلالة،وأوعاها عملا وهى رائد النفس الصادق ودليلها الهادى ،ومرآتها المجلوة التى تقف على الحقائق وتميز الصفات ،وتفهم المحسوسات ،وقد قيل : ليس المخبر كالمعاين ،وقد ذكر ذلك " أفليمون"* صاحب الفراسة ،وجعلها معتمدة فى الحكم ،وبحسبك من قوة العين أنها اذا لاقى شعاعها مجلوا صافيا اما حديدا مفصولا ،او زجاجا او ماء او بعض الحجارة الصافية او سائر الاشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص

---

(٤٩) نفس المصدر ص ٥٤ .

(*) " أفليمون " أشهر مؤلف اغريقي في علم الفراسة ،وقد ازدهر فى القرن الثاني للميلاد . (نفس المصدر ،ص ٢٥٤).

واللمعان،يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف ساتر مناع كدر ، انعكس شعاعها ،فأدرك الناظر نفسه ومازها عيانا ،وهو الذى ترى في المرآة ،فأنت حينئذ كالناظر اليك بعين غيرك ... " (٥٠)

فاذا كان الامتزاج بين المحبين بدأت المحبة تتخذ نمطا هو المراسلة وفى ذلك يقول : " ينبغى أن يكون شكل الكتاب ألطف الاشكال ،وجنسه املح الاجناس ،ولعمرى ان الكتاب للسان في بعض الاحايين اما لحصر فى الانسان ،واما لحياء ،واما لهيبة " (٥١)

ويؤكد ذلك قائلا : " نعم ،حتى ان لوصول الكتاب الى المحبوب ،وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه ،للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ... وان لرد الجواب والنظر اليه سرورا يعدل اللقاء ،ولهذا ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ،ويعانقه " . (٥٢) فهذا هو تأكيد المجرب والممحص لاساليب الود بين المتحابين .

ولابد لهذا الاسلوب من سفير يوصل الرسالة الى المحبوب فيرى أنه " يجب تخيره وارتياده واستجادته واستفراهه ،فهو دليل عقل المرء ،وبيده حياته ،وموته ،وستره وفضيحته بعد الله

---

(٥٠) نفس المصدر ص ٥٥،٥٦ .

(٥١) نفس المصدر ص ٥٦ .

(٥٢) نفس المصدر ص ٥٦ .

تعالى " (٥٣)

ثم يذكر أن المحبين قد تعودا أن يستعملوا فى ارسال رسائلهم الى أحبتهم " اما خاملا لايؤبه له ،ولايهتدى للتحفظ منه لصباه أو لهيئة رثة أوبذاذة فى طلعته ... واما جليلا لاتلحقه الظنن لنسك يظهره ، أو لسن عالية قد بلغها وما أكثر هذا فى النساء ولاسيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الاحمرين " (٥٤)

وهو لايرى صلاح هذا الصنف ولاسابقه للمراسلة لان هذا الصنف معروف وكثيراما يحذر النساء المحدثات منهن،فيقول : " وانى لاذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأيتها " . (٥٥)

وكذلك ذوات الصنعة ،قد يمتهن مهنة السفارة بين المحبين لان صنعتهن تساعدهن على ذلك " كالطبيبة ،والحجامة ،والسراقة والدلالة ،والماشطة ،والنائحة ،والمغنية ،والكاهنة ،والمعلمة والمستخفة ،والصناع فى المغزل والنسيج،وما أشبه ذلك " . (٥٦)

ونظرا لدخول هؤلاء كل البيوتات ،فهن سفيرات يحتجن الى

---

(٥٣) طوق الحمامة ص ٥٨ .

(٥٤) طوق الحمامة ص ٥٨ .

(٥٥) طوق الحمامة ص ٥٨ .

(٥٦) طوق الحمامة ص ٥٨ .

الفحص والتروى وقد يكون السفير ذا قرابة من المرسل اليه ...وهذا الصنف أقدر من غيره على استمالة المحبوب ... وهنا يعلق ابن حزم بقوله :" فكم منيع سهل بهذه الاوصاف وعسير يسر ،وبعيد قرب وجموح أنس ،وكم داهية دهت الحجب المصونة والاستار الكثيفة والمقاصير المحروسة ،والسدود المضبوطة ،لارباب هذه النعوت " (٥٧)

وللحب قدرة عجيبة على تغير التركيب النفسى للمحب اذ ينسية كبرياءه ،وينزل عند رغبة محبوبه صاغرا ... مهما كان حرا وشهما وأبيا ... فان الحب كفيل بتذليل هذه الانفة والانتصار على الشهامة والاباء ،يقول أبو محمد : " ومن عجيب مايقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه ،وصرف طباعه قسرا الى طباع من يحبه ،وترى المرء شرس الخلق ،صعب الشكيمة ،جموح القيادة ،ماضى العزيمة ،حمى الانف أبى الخسف ،فما هو الا أن يتنسم نسيم الحب ،ويتورط غمره ،ويعوم فى بحره ،فتعود الشراسة ليانا ،والصعوبة سهلة ،والمضاء كلالة والحمية استسلاما " . (٥٨)

وعندما تحدث عن آفات الحب جعل العاذل فى مقدمتها لانه مر بهذه التجربة والعذال اقسام : منها العاذل الزاجر . وهذا "لايفيق أبدا من الملامة وذلك خطب شديد وعبء ثقيل ،ووقع لى مثل

---

(٥٧) نفس المصدر ص ٥٨ .

(٥٨) نفس المصدر ص ٦٨ .

هذا ..." (٥٩) فتأمل قوله "ووقع لى هذا" ألايدل على شعور أبى محمد بقساوة التجربة ،ومرارة العذل بسبب حب وقع فيه ... وقد صرح باسم هذا العاذل وهو أبو السرى عمار بن زياد ،وهو كما يقول أكثر من عذله ... بيد أنه كان يتوقع وقوفه بجانبه فى الخطأ والصواب ...

ثم يكشف عن نفسية المرأة بصدد " عاطفة الحب" ويوازن بينها وبين الرجل فى هذه الناحية ،فيجد ان المرأة أكثر أصالة وأشد حفاظا لما فى ذلك من أثر وظيفى فى حياتها " ومارأيت الاسعاد أكثر منه فى النساء ،فعندهن من المحافظة على هذا الشأن ،والتواصى بكتمانه ،والتواطؤ على طيه ، اذا اطلعن عليه، ماليس عند الرجال ومارأيت امرأة كشفت سر متحابين الاوهى عند النساء ممقوتة مستثقلة ،مرمية عن قوس واحدة ،وانه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن مالايوجد عند الفتيات، لان الفتيات منهن ربما كشفن ماعلمن على سبيل التغاير وهذا لايكون الافى الندرة ،واما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الاشفاق محضا الى غيرهن " . (٦٠)

ويسرد لنا أنماطا شتى من تجاربه ،تدل على معرفة قوية بطبائع النساء فهذه امرأة ذات شأن ،ولها من المكان والجاه

---

(٥٩) نفس المصدر ص ٧٦ ومابعدها .

(٦٠) نفس المصدر ص ٧٨ .

مالها،ولها جارية وقعت فى شراك الحب ،فكانت تقسو عليها ،ومع ذلك لم تبح لها بشئ ... استمع اليه يقص خبرها : " وانى لاعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم،فشاع على احدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها،ويعشقها،وأن بينهما معانى مكروهة،وقيل ان جاريتك فلانة تعرف ذلك ،وعندها جلية أمرها،فأخذتها،وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والايذاء مالايصبر على مثله جلداء الرجال رجاء أن تبوح لها بشئ مما ذكر لها،فلم تفعل البتة " .... (٦١)

وهذه امرأة " جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل،ناسكة مقبلة على الخير،وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان فى غير ملكها،فعرفته الامر،فرام الانكار،فلم يتهيأ له ذلك فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عصم ؟ فلاتبال بهذا،فوالله لا أطلعت على سركما أحدا أبدا ،ولو امكنتنى أن أبتاعها لك من مالى ولو احاط به كله،لجعلتها لك فى مكان تصل اليها فيه ولايشعر بذلك أحد " . (٦٢)

والنساء بصفة عامة كما يقول حريصات كل الحرص على التوفيق بين المحبين مهما كلفهن ذلك حتى " المرأة الصالحة المسنة

---

(٦١) انظر ص ٧٨ .

(٦٢) انظر ص ٧٨ .

المنقطعة الرجاء من الرجال وأحب أعمالها اليها وأرجاها للقبول عندها ،سعيها فى تزويجيتيمة ،واعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة " . (٦٣) وسبب هذا الطبع المستفحل فى النساء كما يقول " لانهن متفرغات البال من كل شئ الامن الجماع ودواعيه ، والغزل واسبابه والتآلف ووجوهه ،لاشغل لهن غيره ،ولاخلقن لسواه " . (٦٤)

ويستشهد على خلو أذهان النساء مما سوى ذلك بأنه " قرأ فى سيرة ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه ،يلقى عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر،لانهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل انما تشوق الى الرجال،وتحن الى النكاح " . (٦٥) ولعمرى ان هذه التجارب والخبرات بالنساء لم تصدر من فراغ ... بل هى المعرفة الاكيدة بأسرارهن ... وعاها ثم دونها لنا ابن حزم ...

ويستمر فى شرح آفات الحب ... ومنها الرقيب ،وهو ممايستثقل على المحبين يقول : " شاهدت يوما محبين فى مكان قد ظنا أنهما انفردا فيه ... وتأهبا للشكوى فاستحليا ماهما فيه من الخلوة ولم يكن الموضع حمي فلم يلبثا ان طلع عليهما من كانا يستثقلانه

(٦٣) انظر ص ٧٩ .

(٦٤) نفس المصدر ص ٧٨ .

(٦٥) نفس المصدر ص ٧٨ .

فرآنى فعدل الى ،واطال الجلوس معى ،فلو رأيت الفتى المحب وقد تمازج الاسف البادى على وجهه مع الغضب لرأيت عجبا " . (٦٦)

ويواصل حديثه عن أقسام الرقباء ... فهناك " رقيب قد آحس من أمرهما بطرف وتوجس من مذهبهما شيئا ،فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك فيدمن الجلوس ،ويطيل القعود ،ويتخفى بالحركات ،ويرمق الوجوه ،ويحصل الانفاس وهذا اعدل من الجرب ،وانى لاعرف من هم ان يباطش ـ قيبا هذه صفته ... " . (٦٧)

وهناك " رقيب على المحبوب ... وهذا هو البلية لانه لاحيلة الا بترضّيه وإذا ارضى فذلك غاية اللذة ،واما اذا لم يكن من حيلة الى ترضيه فلاطمع الا بالاشارة بالعين همسا ،وبالحاجب احيانا والتعريض اللطيف بالقول ... وفى ذلك متعة وبلاغ الى حين يقنع به المشتاق ... " (٦٨)

وهناك محبان يلتقيان فى حب محبوب واحد .. وكل منهما رقيب على صاحبه ... ويسجل أبو محمد هذا الموقف الشائك المعقد فيقول :

" من طريف معانى الرقباء انى اعرف محبين مذهبهما واحد فى محبوب واحد بعينه ،فلعهدى بهما كل واحد منهما رقيب على صاحبه ... " (٦٩)

---

(٦٦) نفس المصدر ص ٨٠ .

(٦٧) نفس المصدر ص ٨٠ .

(٦٨) نفس المصدر ص ٨١ .

(٦٩) نفس المصدر ص ٨٢ .

وفى الوشاية بين المحبين يذكر أن لاصحابها ضروبا من التنقيل فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يحب أنه غير كاتم للسر،وهذا مكـــان صعب المعاناة،بطئ البرء الاأن يوافق معارضا للمحب فى محبتـــه وهذا أمر يوجب النفار،فلافرج للمحبوب الابأن تساعده الاقـــدار بالاطلاع على بعض اسرارمن يحب بعد ان يكون المحبوب ذا عقـــل وله حظ من تمييز،ثم يديمه المطاولة ... فاذا تكذب عنده نقـــل الواشى مع ماأظهر من الجفاء والتحفظ ،ولم يسمع لسره اذاعـــة علم أنه انما زور له الباطل،واضمحل ماقام فى نفسه " . (٧٠)

وهذا الامر بعينه مماشاهده أبو محمد لبعض المحبين مع بعـــض من كان يحب ،وكان المحبوب شديد المراقبة عظيم الكتمان،وكثـــر الوشاة بينهما حتى ظهرت اعلام ذلك فى وجهه وحدث فى حب لم يكـــن وركبته رحمة،واظلته فكرة ودهمته حيرة الى أن ضاق صدره وباح بمـــا نقل اليه ... الى أن يقول : " فلو شاهدت مقام المحب فـــى اعتذاره لعلمت أن الهوى سلطان مطاع ،وبناء مشدود الاواخـــى وسنان نافذ وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف ،والانكســـار والتوبة والرمى بالمقاليد،فبعد لأى ماصلح الامر بينهما " . (٧١)

وفى اشفاق المحب على محبوبه يحدثنا قائلا :

---

(٧٠) نفس المصدر ص ٨٢،٨٣ .

(٧١) طوق الحمامة ص ٨٣ .

" ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيرا،وانه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة الرائقة المعنى لاسيما ان كان هوى يتكتم به ،فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمحبه،وخجلته فى الخروج مما وقع فيه بالاعتذار،وتوجيهه الى غير وجهه ... لرأيت عجبا ... ولذة مخيفة لاتقاومها لذة،ومارأيت أجلب للقلوب ولا اغوص على حياتها ،ولا انفذ للمقاتل من هذا الفعل وان للمحبين فى الوصل من الاعتذار ما أعجز أهل الاذهان الذكية والافكار القوية " . (٧٢)

وطرق الوصل كثيرة فمنها : الوصل المختلس الذى يحاول صاحبه ان يخفيه عن الرقباء وهذا النوع له مكانة عجيبة فى نفس ابن حزم اذ يقول فيه : " وان للوصل المختلس الذى يخاتل به الرقباء ويحتفظ به من الحضر مثل الضحك المستور والنحنحة،وجولان الايدى والضغط بالاجناب ،والقرص باليد والرجل،لموقعا من النفس شهيا " . (٧٣)

ثم يشيد بمن عاش محبا سليما من هذه الآفات ،مصورا عظم سعادة المحبين اذا لم ينغص حبهما بأى مما تقدم .. فاسمعه يقول :

---

(٧٢) طوق الحمامة ص ٩٤ .

(٧٣) طوق الحمامة ص ٩٤ .

" ومافى الدنيا حالة تعدل محبين اذا عدما الرقباء،وأمنا الوشاة،وسلما من البين،ورغبا عن الهجر،وبعدا عن الملل،وفقدا العذال،وتوافقا فى الاخلاق وتكافيا فى المحبة،واتاح لهما رزقا دارا،وعيشا قارا،وكان اجتماعهما على مايرضى الرب من الحال وطالت صحبتهما،واتصلت الى وقت حلول الحمام الذى لامرد له ولابد منه،هذا عطاء لم يحصل عليه احد،وحاجة لم تقض لكل طالب ولولا ان مع هذه الحال الاشفاق من بغتات المقادير المحكمة فى غيب الله عز وجل،من حلول فراق لم يكتسب،واخترام منية فى حال الشباب أوما اشبه ذلك لقلت انها حال بعيدة من كل آفة وسليمة من كل داخلة " ... (٧٤)

ونتابع أبا محمد وهو يحدثنا عن بقية آفات الحب ... فالهجر من أبرز هذه الآفات ولاسيما الهجر الذى يلزم من وراثه التحفظ من الرقباء ... وخاصة الرقيب الحاضر ... وهو فى نظره " أحلى من كل وصل،ولولا ان ظاهر اللفظ،وحكم التسمية يوجب ادخاله فى هذا الباب لرجعت به عنه،ولاجللته عن تسطيره فيه " ... لانك تلاحظ " الحبيب منحرفا عن محبه،مقبلا بالحديث على غيره،ومع ذلك فطبعه جاذب الى محبه تراه منحرفا كمقبل،وساكتا كناطق،وناظرا الى جهة نفسه فى غيرها ... " ولكن " الحاذق الفطن اذا كشف بوهمه

---

(٧٤) طوق الحمامة ص ٩٥ – ٩٦ .

عن باطن حديثهما علم ان الخافى غير البادى ،وماجهر به غير نفس المخبر،وانه لمن المشاهد الجالبة للفتن،والمناظر المحركة للسواكن الباعثة للخواطر، المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة" (٧٥)

ويواصل حديثه عن سائر أنواع الهجر ... وضمن هذه الانواع:هجر يوجبه التذلل ... وهذا قدعرض له فى الصبا مع بعض من كان يحب ولكن هذا النوع " لايلبث أن يضمحل ثم يعود " . (٧٦)

ويحدثنا عما شاهده فى هذا من أن محبين خلا لهما الجو من الرقباء ... ودخلا فى عتاب طويل لذنب حصل من المحب منهما ،وكأنى بابن حزم يحكى هذه القصة عن نفسه ،ونفهم ذلك من قوله : " فهل شاهد مشاهد أو رأت أعين ، أو قام فى فكر ، ألذ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب ،وبعد عنه كل بغيض ،وغاب عنه كل واشى واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما ،وطال ذلك قليلا ،وبدأ بعض الهجر ،ولم يكن ثم مانع من الاطالة للحديث فابتدأ المحب فى الاعتذار والخضوع ،والتذلل ،والادلاء بحجته من الادلال ،والاذلال ،والتذمم بما سلف ،فطورا يدل ببراءته ،وطورا يرد بالعفو،ويستدعى المغفرة ،ويقر بالذنب ،ولاذنب له ،والمحبوب فى كل ذلك ناظر الى الارض ،يسارقه اللحظ الخفى ،وربما ادامه فيه

---

(٧٥) انظر ص ٩٨ .

(٧٦) انظر ص ٩٨ .

ثم يبسم مخفيا لتبسمه • وذلك علامة الرضا،ثم ينجلى مجلسهما عن قبول العذر،ويقبل القول ، وامتحت ذنوب النقل ،وذهبت آثار السخط ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور،ولو كان فكيف ولاذنب ،وختما أمرهما بالوصل الممكن،وسقوط العتاب ،والاسعاد ،وتفرقا على هذا ••• " • (٧٧)

ثم يعلق على هذا قائلا :

" هذا مكان تتقاصر دونه الصفات ،وتتلكن بتحديده الالسنة ولقد وطئت بساط الخلفاء،وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ،ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء،فما رأيت أشد تبجحا ولااعظم سرورا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ،ووثق بميله اليه ،وصحة مودته له " • (٧٨)

كذلك " التجنى" يخبرنا ابن حزم انه من " عوارض الهجران وهويقع فى اول الحب وآخره ،فهو فىاوله : علامة صحة المحبة ،وفى آخره علامة لفتورها ،وباب للسلو ••• " • (٧٩)

وللبين فى نفس أبى محمد وقع شديد وكرب عظيم ،فلنستمع اليه

---

(٧٧) انظر طوق الحمامة ص ١٠٠،١٠١ •

(٧٨) انظر طوق الحمامة ص ١٠١ •

(٧٩) انظر طوق الحمامة ص ١٠٢ •

وهو يقسمه تقسيم المعانى منه فيقول :

" والبين ينقسم أقساما : فأولها مدة يوقن بانصرامها وبالعودة عن قريب ،وانه لشجى فى القلب ، وغصة فى الحلق لاتبرأ الا بالرجعة وانا اعلم من كان يغيب من يحبه عن بصره يوما واحدا فيعتريه من الهلع والجزع،وشغل البال ،وترادف الكرب مايكاد يأتى عليه ...

ثم بين منع من اللقاء ،وتحظير على المحبوب من ان يسراه محبه ،فهذا – ولو كان من تحبه معك فى دار واحدة – فهو بين لانه باثن عنك،وان هذا ليولد من الحزن والاسف غير قليل ،ولقد جربناه فكان مرا ... " . (٨٠)

فهذه هى معرفة المجرب ، الخبير بذلك ... ثم يضرب لنا مثالا بمحب عرفه كان قد " علق بهوى له ،وكان فى حال شظف ،وكانت له فى الارض مذاهب واسعة ،ومناديح رحبة ،ووجوه متصرف كثيرة ،فهان عليه ذلك ،وآثر الاقامة مع من يحب ... " . (٨١) فهذا من النوع الذى لايحتمل او يقوى على مرارة البين .

والاشد من ذلك : بين الرحيل الذى لايعقبه رجعة ،وهذا كما يقول :

---

(٨٠) ص ١١٧ .

(٨١) ص ١١٩ .

" هو الخطب الموجع ،والهم المفظع ،والحادث الاشنع ... واكثر مايكون الهلع فيه اذا كان النائى هو المحبوب "(٨٢) ويؤكد شدة هذا الصنف فيقول:"واني لأعلم من نأت عنه دار محبوبه زمنا ،ثم تيسرت له اوبة فلم يكن الابقدر التسليم واستيفائه ،حتى دعته نوى ثانيه فكاد أن يهلك ... " (٨٣) ويحدثنا عن موقف له : " ولقد نعى الى بعض من كنت احب من بلدة نازحة ،فقمت فارا بنفسى نحو المقابر وجعلت امشى بينها ... " . (٨٤)

ويشغل ذهن ابن حزم ويهز كيانه رحيل المحبوب ،ولساعة الوداع اثر عظيم على قلبه ، اذ يصف هذا بقوله :

"وانه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التى تفتضح فيها عزيمة كل ماضى العزائم ،وتذهب قوة كل ذى بصيرة ،وتسكب كل عين جمود،ويظهر مكنون الجوى ..." (٨٥)... وهنا يقسم قائلا :

" ولعمرى لو أن ظريفا يموت فى ساعة الوداع ،لكان معذورا اذا تفكر فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الامال وحلول الاوجال وتبدل السرور بالحزن،وانها ساعة ترق القلوب القاسية ،وتلين

---

(٨٢) ص ١١٩ .

(٨٣) انظر ص ١٢٠ .

(٨٤) انظر ص ١٢١ .

(٨٥) انظر ص ١٢١ .

الافئدة الغلاظ وانحركة الرأس ،وادمان النظر،والزفرة بعد الوداع لهاتكة حجاب القلب وموصلة اليه من الجزع بما تفعل حركة الوجد فى ضد هذا ... " (٨٦)

ويقرن البين بالهجر واختلاف الناس فى أيهما أشد ،وهو يرى " أن كليهما مرتقى صعب ،وموت أحمر ،وبلية سوداء،وسنة شهباء وكل يستبشع من هذين ماضاد طبعه ،فأما ذو النفس الابية الألوف الحنانة الثابتة على العهد ،فلا شئ يعدل عنده مصيبة البين ..وأما الهجر فهو داعية السلو ورائد الاقلاع ... " . (٨٧)

وأما ذو النفس التواقة الكثيرة النزوع ،والتطلع ، القلسوق العزوف ،فالهجر داؤه ،وجالب حتفه ،والبين له مسلاة ومنساة" . (٨٨)

وأما هو ف " الموت ـ عنده ـ أسهل من الفراق ،وما الهجر الاجالب للكمد فقط ويوشك ان دام يحدث اضرارا" . (٨٩)

ولما كان للبين من تأثير عظيم فى نظره فقد وقف عنده مرات متعددة ،وقام بتحليله من الناحية النفسية فى ضوء ماعرفه عن اصحابه ،فيقول :

---

(٨٦) انظر ص ١٢١ .

(٨٧) انظر ص ١٢٥ .

(٨٨) ص ١٢٥ .

(٨٩) ص ١٢٥ .

" ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ،ويتعمده خوفا من مرارة البين ،ومايحدث به من لوعة الاسف عند التفرق ،وهذا وان لم يكن عندى من المذاهب المرضية ،فهوحجة قاطعة على أن البين أصعب من الهجر ،وكيف لا وفى الناس من يلوذ بالهجر خوفا من البين ،ولم أجد أحدا فى الدنيا يلوذ بالبين خوفا من الهجر، انما يأخذ الناس أبدا الاسهل،ويتكلفون الاهون ٠٠٠٠" (٩٠)

ويواصل حديثه عن البين معللا " وانما قلنا انه ليس من المذاهب المحمودة لان اصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها ولعل ماتخوفوه لايكون،وليس من يتعجل المكروه ،وهو على غير يقين مما يتعجل ،بحكيم ٠٠٠ " (٩١)

والتهادى ساعة البين شئ ضرورى ٠٠٠ وتختلف الهدايا باختلاف المحبين ،واختلاف المواقف فهناك التهادى بالمساويك بعد مضغها ٠٠٠ وقد سجل ذلك بقوله : " ومارأيت قط متعاشقين الاوهما يتهاديان من خصل الشعر مبخرة بالعنبر،مرشوشة بماء الورد وقد جمعت فى أصلها بالمصطكى وبالشمع الابيض المصفى ٠ ولفت فى تطاريف الوشى والخز ،وماأشبه ذلك لتكون تذكرة عند البين ٠٠"(٩٢)

---

(٩٠) ص ١٢٥ ٠

(٩١) ص ١٢٥ – ١٢٦ ٠

(٩٢) ص ١٢٩،١٣٠ ٠

ثم يقول :" وأما تهادى المساويك بعد مضغها،والمصطكى اثـــر استعمالها فكثير بين كل متحابين قد حظر عليهما اللقاء " (٩٣)

ولابن حزم كلام لطيف فى القناعة بطيف المحبوب اذ هو منتهـى القناعة "ومن القنوع الرضا بمزار الطيف ،وتسليم الخيال،وهـذا انما يحدث عن ذكر لايفارق ،وعهد لايحول ،وفكر لاينقضى ،فـاذا نامت العيون،وهدأت الحركات سرى الطيف ... " . (٩٤)

ومن القناعة " أن يقنع المحب بالنظر الى الجدران ورؤيـة الحيطان التى تحتوى على من يحب ... ومنها أن يرى المحب مـن رأى محبوبه ،ويأنس به ومن أتى من بلاده ،وهذا كثير ..." (٩٥)

ثم استعرض بعض معانى الشعراء فى القنوع " أرادوا فيـه اظهار غرضهم،وابانة اقتدارهم على المعانى الغامضة،والمرامـى البعيدة ،وكل قال على قدر قوة طبعه ... فمنهم من قنع بأن السمـاء تظله هو ومحبوبه ... والارض تقلهما ... ومنهم من قنع باستوائهما فى احاطة الليل والنهار بهما ... وأشباه هذا ... " (٩٦)

ونقف عند هذا الحد من خبرات ابن حزم وتجاربه الشخصية فـى الحب ففى بعض ذلك بلاغ لمذهبه المتميز فى الحياة العاطفيـة

---

(٩٣) ص ١٣٠ .

(٩٤) ص ١٣١ .

(٩٥) ص ١٣١ .

(٩٦) ص ١٣٥ .

وطريقة معالجتها ...

ويروى أبو محمد قصص حب واقعية، ولكن عن بعض أصدقائه ومعارفه ... وهى تؤكد المنهج الذى التزمه فى بداية رسالته من ايراد ماصح عنده بنقل الثقات ... وترد هذه القصص على شكل اعترافات شأن الاعترافات التى اوردها عن نفسه .

وقد مهد لذلك بايراد ماصح من اعترافات بعض من أحب من الخلفاء المهديين والائمة الراشدين ... وذكر منهم بالاندلس عبدالرحمن بن معاوية وحبه لدعجاء... وعبدالرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبدالله ابنه، ومحمد بن عبدالرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه، والحكم المستنصر وفتنته بصبح أم هشام المؤيد بالله ... (٩٧)

ثم اندفع يروى قصص من احب من اصحابه الموثوق بهم ... وقد كان من اعجب ذلك ماروا‌ه عن صاحب له : أحب فى نومه، وهو أبو السرى عمار بن زياد يقول : " دخلت يوما على أبى السرى ..... فوجدته مفكرا مهتما فسألته عما به، فتمنع ساعة ثم قال لى : أعجوبة ماسمعت قط قلت : وماذاك ؟ قال : رأيت فى نومى الليلة جارية فاستيقظت وقد ذهب قلبى فيها، وهمت بها، وانى لفى اصعب حال من حبها ولقد بقى اياما كثيرة تزيد على الشهرمغموما ... الى أن عذلته وقلت له

---

(٩٧) انظر نفس المصدر ص ١٩، ٢٠ .

من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ... يقول : فما زلت به حتى سلاوماكاد ... " (٩٨)

ويروى لنا قصة عن يوسف بن هارون الرمادى الشاعر المعــــروف وقد رأى جارية عند باب العطارين ،فأخذت بمجامع قلبه ،فتبعهـــــا وهى ناهضة نحو القنطرة ... ثم يقول :

" فجازتها الى الموضع المعروف بالربض ،فلما صارت بيـــــــن رياض بنى مروان المبنية على قبورهم ... نظرت منه منفردا عــــــن الناس لاهمة له غيرها ،فانصرفت اليه فقالت له : مالك تمشــــــــى ورائى ؟ فأخبرها بعظيم بليته بها ،فقالت له : دع عنك هـــــــذا ولاتطلب فضيحتى ،فلامطمع لك فى البته ... فقال لها : انى أقنــــع بالنظر،فقالت : ذلك مباح لك ،فقال لها : أحرة أنت أم مملوكـــة ؟ فقالت : مملوكة . فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : خلوة. قال : ولمن أنت ؟ فقالت له : علمك والله بما فى السماء السابعة أقرب اليـــك مما سألت عنه ... فدع المحال ..." ثم وعدته بأنه يراها فـــــــى هذا المكان فى نفس هذه الساعة من كل جمعة . ثم تفرقا ... يقـــول " فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض ... فما وقعت لها علـــى خبر ... وان فى قلبى منها لاحر من الجمر ... وهى خلوة التـــــى يتغزل بها فى شعره " . (٩٩) فذلك شأن من أحب من نظرة واحــــدة

---

(٩٨) نفس المصدر ص ٣٧ .

(٩٩) نفس المصدر ص ٤٠،٤١،٤٢ .

بالنسبة للرجال ... وأما النساء فقد روى عنهن هذا الخبر الذى يقول فيه : " وانى لاعلم فتى من أبناء الكتاب رأته امرأة سرية النشأة ،عالية المنصب غليظة الحجاب ،وهو مجتاز،ورأته فى موضع تطلع منه فى منزلها،فعلقته وعلقها،وتهاديا المراسلة زمانا على ارق من حد السيف ... " . (١٠٠)

ثم تعرض لاسرار بعض الكبراء فى عصره ... ومن ذلك أن بعض الشعراء بقرطبة " قال شعرا تغزل فيه بصبح أم المؤيد ... فغنت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبى عامر ليبتاعها فأمر بقتلها ..."(١٠١)

وكان الحب أيضا سببا فى هلاك آل مغيث عندما تغزل أحمد بن مغيث باحدى بنات الخلفاء ... " (١٠٢)

وبعض المحبين يصل بهم الوله الى اظهار الناس على مايقع منهم تجاه المحبوب دون أن يتنبهوا لذلك حتى يقعوا فى الخطأ ... ومن ذلك ماروآه عن موسى بن عاصم اذ حدثه بحديث حب له فقال " كنت بين يدى أبى الفتح والدى رحمه الله ،وقد آمرنى بكتاب أكتبه ،اذ لمحت عينى جارية كنت أكلف بها،فلم أملك نفسى

---

(١٠٠) نفس المصدر ص ٦٣،٦٤ .

(١٠١) نفس المصدر ص ٦٤ - ٦٥ .

(١٠٢) نفس المصدر ص ٦٤ - ٦٥ .

ورميت الكتاب عن يدى ،وبادرت نحوها ،وبهت أبى ،وظن أنه عرض لى عارض ،ثم راجعنى عقلى فمسحت وجهى ،ثم عدت،واعتذرت بأنه غلبنى الرعاف " (١٠٣) ولكن هذا ليس بحسن لأنه كمايقول ابن حزم " داعية نفار المحبوب ،ولانه فساد فى التدبير ،وضعف فى السياسة "٠ (١٠٤)

والملاحظ من خلال (طوق الحمامة) أن الاماء فى المجتمع الاندلسى كن يمارسن حريتهن العاطفية دون ضغط ٠٠٠ ومن ذلك ماذكر عن سعيد ابن منذر بن سعيد ،صاحب صلاة جامع قرطبة ،من انه " كانت له جارية يحبها حبا شديدا ٠٠٠ فعرض عليها أن يعتقها ،ويتزوجها ،فقالت له ساخرة به وكان عظيم اللحية : ان لحيتك أستبشع عظمها ،فان حذفت منها كان ماترغبه ٠٠٠ يقول أبو محمد : فما كان منه الا أن : " أعمل الجلمين فيها حتى لطفت ثم دعا بجماعة شهود ،وأشهدهم على عتقها ثم خطبها لنفسه فلم ترض به ،وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر اعرض عليها أنى أخطبها أنا ففعل فأجابت اليه ،فتزوجها فى ذلك المجلس بعينه ٠٠" (١٠٥) فيعلق أبو محمد على ذلك بقوله :

---

(١٠٣) نفس المصدر ص ٦٤ — ٦٥ ٠

(١٠٤) ص ٦٥ ٠

(١٠٥) ص ٦٩ — ٧٠ ٠

" ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه،واجتهاده" (١٠٦)

فهذا نمط يذكره ابن حزم عمن يثق به ،وهى فى الحقيقة قصة عجيبة تحدث من فقيه مشهور سلم قياده لهوى جارية من جوارى منزله وفى آخر الامر تفضحه امام الناس بحلق بعض من لحيته... وتتزوج من اخيه .

ويقص علينا خبر مغامرة جريئة لجارية هامت بفتى يجهل حبها له ... ولكنها فى سبيل الوصول اليه خرقت الاعراف المرعية والتقاليد الاجتماعية فيقول عنها :

" وانى لاعرف جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء وهو لاعلم عنده ،وكثرغمها وطال آسفها،الى أن ضنيت بحبه ،وهو بغرارة الصبى لايشعر،ويمنعها من ابداء امرها اليه الحياء منه لانها كانت بكرا بخاتمها مع الاجلال له عن الهجوم عليه بما لاتدرى لعله لايوافقه ،فلما تمادى الامر ،وكانا الفين فى النشأة شكت ذلك الى امرأة جزلة الرأى ،كانت تثق بها لتوليها تربيتها فقالت لها : عرضى له بالشعر . ففعلت المرة بعد المرة،وهو لايأبه في كل هذا،ولقد كان لقنا ذكيا لم يظن ذلك فيميل الى تنتيش الكلام بوهمه، الى أن عيل صبرها،وضاق صدرها،ولم تمسك نفسها فى قعدة كانت لها معه فى بعض الليالى منفردين،ولقد كان

---

(١٠٦) ص ٧٠ .

يعلم الله عفيفا متصاونا بعيدا عن المعاصى ،فلما حان قيامهـا عنه بدرت اليه فقبلته فى فمه ،شمولت فى ذلك الحين ،ولم تكلمه بكلمة ،وهى تتهادى فى مشيها ... يقول أبو محمد عن الغلام : فبهت وسقط فى يده وفت فى عضده ،ووجد فى كبده ،وعلته وجمة ،فما هو الا أن غابت ،ووقع فى شرك الردى ،واشتعلت فى قلبه النار ،وتصعدت أنفاسه ،وترادفت أوجاله ،وكثر قلقه ،وطال أرقه ،فما أغمض تلك الليلة عينا ،وكان هذا بدء الحب بينهما دهرا ... الى أن جذت جملتها يد النوى ... وان هذا لمن مصائد ابليس ودواعى الهوى التى لايقف لها أحد ... الامن عصمه الله عز وجل " . (١٠٧)

وهذا نمط من الوصل عجيب ،يدل على أن الحب يفعل الغرائب لدرجة أن يفقد الانسان لبه فى وقت من الاوقات .

ويسوق لنا ايضا فى حيل الوصل قصة فتى وجارية " كان يكلف كل منهما بصاحبه ،فكانا يضطجعان اذا حضرهما احد وبينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ،ويلتقي رأساهما وراء المسند ويقبل كل واحد منهما صاحبه ،ولايريان وكأنهما انما يتمددان من الكلل ،ولقد كان بلغ منتكافيهما فى المودة امرا عظيما ،الى أن كان الفتى المحب ربما استطال عليها ... " (١٠٨)

---

(١٠٧) انظر نفس المصدر ص ٩٢ .

(١٠٨) انظر نفس المصدر ص ٩٤ .

ويروى لنا قصة أخرى عن امرأة كان يشق بها : " أنها شاهدت فتى وجارية ،كان يجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وجد، اجتمعا في مكان على طرب ،وفى يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه ،فجرها جرا زائدا فقطع ابهامه قطعا لطيفا ظهر فيه دم ،وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة ،فصرفت يدها ،وخرقتها واخرجت منها فضلة شد بها ابهامه ... " (١٠٩) ويعلق أبو محمد قائلا :

" وأما هذا الفعل للمحب فقليل فيمايجب عليه ،وفرض لازم — وشريعة مؤداة وكيف لا،وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها ... " (١١٠) فتأمل قوله : " شريعة مؤداة " ... انه يدل على عظم امر الاخلاص فى الحب عند أبى محمد .

وهذه قصة عجيبة يستمر فيها الوصل حتى بعد الموت ،حيث تبيت الزوجة المحبة رفقة زوجها الميت فى دثار واحد ... يقول :

" وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمى المعروف بابن برطال ... وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ابن الوزير يحيى بن اسحاق فعاجلته المنية وهما فى آغض عيشهما ،وأنضر سرورهما ،فبلغ من اسفها عليه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات ... وجعلته آخر العهد به وبوصله ،ثم لم يفارقها الاسف بعد الى حين

---

(١٠٩) انظر نفس المصدر ص ٩٥ .

(١١٠) ص ٩٥ .

موتهـــا ... " (١١١)

وهذا خبر يرويه عمن يثق به ويجله من اهل البيوتات يقـــول فيـــه :

" ولقد حدثنى ثقة من اخوانى جليل من آهل البيوتات ، آنه علـق فى صباه جارية كانت فى بعض دور آله ، وكان ممنوعا منها فهام عقله بها ، قال لى : فتنزهنا يوما الى بعض ضياعنا بالسهلة ، غربى قرطبـة مع بعض أعمامى ، فتمشينا فى البساتين وأبعدنا عن المنازل ، وانبسطنا على الانهار ، الى أن غيمت السماء وأقبل الغيث فلم يكن بالحضـــرة من الغطاء مايقى الجميع ... قال : فأمر عمى ببعض الاغطيـــــــة فألقى على ، وأمرها بالاكتنان معى ، فظن بما شئت من التمكن علـــى الملأ وهم لايشعرون ويالك من جمع كخلاء ، واحتفال كانفراد ... قـــال لى : فوالله لانسيت ذلك اليوم أبدا ... ولعهدى به ، وهو يحدثنـــى بهذا الحديث واعضاؤه كلها تضحك ، وهو يهتز فرحا على بعد العهـــد وامتداد الزمن ..." . (١١٢)

ولايفتأ أبو محمد يحدثنا عن بديع الوصل ... فهذه قصـــــة احد اخوانه كان يهوى فتاة فى المنزل المصاقب لمنزله " فكانـــت تقف له فى ذلك الموضع وكان فيه بعض البعد ، فتسلم عليه ويدهـــا

---

(١١١) ص ٩٥، ٩٦ .

(١١٢) ص ٩٥، ٩٦ .

ملفوفة في قميصها،فخاطبها مستخبرا لها عن ذلك ،فأجابته
انه ربما أحس من أمرنا شئ فوقف لك غيري فسلم عليك ،فرددت عليه
فصح الظن،فهذه علامة بيني وبينك ،فاذا رأيت يدا مكشوفة
تشير نحوك بالسلام فليست يدى فلاتجاوب ... " (١١٣)

ومما يعرض للمحب الملل ... فيحدثنا أبو محمد عن أبي
عامر محمد بن أبي عامر أنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ... حتى
يمتلكها ... فاذا كان ذلك بدأ ينفر منها ... وكان يتمتع بجمال
وحسن وجه ،وكمال صورة عجيبة ... وكان الناس يجتمعون عند بابه
لالشئ سوى النظر اليه ... ويذكر ابن حزم أنه يعرف " جارية منهن
كانت تسمى عفراء يقول "وغهدى بها لاتستتر بمحبته حيثما جلست
ولاتجف دموعها ... " وهو ملول حتى من ذكر اسمه فضلا عن غير ذلك
ولقد مات من محبته جوار كن علقن أوهامهن به ،ورثين له ،فخانهن
مما أملنه منه فصرن رهائن البلى ،وقتلتهن الوحدة ... (١١٤) .

وماهذه الجارية الاواحدة منهن ...

ويورد لنا الشيخ رحمه الله قصة غريبة جدا في وفاء المحبوب
لمحبه بعد موته فيقول : " ولقد حدثتني امرأة أثق بها، أنها
رأت في دار محمد بن احمد بن وهب المعروف بابن الركيزة من ولد

---

(١١٣) ص ٩٧ .
(١١٤) طوق الحمامة ص ١٠٤، ١٠٥ .

بدر الداخل مع الامام عبدالرحمن بن معاوية رضى الله عنه جاريـــة رائعة جميلة ،كان لها مولى فجاءته المنية فبيعت فى تركته فأبـت أن ترضى بالرجال بعده ،وماجامعها رجل الى أن لقيت الله عز وجـل وكانت تحسن الغناء ،فأنكرت علمها به ،ورضيت بالخدمة ،والخـروج عن جملة المتخذات للنسل ،واللذة ،والحال الحسنة ،وفاء منها لمـن قد دثر ووارته الارض ،والتأمت عليه الصفائح ،ولقد رامها سيدهـا المذكور أن يضمها الى فراشه مع سائر جواريه ويخرجهامما هى فيـه فأبت ،فضربها غير مرة وأوقع بها الادب ،فصبرت على ذلك كلـه فأقامت على امتناعها ،وان هذا من الوفاء غريب جدا " . (١١٥)

وهذه قصة ممتعة طريفة يحكيها عن فتى يهوى جارية فى الصبـا فكانا يتراسلان وكان السفير بينهما أحد اقرانه الذى استطـاع بغدره أن يستأثر بها دونه واليك القصة :

" ولقد حدثنى القاضى يونس بن عبدالله قال : أذكر فى الصبـا جارية فى بعض السدد يهواها فتى من اهل الادب من أبناء الملـوك وتهواه ،ويتراسلان وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى مـن اترابه ،كان يصل فلما عرضت الجارية للبيع ،اراد الذى كان يحبهـا ابتياعها ،فبدر الذى كان رسولا فاشتراها ،فدخل عليها يومـا فوجدها قد فتحت درجا لها تطلب فيه بعض حوائجها ،فأتى اليهـا

---

(١١٥) طوق الحمامة ص ١١١،١١٢ .

وجعل يفتش الدرج،فخرج اليه كتاب من ذلك الفتى الذى كان يهواها مضمخا بالغالية ،مصونا مكرما،فغضب وقال : من أين هذا يافاسقة ؟ قالت : أنت سقته الى . فقال : لعله محدث بعد ذاك الحين فقالت : ماهو الا من قديم تلك التى تعرف ،قال : فكأنما القمته حجرا فسقط فى يديه وسكت ..." . (١١٦)

ويروى قصة تتعلق بصديق لهداره ألمرية ـ ولعله الصديق الذى أشار اليه فى المقدمة من أنه اقترح عليه تصنيف رسالة فى الحب ـ وقد عنت له حوائج الى شاطبة فقصدها نازلا بها لدى أبى محمد مدة اقامته فيها ،وكان له بألمرية علاقة هى أكبر همه ،وادهى غمه ،وكان يؤمل بتها وفراغ أسبابه ،وأن يوشك بالرجعة ويسرع الاوبة ... ولكنه لم يرجع الى هدفه بسبب الجيوش والعسكر التى ألبها الموفق صاحب الجزائر لمنابذة خيران صاحب ألمرية فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب ،يقول أبو محمد : " فتضاعف كربه اذ لم يجد الى الانصراف سبيلا البتة ،وكاد يطفأ وصار لايأنس بغير الوحدة ،ولايلجأ الا الى الزفير والوجوم ،ولعمرى لقد كان ممن لم أقدر قط فيه أن قلبه يذعن للود،ولاشراسة طبعه تجيب الى الهوى ... " (١١٧)

---

(١١٦) نفس المصدر ص ١١٦ .

(١١٧) ص ١١٨ .

ويورد لنا هذه القصة، التي يمكن ان تضرب مثلا لمنتهى القناعة والرضا فى الحب ... يقول فيها : " وأخبرنى بعض اخوانى عن سليمان بن احمد الشاعر، أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية وذكر أنه كان فى غاية الجمال،فشاهده يوما فى بعض المنتزهات ماشيا،وامرأة خلفه تنظر اليه،فلما ابعد اتت الى المكان الذى قد اثر فيه مشيه فجعلت تقبله،وتلثم الارض التى فيها اثره".(١١٨)

ويقص علينا خبر جارية بارعة الجمال ذات مكانة سامقة وشرف رفيع من سلالة القادة كاد الحب يودى بها،ويذهب عقلها فيقول " وانى لاعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد،وقد بلغ بها حب فتى من اخوانى جدا من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الاسود وكادت تختلط،واشتهر الامر ،وشاع جدا حتى علمه، الى انتدوركت بالعلاج،وهذا انما يتولد عن ادمان الفكر فاذا غلبت الفكرة،وتمكن الخلط السوداوي ،خرج الامر عن حد الحب الى حد الوله والجنون ،واذا اغفل التداوى فى الاول الى المعاناة قوى جدا،ولم يوجد له دواء سوى الوصال ... " (١١٩)

ويروى لنا خبرا عمن يذهب الحب بعقله فيقول :

" حدثنى جعفر مولى أحمد بن محمد بن حدير أن سبب اختلاط

---

(١١٨) ص ١٣٠ .

(١١٩) ص ١٣٨ .

مروان بن يحيى بن أحمد بن حدير وذهاب عقله ، اعتلاقه بجارية لاخيه فمنعها منه وباعها لغيره ،وماكان فى اخوته مثله ،ولااتم أدبا منه " . (١٢٠)

وهناك قصة مشابهة لها يقول فيها :

" وأخبرنى أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبى عبدة أن سبب جنون يحيى بن محمد بن احمد بن عباس بن أبى عبدة ،بيع جارية له كان يجد بها وجدا شديدا ،كانت أمه باعتها وذهبت الى انكاحه من بعض العامريات " . (١٢١)

ويعلق ابن حزم على هاتين القصتين قائلا :

"فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولهما واختلطا ،وصارا فى القيود والاغلال " . (١٢٢)

ويخبرنا عن جارية لبعض الرؤساء بلغه فى جهتها شىء لم يكن يوجب السخط،ولكنه باعها ،فجزعت لذلك جزعا شديدا ،ومافارقها النحول ،والاسف ،ولابان عن عينيها الدمع الى ان سلت،وكان ذلك سبب موتها ،ولم تعش بعد خروجها عنه الاأشهرا ... يقول :

" ولقد أخبرتنى عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وهى

---

(١٢٠) ص ١٣٩ .

(١٢١) ص ١٣٩ .

(١٢٢) ص ١٣٩ .

قد صارت كالخيوط نحولا ورقة ،فقالت لها : أحسب هذا الذى بك من محبتك لفلان ؟ فتنفست الصعداء وقالت : والله لانسيته أبدا وان كان جفانى بلا سبب ،وماعاشت بعد هذا القول الايسيرا" ٠(١٢٣)

وفى قصة لاخيه أبى بكر رحمه الله مع زوجته عاتكة بنت قند صاحب الثغر الاعلى ايام المنصور ٠٠٠ وهى كما يقول : " كانت التى لامرمى وراءها فى جمالها ،وكريم خلالها ،ولاتأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها ،وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه ،تغضب كل واحد منهما الكلمة التى لاقدر لها فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام ٠٠٠ وكانت قد شغفها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدةكلفها به ،حتى صارت كالخيال المتوسم دنفا ،لايلهيها من الدنيا شىء ،ولاتسر من أموالها على عرضها وتكاثرها الى أن توفى أخى رحمه الله فى الطاعون ،فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل ،والمرض ،والذبول ،الى أن ماتت بعده بعام ٠٠٠ ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جواريها أنها كانت تقول بعده : مايقوى صبرى ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدةبعد وفاته الاسرورى وتيقنى أنه لايضمه وامرأة مضجع أبدا ٠ فقد أمنت هذا الذى ماكنت أتخوف غيره ،وأعظم امالى اليوم اللحاق به " ٠ (١٢٤)

---

(١٢٣) ص ١٥٣ ٠

(١٢٤) ص ١٥٣ - ١٥٤ ٠

ويذكر ممن مات بسبب العشق أيضا أحد فقهاء بغداد،ولم يصرح باسمه يقول :

" حدثنى أبو القاسم الهمذانى رحمه الله قال : " كان معنا ببغداد أخ لعبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه، الذى عليه مدار الفتيا بقرطبة،وكان أعلم من أخيه ،وأجل مقدارا ،ماكان فى أصحابنا ببغداد مثله،وأنه اجتاز يوما بدرب قطنه ،فى زقاق لاينفذ،فدخل فيه ،فرأى فى أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه فقالت له : ياهذا ان الدرب لاينفذ ،قال : فنظر اليها فهام بها قال : وانصرف الينا ،فتزايد عليه امرها،وخشى الفتنة فخرج الى البصرة فمات بها عشقا رحمه الله ... وكان فيما ذكر من الصالحين ... " (١٢٥)

وفى الجمع بين المحبين يروى قصة عن بعض ملوك البربر تحكى محاولة انتحار رجل اندلسى بسبب جارية باعها نتيجة فاقة أصابته ،من رجل من أهل ذلك البلد ،ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع فلما حصلت عند المشترى ،كادت نفس الاندلسي تخرج ،فأتى الى الذى ابتاعها منه ،وحكمه فى ماله أجمع وفى نفسه ،فأبى عليه ،فتحمل عليه بأهل البلد ،فلم يسعف منهم أحد فكاد عقله أن يذهب ورأى أن يتصدى الى الملك،فتعرض له وصاح فسمعه فأمر بادخاله ،والملك قاعد فى علية له مشرفة عالية فوصل

---

(١٢٥) ص ١٥٩ .

اليه ،فلما مثل بين يديه أخبره بقصته،واسترحمه وتضرع اليه،،فرق له
الملك فأمر باحضار الرجل المبتاع فحضر،فقال له : هذا رجـــل
غريب ،وهو كما تراه ،وأنا شفيعه اليك . فأبى المبتاع ،وقال :أنا
أشد حبا لها منه ،وأخشى ان صرفتها أن استغيث بك غدا،وأنــــا
فى أسوأ من حالته ... فعرض له الملك ومن حواليه من أموالهـــم
فأبى ولج ،واعتذر بمحبته لها . فلما طال المجلس،ولم يرو منـــه
البته جنوحا الى الاسعاف،قال للاندلسى : ياهذا مالك بيـــدى
أكثر مما ترى ،وقد جهدت لك بأبلغ سعى ،وهو تراه يعتذر بأنه فيها
أحب منك ،وأنه يخشى على نفسه شرا مما أنت فيه ،فاصبر لما قضـى
الله عليك ... فقال له الاندلسى : فمالى بيدك حيلة ؟ قال له : وهل
هاهنا غير الرغبة والبذل ما أستطيع لك أكثر ... فلما يئس الاندلسى
منها جمع يديه ورجليه ، وانصب من أعلى العلية الى الارض،فارتاع
الملك وصرخ،فابتدر الغلمان من أسفل فقضى أنه لم يتأذ فى ذلــك
الوقوع كبير أذى ،فصعد به الى الملك ،فقال له : ماذا أردت بهذا؟
فقال :أيها الملك لاسبيل لى الى الحياة بعدها،ثم هم أن يرمـــى
نفسه ثانية فمنع ... فقال له الملك : الله أكبر ـ قد ظهر وجـــه
الحكم فى هذه المسألة ،ثم التفت الى المشترى ،فقال : ياهـــذا
انك ذكرت أنك أود لها منه ،وتخاف أن تصير فى مثل حاله ،فقـــال :
نعم ،قال : فان صاحبك هذا أبدى عنوان محبته ،وقذف بنفسه ،يريـــد
الموت لولا أن الله عز وجل ،وقاه ،فأنت قم فصحح حبك،وترام مـــن

أعلى هذه القصبة ،كما فعل صاحبك ـ فان مت قبأجلك ـ وان عشت كنت أولى بالجارية ، اذ هى فى يدك ،ويمضى صاحبك عنك،وان أبيت نزعت الجارية منك رغما وذفعتها اليه ...

فتمنع ثم قال : أترامى ،فلما قرب من الباب ونظر الى الهوى تحته رجع القهقرى ،فقال له الملك : هو والله ماقلت،فهم ثم نكل ،فلما لم يقدم قال له الملك : لاتتلاعب بنا ،ياغلمان خذوا بيديه وارموا به الى الارض ،فلما رأى العزيمة ،قال : أيها الملك ،قد طابت نفسى بالجارية ،فقال : جزاك الله خيرا ،فاشتراها منه ،ودفعها الى باشعها وانصرفا " .... (١٢٦)

وحكى قصة عن ثقة من اخوانه كان مشهورا بالفقه والصلابة فى دينه ،وقع فى حب جارية ،فنفرت منه ... فزاد به الوجد الى أن حملة فرط حبه لها مع عمى الصبا أن نذر أنه متى نال منها مراده تاب الى الله توبة صادقة ،قال ابن حزم : فمرت الليالى والايام حتى اذعنت ... فسأله : أبا فلان وفيت بعهدك ؟ فقال : إى والله ... يقول أبو محمد : فضحكت ... " (١٢٧)

والهوى اذا غلب صاحبه أوقعه المهالك ... فهذا خلف مولى هشام بن سليمان بن الناصر،طلب بسبب جارية له بقرطبة .." (١٢٨)

---

(١٢٦) ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(١٢٧) ص ١٦٣ .

(١٢٨) ص ١٧٤ .

وهذا أبو بكر محمد بن الوزير عبدالرحمن بن الليث ، يفـــر هاربا الى محلة البرابر بسبب جارية يكلف بها ... (١٢٩)

وتلحظ دائما أن أبا محمد ينتصر للعفة حين يقع الصراع بيـــن الشهوة الحيوانية ،وقواعد الاخلاق ... وفى ذلك يذكر خبرا طريفـــا عن شاب حسن الوجه من اهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا ... وكان لـــه أخ فى الله زاره ذات ليلة ،وبات عنده فخرج صاحب المنزل ليقضـــى بعض حاجته ... وكانت له زوجة غاية فى الحسن ... فتأخر رب المنزل ولم يمكنه العودة فعلمت الزوجة بفوات الوقت ،وأن زوجها لايمكنـــه المجىء تلك الليلة ،فتاقت نفسها الى ذلك الفتى فبرزت اليـــــه ودعته الى نفسها ... ولاثالث لهما الا الله عز وجل ،فهم بهـــا ثم ثاب الى عقله ،وفكر فى الله عز وجل فوضع اصبعه على الســـراج فتفقع ثم قال : يانفس ذوقى هذا ،وأين هذا من نار جهنم فهـــال المرأة مارأت ،ثم عاودته ،فعاودته الشهوة المركبة فى الانســـان فعاد الى الفعلة الاولى ،فانبلج الصباح ،وسبابته قد اصطلتهـــا النار ... فهذا منتهى العفة ،والخشية من عذاب جهنم ... (١٣٠) ... أعاذنا الله منه .

وفى عفة المرأة يسوق خبرا حدثته به امرأة يثق بهـــــا

---

(١٢٩) ص ١٧٤، ١٧٥ .

(١٣٠) ص ١٨٥ .

أنه علقها فتى مثلها فى الحسن ،وعلقته ،وشاع القول عليهما فاجتمعا يوماخاليين ،فقال : هلمى نحقق مايقال فينا ،فقالت لاوالله لاكان هذا أبدا ،وأنا أقرأ قول الله تعالى : " الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين" ... قالت : فما مضى قليل حتى اجتمعا فى حلال ... " (١٣١)

وهناك شخص خلا بجارية كانت له مفاركة فى الصبا ،فتعرضت لبعض تلك المعانى فقال لها : كلا ، ان من شكر نعمة الله فيما منحنى من وصالك الذى كان اقصى آمالى ، أن أجتنب هواى لامره فيعلق ابن حزم قائلا : ولعمرى ان هذا لغريب ،فيما خلا من الازمان،فكيف فى مثل هذا الزمان الذى ذهب خيره ،وأتى شره ". (١٣٢)

* * *

تلك باقة مونقة من القصص الواقعى النضير ،والملحوظات الذكية النافذة لابى محمد على بن سعيد فى (عاطفة الحب) وأحوال المحبين ... وبها ينفرد عنجملة من ألف فى هذا الموضوع الدقيق قبل كتابه المتميز (طوق الحمامة)وبعده ... ولولا أنه وزع أقاصيصه بين أبواب كتابه الثلاثين التى التزم فيها التقسيم المنطقى ...

---

(١٣١) ص ١٨٦ .

(١٣٢) ص ١٨٦ .

ولولا بعض اللمحات الأفلاطونية ،وبعض الملامح العلمية والتحليلات النفسية لقلنا ان هذه مجموعة قصص قصيرة أصدرها ابن حزم في القرن الخامس الهجرى .

وعلى الجملة فان هذه الأقاصيص القصيرة الممتعة الفواحة تعتبر ترجمة ذاتية لحياة ابن حزم العاطفية ... وتعتبر في الوقت نفسه مرآة شديدة الصفاء،تعكس ملامح (الحب) فى عصره وبخاصة فى قرطبة ... وهذا ليس بالشئ القليل ...

ولعل الفارق الدقيق بين ابن حزم وغيره ممن تقدمه او تأخر عنه ممن كتبوا فى هذه القضية أن كتابة أبى محمد تنبع من الداخل أما كتابات غيره ،فتجئ من الخارج ... وبعبارة دقيقة يمكن القول : انكتابة ابن حزم تجربة قلبية ذاتية ... أما كتابات غيره فتجربة عقلية ثقافية .

وسنفرد لذلك مزيدا من التفصيل فى الفصل الثالث الذى يلى هذا الفصل والذى نقفه على ابراز (الملامح الفنية ،والفكرية للطوق) ...

الفصل الثالث

الملامح الفنية والفكرية في « طوق الحمامة »

يعتبر كتاب طوق الحمامة من أوائل مؤلفات ابن حزم رحمه اللـــه ، فقد ألفه فى حوالى السنة الثامنة عشرة بعد الاربعمائة من الهجـــرة ، تلبية لرغبة صديق له يسكن " ألمرية " يطلب منه تأليف رسالة فـــى " صفة الحب ومعاينه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيـــل الحقيقة لا متزيدا ، ولا مفتنا ولكن مورد لما يحضره على وجهه ،وبحسب وقوعه ... " وقد قام بتأليفه فى فترة شبابه قريبا من السادسة والعشرين من عمره ... وهو بهذه المثابة يعد نموذجا لايام سعيدة قضاها فى قرطبـــة وقد وجد هذا الكتاب اهتماما كبيرا من الدارسين العرب والمستشرقـين بحسبه أول دراسة تحليلية تقوم على التجارب الخاصة لعاطفة الحـــب والمحبين وقد أشعبت المكتبات الغربية بترجمات هذا الكتاب حيث توفـــر على ترجمته عدد من المستشرقين وأولهم " بتروف " الروسى ،و " نيكـــل" الامريكى ،و " برشيه " الفرنسى " و " جارثياجومث " الاسبانى .(١)

ويعتبر هذا الكتاب فلسفة خاصة بابن حزم فى موضوع الحب لانــــه يعتمد على التجربـــة والملاحظـــة ،والتحليل النفسى ، واستخـــلاص النتائج...فهو يعرض تجارب عاشها بنفسه ،وأخرى رواهـــا عن غــــيره

---

(١) انظر طوق الحمامة ـ ت فاروق سعد ،ص ٩ .

بشىء من التفصيل ... (٢)

وتاريخ وضع هذا الكتاب يحتاج منا الى وقفة متأملة لنعـــرف متى بحث هذه القضية فتأريخ وضعه يمكن أن يستخلص من نفس هـــذا الكتاب اذ يشير فيه ابن حزم الى ماكان بين مجاهد صاحـــب الجزائر الشرقية ،وخيران صاحب ألمرية من منابذة ومحاربة ...ويفهم ذلك من كلام أبى محمد الذى يقول فيه : " ولعهدى بصديق لـــى داره ألمرية فعنت له حاجة الى شاطبة ،فقصدها وكان نازلا بهـــا فى منزلى مدة اقامتى بها ... وكان له بألمرية علاقة هى أكبـــر همه ... وأدهى غمه ... الخ القصة " . وقد وقعت هذه الخصومـــة فى ربيع الثانى سنة ٤١٧هـ واذا فلابد أنيكون تأليف الكتاب جـــاء بعد ذلك لورود خبرها فى أثنائه ... " وهناك اشارة أخرى تجعـــل تأليف هذا الكتاب قبل سنة ٤٢٠هـ وهى السنة التى توفى فيهـــا أو نحوها الحكم بن المنذر بن سعيد كما يذكر ذلك ابن بشكـــوال فقد أشار اليه ابن حزم فى سياق بعض الاخبار،بقوله : " وحكـــم المذكور فى الحياة ،فى حين كتابتى اليك بهذه الرسالة . وقـــد كف بصره ،وأسن جدا ... " .

وهناك اشارة ثالثة تقصر هذا المدى موجودة فى سياق قصيـــدة مدح بها هشام بن محمد تدل على أن مدحته له كانت قبل أن يلـــى

---

(٢) انظر الادب الاندلسى ـ احمد هيكل ص ٣٩٥ .

شئون الحكم ،وبما أن هشاما بويع بالخلافة سنة ٤١٨هـ فى ربيع الثانى واذن فلابد أن يكون ابن حزم قد وضع كتابه قبل هذا التاريخ ... وهكذا نستطيع القول بأن ابن حزم كتب (طوق الحمامة) فى الفترة مابين ربيع الثانى سنة ٤١٧هـ وربيع الثانى سنة ٤١٨هـ . (٣)

ولتأليف هذا الكتاب دواع وملابسات لابد من الوقوف عندها فمن المعروف أن أبامحمد رحمه الله كان من كبار فقهاء الاندلس وقد ملأ علمه الدنيا ،وشغل الناس ... وتأليفه فى الحب لابد أن يحدث ضجة فى الوسط الذى ينظر اليه من زاوية أنه فقيه فكيف حدث ذلك ؟

للاجابة على ذلك ... لابد من معرفة الاطوار الاولى لحياته الباكرة ... لانها تبرز التبدلات التى عاشها ابن حزم ... وتقفنا على الدوافع الكامنة وراء هذا التأليف ويجب الا نسلم لابن حزم حينما يذكر أنه ألف هذا الكتاب بطلب من صديق له يقطن ألمرية فلعل هذا القول منه كان من قبيل العادة التى جرى عليها القدماء فى ذكر أسباب مؤلفاتهم ،واذا كان هذا قد حصل بالفعل فقد صادف حصوله هوى فى نفسه ... فالواقع أن كتاب طوق الحمامة

---

(٣) انظر الصلة ص ١٤٩ .

وابن حزم (صورة أندلسية) للحاجرى ص ١٥٤ .

صدى لحياته الباكرة التى قضاها فى قرطبة واعتبرها أجمل أيـــــام عمره ... وبما أن نشأته الاولى كانت بين النساء اللاتى قمـــــن على تربيته وتعليمه ... ولذلك عرف من طباعهن مالم يتح لغيـــره ... وخبر من أسرارهنماجعله قليل الثقة بهن ... فليس بغريـــب اذن أن يؤلف كتابا بهذه المثابة يودعه تجاربه الحميمة كمـــا يعكسها جسه المرهف ،وعقله الذكى ... هذا الى ماعرف عنه من صراحة فى الرأى ومقدرة فى الجدل ،وقوة المنطق ،وميل الى الافضـــاء ... وربما قصد من وراء ذلك أن يعرف عامة الناس مايحدث فـــى قصور خاصتهم،من أمراء ووزراء،مالم يتح لهم أن يعرفوه ...

ولكن الغريب حقا أن يكتب ابن حزم أشياء صريحة فـــــى الحب ينسبها الى نفسه ... تدل دلالة قاطعة على تورطه فيه ووقوعه فى أغلاله وقيوده ... فكثيرا ما أورد " وعنى أخبرك ... وعنـــى أحدثك ... وبأنى أحد من دهى بهذه الفادحة ... ونحو ذلك متجاهـلا مكانته المرموقة كفقيه من كبار الفقهاء فى بلاده ... مغضيـــا عما عسى أن يناله من وراء ذلك من لوم وتثريب .

ولكن ذلك الاستغراب يزول عندما يتحدث ابن حزم عن الحب فـــى مقدمة كتابه فنجده يقول : " انه ليس بمنكر فى الديانـــة ولامحظور فى الشريعة " ... (٤)

---

(٤) انظر طوق الحمامة ص ٥ .

قام ابن حزم بتقسيم كتابه تقسيما منطقيا،فبدأ بشرح أسباب تأليفه له وتحدث عن طريقة تناوله اياه ... وجاء الكتاب فى ثلاثين بابا .

منها : فى أصول الحب عشرة أبواب ... ومنها فى صفات الحب وأغراضه المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابا،وستة أبواب فى الآفات الداخلة فى الحب ،وفى فضل التعفف ... وان كان هو قد استجاز تقسيما آخر لاسباب منها استحقاق بعض هذه الابواب فى التقدم على غيرها جاعلا الضد الى جانب ضده .

ومن خلال هذا المنهج يرى أن طوق الحمامة عندما عرض للحب لايعول فيه صاحبه على الاخبار المأثورة فى الحب او الآثار المروية المحفوظة مما تقدم به الزمان أو اختلف فيه المكان بل ان ابن حزم قد تنصل تنصلا من هذه الاخبار فى مقدمته ... بل أراد أن يعبر به عن الحالة التى كان يعيشها فى قرطبة ... تلك الحالة التى يعبر عنها بقوله : " وما انتفعت بعيش ولافارقنى الاطراق ،والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الاحبة ،وانه لشجى يعتادنى وولوع همماينفك يطرقنى ،ولقد نغص تذكرى مامضى كل عيش آستأنفه ... وانى لقتيل الهموم فى عداد الاحياء ،ودفين الاسى بين اهل الدنيا ،والله المحمود على كل حال ،لااله الا هو " ... فكأن أبا محمد أراد أن يسترد حياته تلك فى قرطبة على النحو الذى يستطيع أن يملكه ويحققه ،فكان له ذلك على هذا الاسلوب ،وكان كتاب

(طوق الحمامة) فهو اذا شئنا كان صورة من حياته التى تعبر عن ذكريات عهد النضارة والكنز الذهبى الذى يدخره الانسان فى خياله ليرجع اليه ... واذا شئنا كان صورة من تلك الحالة النفسية التى استبدت به بعد خروجه من قرطبة، ومايداخلها من يأس مضن ... فقد جمع بين ذكرياته الماضية، وحاله التى عاناها، نلمس ذلك من قوله " والكلام فى مثل هذا انما هو مع خلاء الذرع، وفراغ القلب، وان حفظ شئ، وبقاء رسم، وتذكر فائت لمثل خاطرى، لعجب على مامضى ودهمنى - فأنت تعلم ذهنى متقلب، وبالى متهضم بما نحن فيه من نبوّ الديار، والجلاء عن الاوطان، وتغير الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الاخوان، وفساد الاحوال، وتبدل الايام، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف التالد، واقتطاع مكاسب الآباء والاجداد والغربة فى البلاد، وذهاب المال والجاه، والفكر فى صيانة الاهل والولد، واليأس من الرجوع الى موضوع الاهل، ومدافعة الدهر وانتظار الاقدار، ولاجعلنا الله من الشاكين الااليه واعادنا الى افضل ماعودنا، وان الذى أبقى لاكثر مما أخذ ... " (٥)

وانه ليتبين لنا بعد استعراضنا لمحتويات (طوق الحمامة) فى الفصل السالف أنه يشتمل على خبرات عاطفية متنوعة ... وتجارب

---

(٥) انظر طوق الحمامة ص ٥٦ .

وانظر - ابن حزم صورة اندلسية للدكتور طه الحاجرى ص ١٥٣ - ١٥٩ .

شخصية ذات مذاق واقعى ... استمدها صاحب (الطوق) من حياتـــــه الخاصة تفرد له استقلاله الشعورى ،والذهنى ... ثم كعضو فـــــى مجتمع دقيق الحس بما يعتمل بين أنحائه من قضايا ،ثاقب النظـــر لما ينجم فيه من ظواهر ...

وقد تمثلت خبراته فى ثلاث مجموعات :

المجموعة الاولى خبرات عاطفية ذاتية مارسها الفتى على بـــن سعيد نفسه ،وقد اعترف بها فى جرأة واضحة ،وباح بها فى صراحـــة كاملة ... وقدمها فى اطار من الحكايات الصغيرة والقصـــص القصيرة ... بل ان من هذه الخبرات العاطفية لتمثل خطوته الباكرة مما وقع له فى فجر حياته ... من ذلك خبر صاحبته الشقـــراء (٦) وحديث صاحبته التى تحسن الضرب على العود،وتجيد الغناء (٧) وقصـــة (نعم) وماشعر به معها من حرقة الفقد (٨) وحكاية الجاريـــــة التى علق بها قلبه فى الصبا وعاوده الحنين اليها فـــــى الشباب (٩) ... الخ .

المجموعة الثانية : خبرات شخصية تمثلت فى ملحوظات ذكيــــة

---

(٦) الطوق ص ١٢٤ .

(٧) الطوق ص ١٢٤ .

(٨) الطوق ص ٢٩ .

(٩) الطوق ص ١٦٦ .

حول أطوار الحب وأحوال المحبين ... وقد اختلط فى هذه التجارب ماهو خاص يتعلق بصاحب (الطوق) وماهو عام يتعلق بما هو ملحوظ فى الغير ... وقد ساق هذا الجانب فى تفصيل دقيق أحاط خبرا فيه بخبايا النفوس ،ونبضات القلوب ،من ذلك : كشفه عن علامات الحب ومظهرها نفسيا وجسديا ومزاجيا (١٠) والحب الذى ينطوى داؤه على دوائه (١١) وتبدل أخلاق المحبين وطباعهم (١٢) والتحليل النفسى لحب الشهوة (١٣) وطبائع النساء والحب (١٤) ونفسية المرأة والحب (١٥) وطرق الوصل (١٦) وأنواع الهجر (١٧) والموازنة بين البين والهجر (١٨) والقناعة بالطيف (١٩) وأنواع التعريض (٢٠) والرقباء وطرق ارضائهم والاحتيال عليهم (٢١) والاعتراف والاستسلام والتوبة والرمى بالمقاليد ... الخ (٢٢)

---

(١٠) الطوق ص ٢٧ — ٣٠ .

(١١) ص ٢٤ .

(١٢) ص ٧١ .

(١٣) ص ٢١ .

(١٤) ص ٧٨ .

(١٥) ص ٨٠ .

(١٦) ص ٩٤ .

(١٧) ص ٩٨ .

(١٨) ص ١٢٧ .

(١٩) ص ١٢٥ .

(٢٠) ص ١٣١ — ١٣٥ .

(٢١) ص ٥٤ .

(٢٢) ص ٨٠،٨١ .

المجموعة الثالثة : خبرات عاطفية وقعت لعدد من معاصريه ممن يثق بهم ،منهم الاخ والصديق والجار والمخالط ... وقد يشير الى هذا الجانب لدى بعض الخلفاء والكبراء . ربما ليقول: ان الناس جميعا سواء أمام جبروت هذه العاطفة الرقيقة .

من ذلك قصة بنت زكريا بن برطال وزوجها (٢٣) وأبى عامر محمد بن عامر وصاحبته عفراء (٢٤) ومروان بن حدير وذهاب الحب بعقله (٢٥) ويحيى بن عبدة وجاريته (٢٦) وأبى بكر بن حزم وزوجته (٢٧) والجارية التى ماتت حبا (٢٨) والجارية التى لم تستسلم لمولاها الجديد بعد موت مولاها القديم (٢٩) واقدام أندلسى على الانتحار فى سبيل الحب (٣٠) وقصة خلف مولى هشام وجاريته التى صلب من أجلها (٣١) والجارية التى تقبل موطئ قدم حبيبها (٣٢)

---

(٢٣) ص ٩٥ .

(٢٤) ص ١٠٥ .

(٢٥) ص ١٣٩ .

(٢٦) ص ١٥٢ .

(٢٧) ص ١٥٤ .

(٢٨) ص ١٥٢ .

(٢٩) ص ١١١ .

(٣٠) ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣١) ص ١٨٦ .

(٣٢) ص ١٣٠ .

وقصة الجارية التى تكلم فتاها رمزا (٣٣) ... الخ:.

وهكذا عندما نوازن بين (طوق الحمامة) وبين غيره من الكتب التى تناولت ظاهرة (الحب) يظهر لنا أنه يختلف عنها اختلافا واضحا فى أنه ينبثق من الواقع النفسى لشخصية ابن حزم ،بينما غيره ينبثق من الواقع الثقافى ،وهذا هو جوهر القضية ...

وقد كان أبو محمد بادىء ذى بدء يشعر بهذا شعورا أكيدا ويقصد اليها قصدا ظاهرا ...

استمع اليه يقول فى غير جمجمة " ودعنى من أخبار الاعراب والمتقدمين،فسبيلهم غير سبيلنا ،وقد كثرت الاخبارعنهم " (٣٤)

ثم يردف : " ومامذهبى أن انضى مطية سواى ،ولاأن أتحلى بحلى مستعار " . (٣٥)

وكثيرامايصدر قصه بقوله : " وعنى أخبرك" و " عنى أحدثك " . (٣٦)

أو يتحدث عن عاطفة الحب ،فيقول : " ولقد جربناه فكان

---

(٣٣) ص ٩٧ .

(٣٤) الطوق ص ١٧ .

(٣٥) ص ١٧ .

(٣٦) ص ١٢٤ .

مـــــرا " ... (٣٧)

هكذا يصرح بالتجربة ...ويشعر بالمرارة ... وينفض مايحس بـه نفضا ... وقد يقول بصدد تجارب عاطفية وقعت لبعض خلطائـــــه " وقع لى مثل هذا " . (٣٨)

هكذا بتلقائية شديدة وعفوية سهلة فى غير تكلف ولاحــــرج ويقول أيضا مؤكدا استقلاله عن غيره فيما يكتب فى هذا الموضـــوع الشائك : " وهذا هو مذهبى " . (٣٩)

بل ان لغته المتوترة فى (الطوق) لتشهد له بالاستقلال فـــى التجربة الشعورية والطاقة التعبيرية معا ،وتنطق بخصوصيتـــــه البالغة التفرد فى عالم الحب ... وتميز لغته عما عداها مــــن لغات المحبين ،وأمامنا باقة من أقواله الملتاعة التى تكشف عـــن أسرار قلبه الحميمة :

" مالصق بأحشائى حب قط الامع الزمن الطويل ــ ما انتفعـــت بعيش ولافارقنى الاطراق ،مذ ذقت طعم فراق الاحبة ــ وطئت بســـاط الخلفاء ،وشاهدت محاضر الملوك ،فما رأيت هيبة تعدل هيبة محــب لمحبوبه ــ جربت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ علـــى

---

(٣٧) ص ٤١ .

(٣٨) ص ٦٢ .

(٣٩) ص ٢٥ .

اختلافهما ،فما للدنو من السلطان ،ولاللمال المستفاد،ولا للأمن بعد الخوف من الموقع فى النفس ماللوصل بعد طول الامتناع ـ انى لقتيل الهموم فى عداد الاحياء ،ودفين الاسى بين أهل الدنيا قد حث زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى ـ لقد نعى الى بعض من كنت أحب ،فقمت فارا بنفسى بين المقابر ـ ولعمرى لو كان ظريف يموت فى ساعة الوداع لكان معذورا ـ الموت أسهل من الفراق الحب : " لذة مخيفة لاتقاومها لذة " ـ الفراق هو " الخطب الموجع ،والهم المفظع ،والحادث الاشنع " ـ ....

ثم هاهى ذى طائفة من أقواله الذكية التى تكشف عن أسرار قلوب الآخرين ...

" نلاحظ الحبيب منحرفا عن محبه ،مقبلا بالحديث على غيره ،ومع ذلك فطبعه جاذب ،تراه منحرفا كمقبل ،... ساكتا كناطق ... ناظرا الى جهة نفسه فى غيرها ،ان للمحبين فى الوصل من الاعتذار،ما أعجز أهل الاذهان الذكية،والافكار القوية ـ العاشق يضع الكتاب على قلبه وعينيه ويعانقه ـ الهوى سلطان مطاع ،وبناء مشدود الاواخى وسنان نافذ ـ مارأيت امرأة كشفت سر متحابين الاوهى عند النساء ممقوتة ،مرمية عن قوس واحدة ... " .

ولكن ... هل معنى ذلك أن ابن حزم لم يتأثر اطلاقا بغيره ممن تقدمه ...؟

من التعسف الشديد أن يقال مثل هذه المقالة ... اذ معنى

ذلك أن الرجل لم يقرأ تراث من تقدمه ... وهذا شئ غير وارد، لأن أبامحمد قارئ نهم ... ومثقف كبير ... وجهله بتراث المتقدمين يعتبر تقصيرا فى حق أمثاله ...

اذن من المسلم أنه قد قرأ انتاج من تقدمه فى هذا الموضوع أو على أقل تقدير قرأ معظمه ... ولم يند عنه الا ماعسى أن يكون بعيدا عن متناول يده ... ومن المحقق أن هذا القليل البعيد عن متناوله ،خلاصته مودعة فى بطون الكتب الاخرى التى وصلت الى يديه ... اذ من المألوف فى التآليف العربية أن السابق يأخذ عن اللاحق ...

أجل هذه قضية لايصح الخلاف حولها ...

ولكن مامدى تأثر ابن حزم بمن ألف قبله فى موضوع الحب ...؟

الواقع أن طوق الحمامة قسمان :

قسم نظرى يأخذ صيغة منطقية شكلية جافة : وهى التى تتمثل فى التقسيمات ،والتعريفات ،والنظريات ،والابواب ،والفصول والمفردات التى تشكل معجم الحب من (وصل) و (هجر) و (بين) و (غزل) وما الى ذلك .

وهذا القسم يلتقى فيه أبو محمد مع كل من كتب فى الحب من سابقيه ولاحقيه ،من لدن الجاحظ الى داود الانطاكى مرورا بكتابى (الزهرة) و (الموشى) بوصفهما ألمع كتابين فى هذه القضية ...ومع ذلك فان المستشرق الاسبانى "جارثيا جومث" حتى فى هذا الجانب

يقرر :"أنــه ليس ثمة شك فى أن (الطوق) أفضل نهجا وتنظيمـــــــا وترتيبا من كتابى (الموشى) و (الزهرة) " ٠ (٤٠)

وعلى كل ٠٠٠ فان هذا القسم يشكل مادة ثقافية مباحة لكـــل من يكتب فى الحب ،لايحظر على باحث ولايمنع منه دارس ٠٠٠

والحقيقة أن هذا القسم يعتبر أضعف مافى كتاب (طوق الحمامة) ٠٠٠ بل هو نقطة الضعف الوحيدة فيه ٠

ولو خلا منه ٠٠٠ لكان (الطوق) خالص التوجه لفن الادب وحـــده ولكان ارصن وحدة وأروع شاعرية ٠٠٠ ولاستطاع ابن حزم أن يطـــاول به أحدث الكتابات المعاصرة فى (فن الاعترافات العاطفية) ٠

أما القسم الثانى من الطوق فهذا هو الذى ينفرد به على بـــن سعيد عن سائر من ألف من العرب فى موضوع " الحب " فقد أودع فيـــه تجاربه العاطفية الحميمة فى جرأة عجيبة ٠٠٠ ولانعرف فـــــــى الادب العربى من فعل ذلك فى فن النثر قبل هذا الفقيه الجدل الحاد الطبع الذكى الحس والنفس ٠٠٠ ومما تجدر ملاحظته فى هذا الموطـــن تسمية كتابه (طوق الحمامة) ٠٠٠ فالحمام رمز الدعة والوداعـــة ورقة العاطفة ٠٠٠ وهل فى الدنيا أرق من زوجى حمام ٠٠٠يتبـــادلان

---

(٤٠) مجلة الاندلس ــ المجلد ١٦ سنة ١٩٥١ مقالة لجارثيا جومث ٠
عن كتاب دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ــ د٠طاهـــر مكى ص ٣٢٠ ٠

المحبة ...ويدس سأحدهما منقاره العاجى فى منقار الآخر ... فى مرح رشيق ... ؟

وأخذه من الحمامة (طوقها) ... والطوق عقد دقيق فى رقبة الحمامة يزيدها وداعة ... فياله من رمز شاعرى لمضمون (الحب) فى كتابه الرائع الجميل ...

بقى أن نعرف موقف الذين جاؤوا بعده من مؤلفى العرب ممن كتبوا فى الحب ...

هل تأثروا بالطوق ؟

وان كان ... فمن أى الجوانب ...؟

ونبادر للاجابة فنقول : نعم تأثروا به ... ولكن فى الناحية الشكلية الخارجية ... تأثروا به فى القضايا النظرية ،والتقسيمات المنطقية ،والنزعة الدينية ،والمعجم التقليدى لمفردات الحب المطروقة ... واندفعوا يحشدون الاخبار والنوادر ... ويجترون الزاد الثقافى المألوف فى هذا الموضوع ...

تماما كما سبق أن تأثر أبو محمد بمثل ماتأثروا به من السالفين كما سبق أن فصلنا القول ... وهذه القضية لايصح أن تكون موضع نقاش لوضوحها ،ولاينبغى أن تسود صفحات لكشف وجه الحق فيها ... فان الحق واضح ظاهر لكل من تصفح أيا من كتب الخالفين ... بدءا بابن السراج وابن القيم وابن الجوزى وغيرهم .... الى داود الانطاكى ،ويوسف بن مرعى الحنبلى ... على

تفاوت بينهم فى ذلك كله ... أما الشىء الذى تحاموه جميعا فهـــو نهجه الاخير الذى انفرد به بين كل من كتب فى الحب ... وهـــو الاعتماد على الخبرات الحية والتجارب الواقعية ... فلم يسلـــك أى منهم هذا السبيل ...

ومما تجدر الاشارة اليه أن المستشرق الاسبانى " جارثيـــا جومث " يرى أنه ربما كان لطوق الحمامة أثر فى الادب الاسبانـــى ويضرب لذلك مثلا بكتاب (الحب المحمود) لكاهن هيتا من مفكـــرى القرن الرابع عشر ،وكتاب (مزايا الفضيلة) للراهب الكرملـــى " جوزيف دى خوس مارية" من مفكرى القرن السادس عشر . (٤١)

واذا صح لنا أن نستوحى عنوان الكتابين قلت ... ولعل هـــذا الاثر أيضا كان فى ضوء فهمهم لنظرية الحب عند ابن حزم التـــى يفهمها القوم فهما مغلوطا يمزجون فيه مزجا شائها بين العرقيـــة العنصرية بحسبهم على بن سعيد أسبانى النسب كما يؤكد أبو حيـــان وبين المسيحية بحسبهم الجد الاعلى للرجل نصرانيا ،وبين الافلاطونية بحسبها من بين تراثهم الاوروبى ،وبين الحب العذرى بحسبه مـــن

---

(٤١) مجلة الاندلس ــ مجلد ١٦ ــ سنة ١٩٥١م مقالة لجارثيا جومث ــ نقلا عن (دراسات عن ابن حزم) د. طاهر مكى ص ٣٢٠ .

نتاج المسيحية والافلاطونية جميعا . (٤٢)

والواقع أن (مفهوم الحب عند ابن حزم) لايدين بشئ لغير الاسلام دين الله القيم الذى ينظر الى الحب نظرة واقعية يدفع بها نحو (طريق) ايجابى هو الزواج وبناء الحياة .

حقا ان المتصفح للطوق يلمس فيه تأثرات افلاطونية يتضح ذلك فى مثل قوله عن الحب (والذى أذهب اليه أنه اتصال بين النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع). (٤٣)

وقوله : (العشق استحسان روحانى ،وامتزاج نفسانى) . (٤٤)

الى غير ذلك ...

ولكن الشئ الذى جعله يقبل هذا هو عنصر (العفة) التى يلتقى فيها الاسلام مع الحب العذرى ،والافلاطونية جميعا ،ولاشئ وراء ذلك .

ومجمل القول فى هذه القضية أن الذى يظهر لى بعد الدرس والبحث أن الحب الذى يعتقده أبو محمد نوعان ليس وراءهما شئ

---

(٤٢) اميل اسين بلاثيوس- ابن حزم القرطبى ،وانظر أيضا فى مناقشة هذه القضية : مقدمة طوق الحمامةللفيلسوف الاسبانى (اروتيجا اى جاسيت) عن كتاب (دراسات عن ابن حزم) د. طاهر مكى .

(٤٣) الطوق ص ١٩ .

(٤٤) الطوق ص ٢١ .

آخـــر :

أحدهما : حب يقوم على التوافق الروحى ، الخالص بعيدا على الانجذاب الجسدى أو مايسميه ابن حزم الصورة الحسنة (٤٥) وهذا أرقي أنواع الحب الذى يشير اليه الحديث الشريف : (الارواح جنود مجندة ،ماتعارف منها ائتلف ،وماتناكر منها اختلف ..) . (٤٦)

وثانيهما : حب يجمع بين التوافق النفسى والتوافق الجسدى ... ولاحياة لمثل هذا الحب الا بأحد أمرين :

اما بالزواج الذى يعمر الكون ويبنى المجتمع ،وهذا هو الهدف الاول لشريعة الاسلام ،واما بالعفة ،ومن وراء العفة المعاناة ،ومن وراء المعاناة ،تجارب شعورية نبيلة ،ومن وراء ذلك كله اخصاب الاداب والفنون ،ورقى المجتمعات الانسانية والاسلام أيضا لايأبى هذا ... وهل كان (طوق الحمامة) الا من عطاء ذلك .؟

أما مايخرج عن هذه الدائرة فهو الذى يقع فى نطاق قبح المعصية ، الذى وقف عليه أبو محمد بابا فى (الطوق) . (٤٧)

---

(٤٥) الطوق ص ٢٤ .

(٤٦) اخرجه مسلم .

(٤٧) الطوق ص ١٦٠ .

ان الاسلام لاينكر وجود غريزة الحب فى البشر،يقول ابن القيم " ان الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة،بل آمره بصرف ذلك الهوى الى نكاح ماطاب له منهن من واحدة الى أربع،و من الاماء ماشاء،فانصرف مجرى الهوى من محل الى محل ... " (٤٨)

ومن ذلك يبدو أن حب المرأة فى الاسلام لابد أن يكون وراءه هدف واضح وهذا الهدف ،اما أن يكون الاستحلال بالزواج أو غير ذلك كالسماع عن امرأة صالحة،فتكن لها المحبة لما اتصفت به من صفات حميدة،فتكون المحبة فى جناب الله ،دون أى صلة عاطفية ....

وميل الرجل للمرأة ،وميل المرأة للرجل شئ فطرى ،فقد قرره الله عز وجل فى كتابه العزيز عندما قال : " هو الذى خلقكم من نفس واحدة ،وجعل منها زوجها ليسكن اليها..." الآية (٤٩) وقوله سبحانه : " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها،وجعل بينكم مودة ورحمة ... " الآية (٥٠)

فشريعة الاسلام تجيز لكل من الرجل والمرأة التعرف على الصفات التى ينطوى عليها كل من الآخر اذا كان القصد من وراء ذلك

---

(٤٨) روضة المحبين ص١٠ ،دار الكتب العلمية ــ بيروت .

(٤٩) الاعراف : ١٨٩

(٥٠) الروم : ٤٩

الزواج،ولذلك شرع النظر الى المخطوبة ،حيث قال صلى الله عليه وسلم : " انظر اليها فانه آحرى أن يؤدم بينكما " (٥١)

وشرع الاسلام الحجاب ،وجعل ضوابط معينة لمعاملة المرأة الاجنبية ،فلايخلو بها رجل غير ذى محرم ،ولايسافر بها ...ولايحادثها وتحادثه بخضوع فى القول حتى لايطمع فيها ويعشقها على اثر سماع صوتها ،لما فى ذلك من وقوع فى مالاتحمد عقباه ... ولذلك منع الاسلام المرأة من السفر بدون محرم وكذلك الحج بدون محرم الاأن تكون فى جملة نساء صالحات أو رفقة مأمونة وقد ذكر ذلك ابن حزم عن بعض أهل العلم* .... ويجتمع ذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم : " آلا لا يخلون رجل بامراة ،ولا تسافرن آمراة الا ومعها ذو محرم".(٥٢)

كل ذلك لضبط المعاملة بين الرجل والمرأة مادامت الصلة بعيدة بينهما ،وليس بينهما حرمة نسب أو رضاع ونحوه .

وأبو محمد وهو الفقيه الظاهرى ،قدانطلق من وجهة اسلامية يدعمها بقوله : " والحب ليس بمنكر فى الديانة ،ولابمحظور فى الشريعة اذ القلوب بيد مقلبها عز وجل ... " (٥٣) ثم ساق لنا أمثلة كثيرة لأئمة صالحين وقعوا فى براثن هذه العاطفة ... ولم

---

(٥١) الحديث رواه الترمذي في باب النكاح حـ٣ ، وفي مسند احمد جـ٤ ص٢٤٥-٢٤٦ .
(*) آنظر المحلى جزء ٧ ـ كتاب الحج ص٤٧ ،دار الفكر .
(٥٢) الحديث رواه الشيخان .
(٥٣) طوق الحمامة ،ص ٥ .

يجزلاحد ان يظن به ظنا سيئا ... وكان يعرف أن هناك من سينكر عليه هذا التأليف ... ولكن ابن حزم قصد به الحب العفيف ،ولذلك كل ما أورده هو قصص حب لجوار مملوكات ... وهذا ليس بمنكر ولامحظور ...

أما مايؤدى الى هتك أعراض الناس ... ويخرج عن تعاليم الاسلام ،فابن حزم منه براء،ولايمكن أن تكون هذه الرسالة مدعاة الى الرذيلة ،ان لم تكن مدعاة الى الفضيلة فها هو ذا يقف بابين فيها لهذا الهدف بابا لبيان فضل التعفف ،وبابا لبيان قبح المعصية ... ووقف من الفساق موقفا حاسما ... وبين بشاعة الزنا ،وفظاعة المعصية ... ويقسم أنه ماخلع ازاره على فرج حرام مذ عقل، ولايحاسبه ربه بكبيرة الزنا .(٥٤)

فهو عند ماكتب هذه الرسالة لايقصد بها جواز الحب المؤدى الى الفاحشة ،نلمس ذلك فى حديثه عن العفة عندما يقول :" فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره ،ويحاسب عليها يوم القيامة ... وأما استحسان الحسن ،وتمكن الحب فطبع لايؤمر به ولاينهى عنه ،اذ القلوب بيد مقلبها ولايلزمه ;غير المعرفة والنظر فى فرق الخطأ والصواب وأن يعتقد الصحيح باليقين ... وأما المحبة فخلقه ... وانما يملك

---

(٥٤) الطوق ص١٢٦،ت : الابيارى .

الانسان حركات جوارحه ; المكتسبة ..." (٥٥)

وابن حزم عندما طلبت منه كتابة هذه الرسالة تردد فيها ولكنه لبى رغبة صاحبه كما يقول : " ولولا الايجاب لك لما تكلفته فهذا من العفو، والاولى بنا مع قصر اعمارنا ألا نصرفها الافيما نرجو به رحب المنقلب ،وحسن المآب غدا ... ويستشهد بحديث ينسبه الى القاضى حمام بن أوس يرفعه الى أبى الدرداء أنه قال :

" أجموا هذه النفوس بشىء من الباطل ليكون عونا لها على الحق " ... وأقوال الصالحين من السلف المرضى : من لم يحسن يتفتى لم يحسن يتقرى ... وفى بعض الاثر : " أريحوا هذه النفوس فانها تصدأ " ... (٥٦)

ولكن الذى يؤخذ على ابن حزم هو ايراده لبعض القصص التى كان يجب أن يترفع عن ايرادها ،كالتى وردت فى العلاقات المثلية وكقصة النسوة اللائى عبرن بحر القلزم واعتوار ربان السفينة عليهن ... (٥٧) فان هذا الخبر الاخير أحرى به أن يكون من مسامرات العامة لابتذاله وبعد وقوعه .. فكيف تسنى لراوية الخبر العجوز أن ترى دقائق هذا الامر بالتفصيل والدقة فى وصف مايصعب وصفه بالليل لعدم اتضاح الرؤية ...

---

(٥٥) الطوق ص ٦٠ .

(٥٦) طوق الحمامة ،د. فاروق سعد ص ٥٣ .

(٥٧) انظر طوق الحمامة ص ١٣٢ .

أما معالجة ابن حزم لموضوعات الحب فهى قائمة على الأستقراء والتتبع ... مرتكزا على ثقافته الاسلامية ... فعندما يعالج موضوعا من موضوعات الحب نجده يتناوله من وجهتين : وجهة واقعية ووجهة تجريدية ... فهو يبدأ القضية من قضايا الحب واقعيا تنبع الفكرة ،وينبع الرأى عنده من الواقع بعينه أو من تجربته الحسية الذاتية ، أو تجربة الغير، التى يثق بصدق صاحبها وصحتها ... ثم ينتهى بالقضية الى نطاق تجريدى تنفصل فيه أو تكاد عن متبعها الاصيل الواقع ،وقد يحدث العكس أى أنه يبدأ القضية من عالمها المثالى ،وينتهى بها الى أصالتها الواقعية.(٥٨)

أما تقسيمه للرسالة : فهو تقسيم منطقى ،يعتمد على التحليل ،والتفسير لقضايا الحب ... والذى جعله يتبع هذا السبيل هو حديثه عن الحب باعتباره واقعا لاخيالا ...

وهذا النمط من الدراسة يلتقى كثيرا مع نظريات علم النفس لاعتمادها على معرفة طبائع النفوس ...

وتبرز الاصالة الفنية فى (الطوق) واضحة ... يتمثل ذلك فى أنه يعكس الملامح الشخصية لمؤلفه ،فيبدو أبو محمد من خلاله رجلا شديد الغيرة (وأصل ذلك غيرة طبعت عليها) وافر الوفاء (وفاء لايشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والغيبة ،والباطن والظاهر) .

---

(٥٨) انظر دراسات عن ابن حزم ـ د. طاهر مكى ص ٢٩٦،٢٩٧ .

عزيز النفس : (عزة نفس لاتقر على الضيم ،موثرة للموت عليه ...) .

حاد الطبع : (فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك اظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط) .

معترفا بعيوبه : (كانت فى عيوب فلم أزل بالرياضة مداواتها حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك) .

شجاع النفس والفكر (حد الشجاعة بذل النفس عن الدين والحريم وعن الجار المضطهد وعن المستجير المظلوم ،وعن الهضيمة ظلما فى المال والعرض ،وفى سائر سبل الحق ... والتقصير عمن ذكرنا جبن وخور ،وبذلها فى عرض الدنيا تهور وحمق ... وأما الذى يعيبنى فيه جهال أعدائى من أنى لاأبالى فيما اعتقده حقا عن مخالفة من خالفته ،ولو أنهم جميع من على ظهر الارض ... فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى) .

مؤثرا للصدق (ما أحببت قط كذابا) (ومارأيت أخزى من كذاب) .

محتقراً لاهل النميمة (النميمة طبع يدل على نتن الاصل ورداءة الفرع ،وخبث النشأة) .

مأمون الجانب (ماسمحت لنفسى قط فى الفكرة باضرار من بينى وبينه أقل ذمام) .

منصفا للصديق (ضع أمر اخيك على أحسنه حتى يأتيك مايغلبك عليه) .

رقيق الحس مقدرا للحسن (النفس الحسنة تولع بكل شيء حسن) .

عفيفا طاهر العرض (يعلم الله أنى برئ الساحة ،نقى الحجزة ... ماحللت مئزرى على فرج حرام قط ... ولايحاسبني ربى بكبيرة الزنا) .

منزها عن شرب الخمر (معاذ الله أن تكون معصية الله بشرب الراح لنا خلقا) .

مدلا بوضعه الاجتماعى فيردد أمثال هذه الاقوال (أيام وزارة أبى) و (أيام دولتنا وامتداد ظلنا) .

حاد اللسان فى نقد مجتمعه (كل مدبر مدينة فى شئ من أندلسنا ... محارب لله تعالى وساع فى الارض بفساد ...ولايغرنكم المنتسبون الى الفقه ... اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع).

مراقبا ربه : (اذا لم يكن بد من اغضاب الناس أو اغضاب الله عز وجل ،فاغضب الناس ،ولاتغضب ربك) .

محتقرا للمال (ذمنى بعض منتعسف الامور ... بأنى أضيع مالى ... اننى لاأضيع منه الاماكان فى حفظه نقص دينى ، او اخلاق عرضى ، او اتعاب نفسى ،فانى أرى الذى أحفظ من هذه الثلاثة وان قل أجل ... مما يضيع من مالى ولو أنه كل ماذرت عليه الشمس) .

والذى يعزو هذه الرسالة الى الفن والادب هو : ايراد هذا الكم الوفير من القصص فى الحب العذرى ... وقد جاءت فى صياغة

أدبية خالية من السجع ،والازدواج ،والتزويق اللفظى أو التصنع فهو يهتم بسرد الحقائق ولايهتم بالزخرفة والزينة ... يكثر من الشواهد،والأمثلة ... فنجد البساطة وعدم التكلف فى اسلوبه ... لكن غلبة المنطق عليه ،واهتمامه بالعلل ،والمقدمات والنتائج وايراده لبعض المصطلحات الفقهية والدينية جعلت من نثره نموذجا مستقلا عن غيره من الادباء الذين كتبوا فى (فن النثر) مثل ابن شهيد ،والبديع وغيرهما . (٥٩)

وعلى ذلك يمكن أن نحدد اسلوب ابن حزم ... فهو ينحصر فى ثلاثة أنواع :

نوع يعالج الافكار والنظريات : ويعنى بالتقسيم المنطقى والتحليل الذهنى والعبارة الدقيقة ،ويتبين ذلك فى قوله يحلل عاطفة الحب (وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا ،والذى أذهب اليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ... لاعلى ماحكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الارواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها فى مقر عالمها العلوى ،ومجاورتها فى هيئة تركيبها) . (٦٠)

---

(٥٩) الادب الاندلسى ــ احمد هيكل ص ٤٠٠ .

(٦٠) طوق الحمامة ص٦ . ت : الابيارى .

وعنايته بالتقسيم والتحليل تتجلى فى تقسيمه للرسالة التى أبواب حلل فيها عاطفة الحب تحليلا دقيقا ... يتضح فيه الطابع المنطقى ،ويتسم بالجفاف وبخلوه من الطلاوة الفنية : ومن ذلك قوله : " ومن آفات الحب الواشى وهو على ضربين .أحدهما : واشى يريد القطع بين المتحابين فقط ...

والثانى : واشى يسعى للقطع بين المحبين ... الخ وعلى هذا النمط يسير ابن حزم فى تقسيمه ... (٦١)

ونوع يعالج تجارب موضوعية عامة لاتتسم بالخصوصية ،ويظهر فيه طلاوة التعبيرة،وبراعة التصوير ... ويتشح بالطابع الادبى المصقول ومن ذلك قوله : " انى تنزهت أنا وجماعة من اخوانى من أهل الادب ،والشرف الى بستان لرجل من أصحابنا فجلنا ساعة ... ثم آفضى بنا القعود الى مكانة دونها يتمنى ... فتمددنا فى رياض أريضة ،وأرض عريضة ،للبصر فيها منفسح ،وللنفس لديها مسرح بين جداول تطرد كأباريق اللجين ... وأطيار تفرد بألحان تزرى بما أبدعه معبدوا القريض ،وثمار مهدلة قد ذللت للايدى ودنت للمتناول ،وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها ... فتتصور أيدينا كرقاع الشطرنج ... والثياب المدبجة وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة ،وأنهار متدفقة تنساب كبطون الحيات لها خرير

---

(٦١) طوق الحمامة ص ٥٣ . ت : الابيارى .

يقوم ويهدأ ،ونواوير مونقة ،مختلفة الالوان تصفقها الرياح الطيبة النسيم ،وهواء سجسج،وأخلاق جلاس تفوق كل هذا،فى يوم ربيعى ذى شمس ظليلة،تارة يغطيها الغيم الرقيق ،والمزن اللطيف ... وتارة تنجلى فهى كالعذراء الخفرة والخريدة الخجلة،تتراءى لعاشقها من بين الاستار ،ثم تغيب فيها حذر عين مراقبة ،وكان بعضنا مطرقا كأنه يحادث أخرى ... وذلك لسر كان له ،فعرض لى بذلك وتداعبنا حينا فكلفت أن أقول على لسانه شيئا فى ذلك ... الخ " . (٦٢)

ونوع يتصل بتجاربه الذاتية الحميمة ،والاسلوب هنا شديد الروعة والشفافية تغلب عليه أناقة التعبير ،وحرارة الانفعال يكاد يصل فيه فن النثر الى غنائية الشعر ... ويظهر ذلك من قوله فى باب الوصل : (ومن وجوه العشق الوصل ،وهو حظ رفيع ،ومرتبة سرية،ودرجة عالية ،وسعد طالع ،بل هو الحياة المجددة،والعيش السنى ،والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة ... ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر،والجنة دار جزاء وأمان من المكاره لقلنا ان وصل المحبوب هو الصفاء الذى لاكدر فيه ،والفرح الذى لاشائبة ولاحزن معه،وكمال الامانى ،ومنتهى الاراجى . ولقد جربت اللذات على تصرفها،وأدركت الحظوظ على اختلافها،فما للدنو من السلطان

---

(٦٢) انظر الطوق ص ١٣٤ .

ولاللمال المستفاد،ولا للوجود بعد العدم ،ولا للاوبة بعد طول الغيبة ،ولا للأمن بعد الخوف ،ولاللتروح على المال من الموقع في النفس ماللوصل ،لاسيما بعد طول الامتناع،وحلول الهجر،حتى يتأجج عليه الجوى ،ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاء ... وما أصناف النبات بعد غب القطر،ولااشراق الازاهير بعد اقلاع السحاب الساريات فى الزمان السجسج ولاخرير المياه المتخللة لافانين النوار ،ولاتأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر بأحسن من وصل حبيب قد رضيت أخلاقه ،وحمدت غرائزه ،وتقابلت في الحسن أوصافه ،وأنه لمعجز ألسنة البلغاء،ومقصر فيه بيان الفصحاء،وعنده تطيش الالباب ،وتعزب الافهام ... " (٦٣)

ومجمل القول فى اسلوب ابن حزم أنه فى الغالب : اسلوب مرسل لايعنى كثيرا بزخرفة اللفظ ،وتزويق الكلام ... فقد أجمع النقاد على : (أن نثره هو آيته الادبية فى الروعة،وأنه كان ذا نظر ثاقب فى نقد الاساليب ،وتمييز المذاهب النثرية ... وهو فى ذلك طليعة مدرسة النثر الفنى بين الاندلسيين ... ودليل من أدلة العالمية فى الادب العربى ويرى بعض مؤرخى ابن حزم أن نثره لايكاد يفترق عن شعره من ناحية الجرس والموسيقى الداخلية ... والسلاسة التلقائية ...والسهولة الممتنعة .. (٦٤)

---

(٦٣) طوق الحمامة ص ٩٠.

(٦٤) انظر الادب الاندلسى ـ أحمد هيكل ص ٤٠٠ .

وغنى عن البيان أن ابن حزم فى كتابه هذا الذى دون فيه اعترافاته الشخصية واعترافات بعض أصدقائه ،لم ينسحب فيه على أذيال غيره ،وأن هذا الجانب من (طوق الحمامة) يعد فنا جديدا فى جنس النثر من الادب العربى ...

الباب الثالث

مغامرة الفكر بين رياض الفن

أو

قصة «حيّ بن يقظان»

الفصل الأول

قصة « حيّ بن يقظان » ونظائرها..

سلك ابن طفيل (١) فى تأليفه قصة " حي بن يقظان " مسلك أدباء الغرب فى القديم والحديث ... اذ كان بعضهم يعمد الى موضوع

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل الاندلسى القيسى .

ولد حوالى (٥٠٠ هـ / ١١٠٦م) فى وادى آشى الواقع الى الشمال الشرقى من مدينة غرناطة ،وخدم حاكمها ، ثم طبيبا للسلطان أبي يعقوب يوسف " من الموحدين " سنة ٥٥٨هـ ،ثم اشتهر بالفلسفة ،قال عنه ابن سعيد : قال والدى : " لقيت علماء كثيرة يفضلونه على فيلسوف الاندلس أبي بكر ابن باجه الذى يعتبر ابن طفيل احد أتباعه فى فكره وفلسفته ، وكان معجبا به فى طريقة تفكيره ،وما قصة " حي بن يقظان " لابن طفيل فى أساسها سوى فكرة " المتوحد " لابن باجه ......

وعن مصنفاته يقول المراكشي : " رأيت له تصانيف فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والالهيات وغير ذلك ،ورأيت بخطه رسالة له فى " النفس " .... وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به ، والحب له ،يقيم عنده ابن طفيل أياما ليلا ونهارا ،لا يظهر ،ومن هنا استطاع أن يهيئ مستقبل ابن رشد عند الامير ،لكونه أحد تلاميذه الناشئين ،وقد اقترح عليه تلخيص " كتب أرسطو وتقريب عباراتها ..." فأتاح له فرصة القيام بعمل عظيم فى التاريخ الفكرى والفلسفى .

ولابن طفيل رجز فى الطب مخطوط فى أكثر من سبعة الآف وسبعمائة بيت ورأيته بخزانة القرويين بفاس ،وله شعر جيد أورد المراكشى وابن سعيد نماذج منه ،وقد فاخر به القلقشندى أهل المشرق فى رسالته التى وردت فى نفح الطيب بقوله =

....

= " وهل لكم فى الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة " حى بن يقظان" .

هذا وقد توفى ابن طفيل بمراكش سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م وممن شيع جنازته السلطان أبو يعقوب بنفسه ..." للتوسع فى ترجمته ينظر مايأتى :

١ ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ـ عبدالواحد المراكشى ليدن ١٨٨١م ص ١٧٢، ١٧٣ .

٢ ـ طبقات الاطباء ـ لابن أبى أصيبعة ٧٨/٣ .

٣ ـ المغرب فى حلى المغرب ـ لابن سعيد ٨٥/٢ ، ط دار المعارف القاهرة .

٤ ـ نفح الطيب ١٩٣/٣ ، ط دار صادر ، بيروت .

٥ ـ المقتضب من تحفة القادم

٦ ـ البدر السافر : الورقة ١٨ .

٧ ـ تاريخ الفلسفة فى الاسلام ـ تأليف ت . بى . ده . بور . ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة ـ القاهرة ١٣٥٧هـ .

٨ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، ط/دار الشعب مادة ابن طفيل .

٩ ـ تاريخ الفكر العربى ـ بيروت دار العلم للملايين ١٣٩٢هـ عمر فروخ .

١٠ ـ ابن طفيل وقصته حى بن يقظان ، عمر فروخ ـ دار لبنان بيروت ١٤٠٢هـ .

١١ ـ الميتافيزيقيا فى فلسفة ابن طفيل ـ محمد عاطف عراقى دار المعارف ، ط ٢ . =

....

= ١٢ - حى بن يقظان - فاروق سعد - دار الافاق الجديدة بيروت ط ٣ .

١٣ - حى بن يقظان وربنسون كروزو - حسن محمود عباس ،ط١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

١٤ - فلسفة ابن طفيل - عبد الحليم محمود،دار الكتاب اللبنانى ،بيروت ط ٣ .

١٥ - الادب المقارن - غنيمى هلال ،دار العودة ،بيروت ،ط ٥ .

١٦ - حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل ،والسهروردى،ت : احمد أمين - دار المعارف .

١٧ - الادب الاندلسى موضوعاته وفنونه - مصطفى الشكعة ص ٦٨٥ ،دار العلم للملايين ،ط ٤ .

١٨ - الادب فى موكب الحضارة الاسلامية - مصطفى الشكعة ج٢ دار الكتاب اللبنانى ،ط ٢ ص ٦٦٤ .

تراثى قديم فيجعله موضوعا له يدير حوله ملحمة أو مسرحية ويستغله استغلالا فنيا خاصا به ،يبعده تماما عن الاصل المأخوذ عنه . قد فعل ذلك أدباء اللاتين مع الاغريق ... وفعل ذلك أدباء عصر النهضة مع تراث اللاتين والاغريق جميعا ... ومازال يفعله أدباء الغرب والعرب المحدثون مع تراث الاقدمين (٢) .

وهكذا عمد ابن طفيل الى تراث من سبقه فى الفكر العربى فاستعار منه موضوع " حى بن يقظان"فجعله عنوانا لقصته التى عالج من خلالها قضية "المعرفة" التى شغلت رجال الفكر قبله علاجا فنيا خالصا .

وقد صرح ابن طفيل أنه استقى موضوعه من ابن سينا (٣) واقتبس منه عنوان قصته التى تحمل نفس الاسم بيد أنه لم يأخذ منه بعد

---

(٢) من ذلك مسرحيات شوقى : عنترة ،مجنون ليلى،كيلو باترا .
ومن ذلك أعمال توفيق الحكيم : أهل الكهف،شهر زاد،سليمان الحكيم .
ومن ذلك أعمال أحمد على باكثير : واسلاماه ،مسمار جحا ، اخناتون
ومن ذلك مسرحيات عزيز أباظة : العباسة ،قيس ولبنى ،غروب الاندلس .
ومن ذلك مسرحيات صلاح عبد الصبور : ليلى والمجنون، الحلاج ...

(٣) ابن سينا : هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ،ولد فى صفر سنة ٣٧٠هـ فى أفشنة من قرى بخارى لقب بالشيخ الرئيس برع فى الطب ،والفلسفة ،والرياضيات،وغير ذلك وتوفى بهمذان سنة ٤٢٨هـ . أنظر ترجمته فى كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة المطبعة الوهيتين ١٨٩٢م ،جـ ٢ ، ص ٢ .

ذلك الأسماء مجردة عارية من الحياة ... فلما وظفها فنيا فى نسق أحداث قصته لم تلبث أن جرت فى شرايينها الدماء ...

ولعل قصة " حىبن يقظان" لابن طفيل هى القصة الاولى ... بل الوحيدة فى الادب العربى القديم التى عالجت قضية فكرية فى اسلوب فنى ...

وتعرض أحداثها الغريبة فى طورين :

الطور الاول : تمثل شخصية " حى بن يقظان" الدور الرئيسى فيه ...

أما الطور الثانى : فيقوم بالدور المهم فيه شخصيتان تراثيتان هما "سلامان" و "أبسال" . (٤)

والحقيقة أن قارىء هذه القصة يشعر من خلالها أن هناك تأثيرات يونانية وان كانت غير مباشرة ... تدل على أن صاحب قصة "حى بن يقظان" قد استوعب الكثير مما خلفه اليونان وأبدعه العرب من بعدهم من تراث فكرى بالغ الثراء ... (٥)

---

(٤) وردت قصة "سلامان ،وأبسال" لدى ابن سينا ،ولدى ابن طفيل ووردت كقصة منفردة لدى السهروردى ،ولكن الاسماء من ألفاظ الشيخ الرئيس ابن سينا كما قال ابن طفيل . ينظر فى ذلك ابن طفيل وقصته حى بن يقظان – عمر فروخ .

(٥) ينظر فى ذلك " حى بن يقظان" ت : أحمد أمين ص ١٧ ومابعدها . " حى بن يقظان " ت : عمر فروخ ص ٣٣ ومابعدها .

ولما كان ابن طفيل يتمتع بقدرة فنية وذهنية فائقة ..استطاع أن يقف من هذه الآثار العقلية موقفا ابداعيا ظهرت فيه قدرته على الموازنة بين ماهو فكر وماهو فن ،ومن ثم جاءت قصته ذات طابع متميز أبعدته تماما عن الطريق الوعر المتجهم الذى سبق أن سار فيه الشيخ الرئيس ابن سينا .

هذا وانه لتجدر الاشارة الى أن قصة " حى بن يقظان" لابن طفيل لها نظائر فى التراث العالمى لابد من التعرض لها حتى نحدد مكانها تماما من السياق الادبى العام ...

ولاشك أن من أهم هذه النظائر قصة الشيخ الرئيس ابن سينا ... لأن ابن طفيل قد صرح بأنه قد تأثر بها ... حيث يقول فى بداية قصته :

" فأنا واصف لك قصة " حى بن يقظان" و "ابسال وسلامان" اللذين سماهما الشيخ أبو على ،ففى قصصهم عبرة لاولى الالباب وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ... " (٦)

ومن أجل ذلك نقدم الكلام عنها أولا ... ثم نعرض بعد ذلك لبقية النظائر ...

وعند النظر فى قصة ابن سينا يظهر لنا أنها تتكون من رسالتين :

---

(٦) حى بن يقظان : أحمد أمين ص ٦٦ .

الرسالة الاولى هى : " حى بن يقظان " .

وقد استعار ابن طفيل هذا الاسم ،وجعله عنوانا لقصته ... ثم أدار حول شخصيته أحداث الجزء الاول منها بحيث أصبح البطل الرئيسى فى سائر القصة .

الرسالة الثانية هى : " أبسال وسلامان" ...

وقد استعارهما أيضا ابن طفيل ... ولكن لم يجعلهما عنوانا لقصة منفردة مستقلة كما فعل الشيخ أبو على ... بل أورد حول شخصيتها أحداث الجزء الثانى من قصته الرئيسية .

والرسالة الاولى من رسالتى الشيخ الرئيس التى تحمل اسم " حى بن يقظان" تسرد رحلة الانسان الى المعارف الخالصة بصحبة حواسه وماله من الاهواء والغرائز والشهوات وسائر الملكات والنوازع الانسانية ،ويتم اللقاء مع شيخ مهيب قد أكسبته السنون والرحلات تجارب عظيمة ،هذا الشيخ الوقور يدعى " حى بن يقظان".

والرسالة الثانية التى تحمل اسم "سلامان وأبسال" تقص خبر شقيقين أكبرهما يسمى " سلامان" وأصغرهما يدعى " أبسال" .

وكان لسلامان زوجة شريرة غير حافظة للعرض مفرطة فى شرفها ... وقد هامت حبا بأخيه الاصغر " أبسال " وحاولت أن تغريه ولكنه استعصم بالشرف ولم يستجب لها ... فلجأت الى الحيلة حيث عرضت عليه الزواج من أختها وأقنعته بذلك ... حتى اذا حان وقت دخوله بأختها تسللت خفية الى فراشها بعد أن

أقنعتها بأن "أبسال" لن يحضر اليها فى الليلة الموعودة ... وهكذا استطاعت خداع أختها ... ودخلت مخدعها وحاولت خداع أبسال فاطفأت الانوار وأظلمت المكان .

فدخل "أبسال " وكاد يهم بها ،واذا ببرق يلوح ويضئ الغرفة فيبصر زوجة أخيه مستلقية فى الفراش محل عروسه فانسحب فورا من الغرفة . (٧)

وهناك كتاب يونانى يشبه قصة "حى بن يقظان" اسمه "أيمن ادريس" أى " حافظ الناس" منسوبٌ الى " هوملص" . وهو محاورة امتزج فيها المذهب الافلاطونى بمذاهب قدماء المصريين (٨)

وهناك قصة نقلها حنين بن اسحاق من اليونانية تسمى " سلامان وأبسال" وهى تحكى خبر ملك حكيم اسمه هرمانوس بن هرقل ... رغب فى أن يكون له ولد ولكنه كان يكره مباشرة النساء،فعرض عليه وزيره الحكيم أن يأخذ شيئا من ماء حياته ثم يجعله فى اناء ويربيه فيخرج له ولد ... ففعل ... فلما رزق ولدا على هذا الشكل

---

(٧) ينظر : ١ - "حى بن يقظان" ت : فاروق سعد ص ٢١ ومابعدها .
٢ - تاريخ الفكر العربى الى أيام ابن خلدون : عمر فروخ ص ٦٢٦ .

(٨) انظر "حى بن يقظان أحمد أمين ص ١٧ . ويقول أحمد أمين " وقد عرض هذا الكتاب وأشار اليه القفطى فى تاريخ الحكماء ص ١٧ " دار العارف . ط بدون .

سماه "سلامان" وطلب له مرضعة اسمها "أبسال" ... فلما كبر الولد تعلق بأبسال واشتغل بها عن تدبير الملك وطلب الحكمة . (٩)

وهناك قصة الولد المسيب أو المتروك وحيدا فى الطبيعة معرضا للاخطار والمجهول أو المعروف الابوين ،نظير " حى بن يقظان" ... وهو من النماذج التى عرفتها الترهات القديمة فى قالب اخبار أو قصائد أو ملاحم ... منها : مايرويه " هوميروس" عن "بان" الوليد الذى سيبته أمه ومرضعته خشية من والده "هرمس" الذى التقط ابنه (بان) وغطاه بجلد أرنب وحمله الى قمة جبل الأولمب . (١٠)

ويروى الدكتور "كارل غوستاف يونغ " ترهتين احداهما : تروى خبر طفل يعيش وحيدا فى عزلة تامة بعد موت أبويه ... والاخرى تروى قصة فتى عاش يتيما يتحدث مع ثعلب ،وهى مصوغة فى قالب شعرى .

وهناك قصة اسطورية تسمى " الصنم والملك وابنته" ذكرها "جارثيا جومث" ذاهبا الى أن قصة " حى بن يقظان" تعود فى بعض أصولها الى هذه الاسطورة لانها اشتهرت فى أسبانيا قبل زمن

---

(٩) ينظر فى ذلك عمر فروخ فى كتابه "حى بن يقظان" ص ٣٦ . دار لبنان للطباعة والنشر ،ط ١ .

(١٠) ينظر فى ذلك "حى بن يقظان" تحقيق فاروق سعد ص ١٤ .

ابن طفيل ... ويرى "سارطون" أن قصة " حى بن يقظان" تعود الى قصة عربية مشهورة استعار منها أسماء شخصيات قصته . (١١)

هذا وهناك قصتان متأخرتان جاءتا بعد قصة ابن طفيل ...نذكرها لكونهما يحملان نفس الاسم ،وبعض الاسماء الموجودة لدى ابن طفيل لاأكثر ولاأقل .

فالاولى : هى قصة " حى بن يقظان" للسهروردى . وقد نشرها الاستاذ أحمد أمين مع قصتى ابن سينا وابن طفيل ... ومفهوم هذه القصة كما تحدث به السهروردى قائلا :

" لما رأيت قصة (حى بن يقظان) - يقصد قصة ابن طفيل - فصادفتها مع مافيها من عجائب الكلمات الروحانية ،والاشارات العميقة معترية منتلويحات تشير الى الطور ... الى أن قال :

" أردت أن أذكر طورا فى قصة سميتها أنا قصة "الغريبة الغريبة" ... الى أن انتهى من سردها . (١٢)

والثانية : قصة " سلامان وأبسال لعبدالرحمن جامى . وهى قصة شعرية تنتهج نهجابن سينا وابن طفيل من الناحية الرمزية وانكان موضوعها يشبه القصة التى ترجمها "حنين بن اسحاق" .

---

(١١) ينظر فى ذلك "حى بن يقظان" تحقيق فاروق سعد ص ١٩،وأحمد أمين ص ٩ .

(١٢) انظر قصة حى بن يقظان . ت : أحمد أمين ص ٨ .
وانظر قصة حى بن يقظان . ت : فاروق سعد ص ٣٣ .
وانظر قصة حى بن يقظان ت : عمر فروخ ص ٣٦ .

وهناك العديد من الحوادث الواقعية التى حقل بها التاريخ تحكى اكتشاف أولاد ذكور واناث يعيشون فى الادغال والبرارى بحضانة حيوان فيذكر " لوسيان مالسون" فى كتابه " الاولاد المتوحشون" الصادرة طبعته سنة ١٩٦٤ ثلاثة وخمسين ولدا متوحشا عثر عليهم يعيشون فى الغابات أو الصحارى أو السهوب ،وذلك بين سنة ١٣٤٤ و ١٩٦١م ... فكانت هذه الاكتشافات موضع الدراسة والابحاث التى قام بها علماء الاجتماع .

وهناك قصة تعزى مصادرها الى شيشرون وآخرين حول ولادة "حى" من التراب ـ تزعم بأن وليدا اسمه "تاجس" خرج من التراب أمام أنظار فلاح كان يقوم بالحراثة ...

وقد نشرت جريدة فى لبنان خلال شهر حزيران سنة ١٩٧٣م عن طفل عثر عليه فى أدغال جنوب جزيرة سيلان يعيش مع القردة وأطلق عليه اسم "تيسا" نسبة الى قرية "تيساماهاراما" التى تقيم فيها المرأة التى عثرت عليه . (١٣)

وأخيرا فان هناك قصة واقعية من نظائر " قصة حى بن يقظان" نشرتها جريدة الاهرام هذا العام تقول فيها : " عثر على طفل ضئيل الحجم يأتى بتصرفات القردة فى غابة فى " منطقة مثلث لويرو" التى كانت مسرحا لمذابح وعمليات قتل أثناء الحرب

---

(١٣) انظر " حى بن يقظان" ت : فاروق سعد ص ١٤ ومابعدها .

الاهلية فى " أوغندا " •

وتصدر عن الطفل الذى لايألف الآدميين حركات وأصوات مثل تلك التى تصدر عن القردة على الرغم من أن عمره يتراوح بين خمسة وسبعة أعوام ويبلغ وزنه عشرة كيلو جرامات •

عثرت قوات الحكومة الاوغندية على الطفل فى الشهر الماضى وهو يعيش بين القرود،ويوجد الطفل حاليا فى دار لرعاية اليتامى فى "كمبالا" حيث أطلقت عليه الممرضات اسم "روبرت" •

ويعتقد العاملون فى الدارأن "روبرت" فقد أبويه بعد ولادته أثناء القتال الذى شهدته منطقة " لويرو" وقامت شامبانزى أو غوريلا بتربيته • (١٤)

بعد استعراض هذه المرويات من نظائر قصة " حى بن يقظان" لابن طفيل نلاحظ أنها تنقسم الى ثلاث مجموعات :

مجموعة منها واقعية حدثت فى أزمان متأخرة عن تأليف قصة ابن طفيل سجلتها كتب التاريخ أو حفظتها يوميات الصحف ••• ولاوجه بالطبع للقول بتأثر قصة ابن طفيل بها ••• وانما ذكرناها هنا لنقول ان الهوة بين الواقع والخيال ليست واسعة ••• بل قد تضيق الى درجة يلتقى فيها الواقع والخيال كما يتضح منها أن خيال ابن طفيل من الاخيلة السوية التى لاتنفصل عن الواقع ،ولاتوغل

---

(١٤) الاهرام فى ١٤٠٦/١١/٧هـ الموافق ١٩٨٦/٧/٣م •ص ٥ •

فى الوهم والتخليط ... (١٥)

ومجموعة أخرى تحمل بعض الملامح من قصة ابن طفيل مثل قصة السهروردى ومنظومة عبدالرحمن جامى ... ولكن هذه المجموعة جاءت فى الزمن بعد قصة ابن طفيل ... واذن فليس هناك شبهة فى تأثره بها ...

ومجموعة ثالثة سبقت قصة ابن طفيل وتشترك جميعا فى ملامح محددة واضحة القسمات مع قصة ابن طفيل تلك هى : العزلة، والضياع بل ان بعضها يزيد على ذلك اشتراكه مع قصة ابن طفيل فى أسماء الشخصيات مثل قصة "حنين بن اسحق التى ترجمها عن اليونانية ومثل قصة ابن سينا السالفة الذكر ..."

ولاوجه للقول بأن ابن طفيل قد تأثر بالقصة اليونانية التى ترجمها حنين بن اسحق، فقد سبق أن أشرنا الى أنه قد صرح بتأثره بابن سينا ... واذا فمن المحتمل أن يكون أبو على هو الذى تأثر بهذه القصة ... ثم جاء ابن طفيل فتأثر بقصة ابن سينا ....

ولكن لنا أن نتساءل : مامدى تأثر ابن طفيل بقصة الشيخ الرئيس ...؟ وفى الاجابة عن ذلك نقول : ان تأثر ابن طفيل بهذه القصة لايعدو التلاقى فى الاسماء، وذلك لما تميزت به كل من

---

(١٥) تأثير القصص العربى، د. عبدالحكيم حسان، محاضرات الموسم الثقافى ص ١٠٣ مطبوعات كلية اللغة العربية ـ جامعة أم القرى .

القصتين عن الاخرى ...

فرسالة ابن سينا تتسم بالجفاف ،والايغال فى الرمز،ولـــذا تعتبر بمنأى عن الادب ،لما لها من طابع فلسفى بحت ينحو منحـى الاشراق ... وقد جاءت سمجة الاسلوب عادية المعنى ،ولاأدل علـى ذلك من أنها اذا جردتها عن رمزيتها، أصبحت عادية يمكن لكـل شخص أن يكتبها ... (١٦)

اذا فابن طفيل قد استقى الاسماء فحسب من ابن سينا وهـذا أمر عادى بالنسبة لتاريخ الآداب قديما وحديثا ،وقد سبقت الاشـارة الى ذلك أول هذا الفصل .

من هنا يتبين لنا أن قصة ابن طفيل ذات طابع خاص يميزهـا عن كل نظائرها ،وسنتعرف على ذلك من خلال دراستنا للجوانب الفنيـة والفكرية لهذه القصة فى الفصل الثالث الذى سنخصصه لهـذا الهدف ان شاء الله تعالى ...

---

(١٦) انظر " فلسفة ابن الطفيل" عبدالحليم محمود،دار الكتـاب اللبنانى ،بيروت ،ط٣، ١٩٧٥م .

الفصل الثاني

رحلة «حيّ بن يقظان» في جزيرة المجهول

يتحدث ابن طفيل في قصته" حي بن يقظان " عن ثلاث جـــزر:

الجزيرة الاولى : تدعى جزيرة " واق الواق " من جزر الهنـــد تقع تحت خط الاستواء ،أعدل بقاع الارض موقعا ،وأطيبها هواء وأتمهـــا لشروق النور الاعلى عليها استعدادا ... فهي متوازنة الحرارة ،متهيئة لان يتخلق من طينتها المتخمرة طفل هو " حي بن يقظان".

الجزيرة الثانية: نائية منعزلة بعيدة عن العمران ، وهي تلـك التي وصل اليها " حي " ونشأ نشأته الاولى فيها ،وشب وترعرع بيـــن جنباتها ، وواجه الكون والكائنات فيها وحيدا، وكان عليه أن يعتمد على خبراته الذاتية في كل ما يصادفه من كبيرة أو صغيرة فـــي أنحائها .

الجزيرة الثالثة: تبدو الحياة مخالفة فيها للجزيرتـــين السابقتين : فالحياة فيها مشرقة ،آهلة بالسكان ،حافلة بالعمـــران معادلة في تكوينها للمجتمعات الانسانية المألوفة ، لها ديانتهـــا وأعرافها ومثلهـــا الاجتماعية وأخلاقها المتوازنة... ولها نظام سياســي يديره ملك يدعى " سلامان " وله أخ اسمه " أبسال ".

وواضح أن ابن طفيل قد اتخذ جزيرته الاولى " واق الواق " كتمهيـــد لقصته التي تدور أحداثها في الجزيرتين الأخريين اللتين تكونان وحـــدة فنية لقصته.

وكأن ابن طفيل يريد أن يقول ان الحياة اذا كان من الممكن أن تتخلق من طين الجزيرة الاولى ، اذا فما يمنع أن ينشأ في أحضانها بشر سوى ... وأن يعيش وحيدا فريدا يواجه الكون والكائنات وحده ...

واذا " فحى بن يقظان" الذى سيقص أخباره ، ويصف أطوار حياته فى تلك الجزيرة البعيدة المنعزلة عن البشر ، ليس أمره عجيبا ولاغريبا ...

وهكذا بعد أن أدخل فى روع قارئه أن قصة حى بن يقظان تدخل فى دائرة الاحتمال ولاتخرج عن حيز الامكان يستطرد فى سرد الاحداث حول الظروف التى أحاطت بحى فيقول : " كان بازاء تلك الجزيرة جزيرة أخرى عظيمة متسعة الاكناف كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الانفة والغيرة ، كان له أخت ذات جمال باهر فعضلها ومنعها من الزواج اذ لم يجد لها كفؤا وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرا ، ثم أنجبت طفلا ... وعندها خشيت أن يقتله الملك ويقتلها معه ... فأعدت له صندوقا وأرضعته ... ثم وضعته فى الصندوق ... وخرجت به فى الليل فى جملة من خدمها ، وأسلمته الى البحر وقلبها يتقطع عليه ، ودعت الله أن يحفظه .

ويمتد الموج بهذا الطفل حتى أدخله فى أجمة ملتفة الشجر مستورة عن المياه والشمس ... مضت أيام على الطفل ... وتراكمت

الرمال على الاجمة بقدرة الله عز وجل ... وترتب على ذلك عدم وصول الماء اليها ... وبمرور الايام ضعفت ألواح الصندوق وتفككت مساميره ... وبما أن الطفل كان منقطع الغذاء فى هذه الفترة اشتد به الجوع فأخذ يبكى ويصرخ ... ولكن عناية الله ترعاه ... فوقع صراخه فى أذن ظبية تبحث عن طلا ها ... وقدمت الى مكان الصوت ظنا منها أنه ولدها ... فأخذت تتحسس رائحة الطفل وهو يئن من ألم الجوع ... فقدمت له ضرعها ليشرب منه لبنا سائغا . وظلت تعاوده ،وترضعه بين الحين والآخر ،حتى كبر وشب وترعرع .

واستمرت هذه الظبية مع الطفل لاتغيب عنه الا للرعى ثم تعود اليه . فلما تم له حولان تدرج فى المشى ... وظهرت أسنانه فكان يتبع مرضعته الى حيث تجد له الغذاء ،فكانت تطعمه من ثمرات الاشجار ... وتساعده على كسر ماكان صلب القشرة بطواحنها ثم تعاوده الرضاعة وتسقيه الماء ... وكلما لجت رغبته فى شىء بادرت بتلبيته ...

وتبدأ عملية النطق لدى " حى" بمحاكاة الظبية وترديد أنغامها ... ومحاولة تقليد الطيور فى أصواتها ... ومتابعة حركات سائر الحيوان ،حتى ألفها وألفته ... ثم آخذ " حى " يتأمل هذه الكائنات ... فرأى أن الحيوانات مكتسية بالاشعار والاوبار والريش ولاحظ قدرتها على العدو السريع .. واستخدام قرونها للدفاع عن أنفسها ،ونظر الى شخصه فوجد أنه مفتقر الى مثل ذلك

فليس لديه مايستر جسمه ولاعورته ،ولامايدافع به عن نفسه شأن أترابه من أولا الظباء التى نبتت لها قرون ،وهو لم ينبت له شئ ... لم يجد "حى" لنفسه شبها بين هذه الكائنات ...

واستمر كذلك حتى بلغ السابعة من عمره ثم اهتدى الى استخدام أوراق الاشجار لستر عورته ... حتى اذا تساقطت استبدلها واستخدم عيدان الشجر للدفاع عن نفسه وصد عدوان الوحوش ... وعند ذلك فطن الى أن يده هذه التى تمسك العصى وتحركها للذود عن نفسه هى أفضل من قرون الحيوانات ... فعظمت نفسه فى نظره ...

ويبقى "حى" ملازما لامه الظبية حتى أدركها الكبر،وضعفت قواها ... وجاء دوره هذه المرة ليقوم بخدمتها ،وليسدى اليها ماكانت تبذله له منعطف وحنان " وهل جزاء الاحسان الا الاحسان " .

فجعل يرتاد بها المراعى الخصبة ،ويجتنى لها الثمرات ويطعمها ويسقيها كما كانت تفعل معه فى طفولته ... وكلما تقدمت الظبية فى السن ازداد هرمها وسيطر الهزال على جسمها الى أن غادرت الحياة ... فسكنت حركاتها ... وتألم "حى" لذلك وجزع جزعا شديدا ،فكان يناديها بالصوت الذى كانت تجيبه به عند سماعه فلايرى لها حركة ولاتغييرا .

جلس "حى" يتأمل ويتساءل ما الذى أفقد الظبية حركتها ولم يكن بها آفة ظاهرة ؟ وهل بالامكان أن ترد اليها حركتها ؟ ذلك محال !!! خطر له أن الآفة ربما تكون فى عضو غائب عن

العيان ... أى فى باطن الجسد ... وأنه لاينوب منابه شئ ،وله تأثير على سائر جسم الظبية ...

مكث "حى" يفكر طويلا أين يوجد هذا العضو ؟ واستقر فى تفكيره أن العضو فى منطقة الصدر فعزم على شق صدرها وتفتيشه فاتخذ له من قطع الاحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة أشباه السكاكين ،فشق بها صدر الظبية بعد لأى لقوة أضلاعها،وبعد محاولات عديدة وجد ضالته وهو القلب ،فألفاه مجللا بغشاء قوى موثق بمعاليق شديدة وعند ذلك قال فى نفسه : ان كان لهذا العضو من الجهة الاخرى مثل ماله من هذه الجهة فهو فى حقيقة الوسط ولامحالة أنه مطلوبى مع ما أرى له من حسن الوضع وجمال الشكل وقلة التشتت وقوة اللحم وأنه محجوب بمثل هذا الحجاب الذى لم أر مثله لشئ من سائر الاعضاء .

ثم فتش الجانب الآخر من الصدر فوجد فيه الحجاب المستبطن للأضلاع ووجد الرئة على ماوجده من هذه الجهة ... ثم حكم بأن ذلك العضو هو مايبحث عنه ،ثم شقه وجرده فرآه مصمتا من كل جهة فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة فلم ير شيئا،ولكنه لاحظ تجويفا فقال : ولعل مطلوبى الاقصى انما هو فى داخل هذا العضو ،وأنا حتى الآن لم أصل اليه ... حاول مرة ،وثانية حتى وجد فيه تجويفين : أحدهما : من الجهة اليمنى مملوء بعلق ودم . والثانى من الجهة اليسرى لاشئ فيه ...ونظرا لأنه قدجرحته الوحوش وعرف الدم

فقد اعتبر ذلك شيئا طبيعيا ... ولعل بغيته فى التجويف الايسر الذى يخلو من أى شئ ... فتفكر فى هذا التجويف لابد أن به ساكنا ارتحل عنه فبقى خاليا ،وتعطل بسببه الجسد ،وشلت حركته ... وعندها عرف أن أمه الظبية لم تكن شيئا بدون ذلك الشئ ،وأنه كان سببا لحركتها ... وفى أثناء هذه المدة تغيرت رائحة جسد الظبية مما جعل "حيا" ينفر منه لشدة نتنه ... ففكر ماذا يعمل ؟ فاذا غرابان يقتتلان أمامه حتى قتل أحدهما الآخر ... ثم واراه فى التراب ... فتعجب " حى" قائلا : " ما أحسن ما صنع هذا الغراب فى مواراة جيفة صاحبه ،وان كان قد أساء فى قتله اياه ،وأنا كنت أحق بالاهتداء لهذا الفعل بأمى ،ثم فعل ذلك .

وبقى "حى" حبيس تأملاته للظباء يرمق حركاتها ... وألفها وتقرب اليها لكونها على شكل أمه التى فقدت حركتها ... مكث "حى" مع هذه الحيوانات فلم ير منها شيئا يلائم شكله ... وكان يعتقد أن العالم هو هذه الجزيرة وهذه الحيوانات فقط ... وفى ذات ليلة آنس " حى" نارا قد انقدحت ولم يكن يعرف هذا المنظر من قبل فسارع اليها ودنا منها ومد يده اليها فأحرقتها ... ثم أخذ عودا منها لم تأكله النار بكامله وذهب به الى حيث يأوى .... وظل يمد هذه النار بالحطب والحشيش ليل نهار ،وكم آنست هذه النار وحشته ونورت ظلمة ليله ... فأعجب بها وظن أنها أفضل شئ

رآه ... وانها من ضمن الجواهر السماوية ،لأن لها شررا يتطاير الى أعلى .

استمرت تجارب "حى" مع النار،ووضع بها بعض حيوان البحر فأنضجته النار وفاحت رائحة الشواء الذى حرك لديه شهوة الطعام فأكل منه فاذا هو لذيذ الطعم ... واتجه الى صيد حيوان البر والبحر ... ليلقى به فى هذه النار ويسد به رمقه ... ويقوده ذكاؤه الى الربط بين حرارة النار وحرارة الحيوان وهو حى وبرودته بعد موته ... فدعاه ذلك الى شق حيوان حى ،ليفتح قلبه ... ففعل ورأى هواء بخاريا يخرج من القلب ... فلمسه بيده فاذا هو شديد الحرارة ... ومات الحيوان فورا... عند ذلك أيقن أن هذا البخار الحار هو مصدر حركة الحيوان ... وهو لدى كل حيوان ومتى ذهب عنه مات .

ويستمر "حى" يشرح الحيوانات ليتعرف على سائر أعضائها وصلتها بهذا الهواء .

فتوصل الى أن كل حيوان مهما كثرت أعضاؤه واحد باعتبار ذلك الروح الذى قراره واحد يوزعه على سائر الاعضاء التى تخدمه .

بلغ "حى" عامه الواحد والعشرين وهو يتأمل هذا الوجود ... فتوصل الى أن كل حيوان ينطلق بهذه الروح ،ويتعطل بفقدها ... ويستمر فى استئناس الحيوانات المتوحشة ليستعين بها فى الصيد .

ويعاوده التفكير فى ماهية الروح ... وكأنها بمثابة الشىء الواحد بالنسبة لسائر هذه الحيوانات،وأنها لو جمعت فى اناء واحد لكونت شيئا واحدا يوزع على أوان كثيرة ... وكان "حى" يتصور سائر الحيوانات فى نفسه فيراها متفقة فى الاحساس والغذاء والحركة بارادتها ... فظهر له أن الروح لدى هذه الحيوانات واحد ،وان وجد اختلاف فهو يسير اختص به نوع دون آخر ،مثل الماء اذا وزع فى أوان كثيرة بعضه حار وبعضه بارد ولكن أصله واحد ... فترتب فى ذهنه أن جنس الحيوان كله واحد باعتبار الروح .

ثم نظر الى النبات على اختلاف أنواعه وتشابه أشكاله وحركاته بالنسبة للشمس ،ولكنه يشترك فى شىء واحد هو بمثابة الروح للحيوان فيجعله شيئا واحدا،وأنه يجتمع مع الحيوان فى الغذاء والنمو ... ويختلف عنه فى الحركات والاحساس ،والادراك لدى الحيوان .

ويصل "حى" منجراء تأمله وتفكيره فيما حوله الى أن هناك صفتين لايخلو شىءمما رآه منهما : احداهما : الحركة الى العلو مثل الدخان والهواء واللهب ...

والثانية : الحركة الى السفل كحركة الماء وأجزاء الارض والنبات ،وأجزاء الحيوان وهذه الحركة تستمر مالم يكن ثمة عائق يعوق الجسم عنالاتجاه اليها كالحجر عندما يصادف الارض صلبة

فلايخرقهـا .

ثم لاحظ صفة الجسمية بخفها وثقلهاموجودة فى سائر الاجسام فالجسم : اما خفيف ،واما ثقيل ... وهناك شئ زائد على الجسمية لايدرك بالحس ... وانما يدرك بالنظر العقلى وهذا أول شئ لاح له من العالم الروحانى كما يقول ابن طفيل . ثم أخذ يهتم بالنفس الموجودة فى المخلوق ،وجعل طريقه لذلك هو : تصفح الاجسام الموجودة كلها من جهة كونها ذوات صور تلزم عنها خواص ينفصل بعضها عن بعض .

وتقود "حيا" تأملاته الى أن كل حادث لابد له من محدث فى هذا الوجود ... وهنا يدخل عامه الثامن والعشرين ... ويصل فيه الى أن السماء ومافيها من الكواكب أجسام لأنها ممتدة فى أقطار ثلاثة هى : الطول ،والعرض ،والعمق ... فاذا ماوصل الى الخامسة والثلاثين انتهت به المعرفة الى العلم بالموجود الحق الرفيع الثابت الذى لاسبب لوجوده ،وهو سبب لوجود جميع الاشياء ثم أخذ يتأمل فى حواسه الخمس ورأى أن ادراكها قاصر على ماكان جسما أو ماهو فى جسم ... ثم تبين له أن هذا ، الموجود الواجب الوجود متصف بأوصاف الكمال كلها ،ومنزه عن صفات النقص .

وبقى "حى" يتأمل ويتفكر على هذا الحال الى أن دخل عامه الخمسين ،وفيها التقى برجل يسمى "أبسال" ولأبسال هذا رحلة طريفة نقصها الآن :

ملخص هذه القصة : أن أبسال وسلامان أخوان شقيقان يقطنــــــان جزيرة قرب جزيرة "حي" وكانت قد انتقلت اليها ملة من المـــــــلل الصحيحة المأخوذة عن بعض الانبياء المتقدمين صلوات الله عليهـــم وقد تبنى نشر هذه الملة ملك الجزيرة وحمل الناس على التمســـك بها ... وممن تلقى هذه الملة هذان الاخوان وتمسكا بها وعمـــــلا بجميع شرائعها،واصطحبا على ذلك ،فكانا يجلسان للتفقه فيهــــا وفهم ألفاظها،ومعرفة صفات الله عز وجل وملائكته والثــــــواب والعقاب ...

وكان أبسال يطمح دائما للغوص فى الباطن لأنه أكثر عثـــورا على المعانى الروحانية ويجنح دائما للتأويل ... وأما سلامــــان فكان متمسكا بالظاهر وليس له ميل الى التأويل ... الا أنهمـــــا يلتقيان فى الاعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهـــوى وكان فى تلك الشريعة تعاليم تدفع الى العزلة ،وأخرى تحث علـــى ملازمة الجماعة مما جعل أبسال يطلب العزلة ،وسلامان يلزم الجماعة ... فكان ذلك سبب تفرقهما .

وبعد ذلك انطلق أبسال الى الجزيرة التى نشأ بها "حــــى" قاصدا العزلة ... فلما أبحر اليها ونزل بساحها ظل يتعبد اللـــه ويتفكر فى أسمائه الحسنى ،وصفاته الكاملة دونما انقطاع أو مـــلل الا اذا احتاج للغذاء فيأخذ منه مايسد رمقه ثم يعود لتبتله ...بقى على هذه الحال حتى شاء الله غير مايريد هو ... فهو يظـــــــن

أن الجزيرة خلو من أى شخص ... ففى ذات ليلة خرج يتنزه فـــــــى الجزيرة فوافق خروجه خروج "حى بن يقظان" وهو يلتمس غذاءه ... فوقع بصر كل منهما على الآخر ،فماذا كان تفسير كل منهما لصاحبــه ياترى ؟

أما أبسال ; فظن أنه عابد خرج للعبادة كما هوالشـــــــأن بالنسبة له ...

وأما "حى " فكان موقفه التعجب ،موقف من يرى شيئا جديـــــدا لم يألفه ... ويستمر فى تعجبه لأبسال ولما يلبسه على جسده الـــى أن دفع به حب الاستطلاع الى القرب منه ... ففر أبسال هاربا مخافـة أن يشغله عن العبادة ... فاشتد "حى" فى أثره فلم يدركـــــــه ... فاختفى ايهاما له أنه تراجع عنه حتى اطمأن أبسال ... وشرع فـــى صلاته ... فكان يقرأ ويدعو ويتضرع الى الله فى خشية وبكاء شديـــد حتى أنه لايكاد يشعر بمن حوله ... وكان "حى" يقترب منه شيئـــــا فشيئا ويستمع لقراءته ودعواته ... فارتاحت نفسه لذلك الصـــوت الحسن ... وهذه الكلمات الرقيقة التى لم يعهدها من قبل مـــــن أقرانه الظباء ولامن سائر الحيوان ... ثم جلس يتفرس شكل أبســـال فرأى أنه على صورته ... وأن لباسه ليس جلدا طبيعيا ... ثم عـــاد بفكره الى استماع القراءة والدعاء،فقال فى نفسه : ان هذا مـــن الذوات العارفة بالحق ... فزاده ذلك شوقا اليه ليعرف حقيقتـــه ويتعلم مما عنده ... فلما دنا منه فر هاربا ... وانطلـــــــق "حى" خلفه حتى قبض عليه لما وهبه الله من قدرة وقوة بدنيـــــة

لنشأته بين الحيوانات السريعة العدو . وينعكس المشهد ... حيث اصبح أبسال هو الذى يتأمل "حيا" وهو مكتسى بجلود الحيوانات وتعجب من شعره الذى كسا كثيرا من جسمه ... ولكنه شعر بالخوف لقوة "حى" وشدة بطشه عندما اشتد فى اثره ... فحاول التخلص منه بكلمات لايفهمها "حى" ولكنه عرف أنه خائف ... فأخذ يشعره بالانس والطمأنينة ،ويمسح بيده على رأسه حتى هدأت نفسه وعرف أنه لايريد به سوءا ... عند ذلك أخذ أبسال يحدث " حيا" بلهجات شتى لانه قدتعلم اكثر الالسن ، الاأن "حيا" لايفهم مايقول ... ثم يقوم أبسال ليقدم "لحى" بعض طعامه ... فتردد "حى" فى أكله خشية أنيكون هذا الطعام مضرا به لانه لايعرف حقيقته ... ومازال أبسال يحاول اقناعه ليأكل منه وهو متردد ولكنه خشى أن تردده هذا قد يؤدى الى نفور أبسال منه مرة أخرى ... فاضطر الى الاكل معه ... فلما ذاقه أعجبه ... الا أنه أحس بأنه أخل ببعض عهود أخذها على نفسه ... ففكر فى الانفصال عن أبسال ... لكنه لم يحقق شيئا بعد وهو يريد التعرف على ماعنده من عالم الحس ،لأن فارق اللغة قد حال بينهما ... فاضطر "أبسال " الى تعليمه اللغة والدين محتسبا ذلك عند الله ... وكانت وسيلته لذلك هى النطق مقرونا بالاشارة الى مسميات الاشياء الموجودة ،حتى من الله عليه بالنطق والقدرة على المحادثة ... وبعد ذلك أخذ يوجه اليه تساؤلات كيف وجد فى هذه الجزيرة ؟ وكيف وكيف ؟ ولكن " حيا "

لم يزد على أن قال له أنه لايعرف كيف وجد،ولايعرف سوى الظبية التى قامت برعايته .

وانما شرح له بداية تعلمه الذاتى من جراءموت الظبية وتشريحها وتشريحبعض الحيوانات ... وتفكره فيما حوله حتى وصل الى ماوصل اليه ... فجعل أبسال يقارن بين ماعرفه من الشرع وماذكره "حى" فوجد فى نفسه تعظيما له ... ثم حدثه عن جزيرته التى خرج منها ووصف له حال أهلها قبل وصول الملة اليها وبعدها ... فآمن "حى" بما ذكر وشهد برسالة صاحب هذا الشرع ... فعلمه أمور الدين من صلاة وزكاة وسائر العبادات ... لكن " حيا " لايفتأ يسأل ويتعجب !!.

فمن بين تساؤلاته : لماذا ضرب هذا الرسول الامثال للناس ؟؟ ولم أباح لهم اقتناء الاموال ،ونحو ذلك ... وهو يعتقد أن كل الناس ذوى فطر فائقة كما يقول ،ولكن للاسف ،وجدهم على شىء من البلادة والنقص ،وأنهم كالانعام بل هم أضل سبيلا ... واتفق العابدان على الذهاب الى هؤلاء الناس لهدايتهم وتنوير الطريق لهم ... فركبوا سفينة كانت قد ضلت طريقها وهيأ الله لهم رياحا دفعتها الى جزيرة أبسال ،فلما وصلا ... اجتمع الناس من أصحاب أبسال لدى " حى" بنصيحة من أبسال لانه عظم "حيا" عندهم وحثهم على اتباعه ... فالتفوا حوله وشرع "حى" فى بث أسرار الحكمة اليهم ... فظهرت لهم منه معارف تخالف شرعهم فنفروا منه

ولم يبتعدوا عنه مجاملة لصاحبهم "أبسال" ... فما زال "حـــــى" يحادثهم ليقنعهم فلم يستطع ... فخرج يائسا ورأى أن هـــــذا المجتمع سادر فى أشياء تخالف مايريده; الله منهم ... وآخـــــذ يتصفح طبقات المجتمع فوجدهم يلهثون وراء شهواتهم وتهالكهم فـــى جمع حطام الدنيا حتى يأتيهم الموت . وعندئذ أيقن أنه لاتجـــدى معهم موعظة لكثرة جدلهم ... ولايمكن أن يتعلموا الحكمة لتفشـــى الجهل فيهم،وأنهم ممن " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلـــى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ..." ومع ذلك أوصاهم بملازمـــة شرعهم والابتعاد عن الخوض فيما لايعنيهم ... وعليهم التأســـى بسلفهم الصالح ... وحذرهم من الدنيا والتوغل فيها ... ثم كـــر راجعا هو وصاحبه أبسال الى جزيرة واق الواق ليعبدوا ربهمـــا حتى يأتيهما اليقين . اهـ (١)

---

(١) هذا تلخيص لنص الرسالة الاصلى . انظر :

١ – نص الرسالة لدى أحمد أمين .

٢ – نص الرسالة لدى فاروق سعد .

٣ – نص الرسالة لدى عبد الحليم محمود .

٤ – نص الرسالة لدى الدكتور محمد عزت نصر الله .

وكل هؤلاء قاموا بتحقيقها ،ودراستها،ونشرها ،وقد نشرهـا من قبل ذلك الدكتوران ،جميل صليبا ،وكامل عياد،طبـــع جامعة دمشق ، ١٩٦٢م .

الفصل الثالث

قصة «حي بن يقظان» بين الفن والفكر

لابن طفيل مذهب فكرى متميز استطاع أن يبرزه من خلال قصته هـــذه فى أسلوب أدبى آخاذ يفيض حيوية • حيث عرض لنا مذهبه الفكرى هـــذا عرضا تجلت فيه البراعة فى الاستدلال والتفرد والابتكار فى البناء الفنى ،والمهارة فى المعالجة ،والفعالية فى الايحاء استطاع أن يعالج قضية شغلت بال المفكرين المسلمين قبله بقرون عدة تلك هى قضيــــة " المعرفة" ونظر لدقة هذا الموضوع وعلوه على أفهام الكثيرين آثر فى طريقة تناوله أن يعرضه على القارئ فى هذا الاسلوب القصصى الممتع ••• ولعل هذا ما جعلها تنتمى الى الادب من جانب ، والى الفكر من جانب آخر ، فهى أدب من حيث الشكل فكر من حيث المضمون••• ولقد وضع امام قارئه انسانا نشأ وحده فى جزيرة ليس فيها الا نبات وحيوان ،وكائنات ماديه كالارض والماء والشمس ،فلما نما جسمـــــا ونضج عقلا استطاع من تأمل المخلوقات التى حوله أن يستدل بعقلــــة المحض على وجود الله وطبائع الاشياء ••• لذلك فانه قد أحســـــن اختيار عنوان قصته لأنه اذا كان الانسان المعزول وحده فى جزيــــرة منذ ولد قد استطاع بعقلة يقرأ الكائنات من حوله قراءة جعلتـــه يصل الى معرفة الحق سبحانه والى معرفة حقائق الاشياء وطبائعهـــا فذلك لأنه لم يكن غافلا ولا لاهيا بما يسمع ويرى ••• أعنى لم يكن غافلا ولا لاهيا عندما قرأ الذى قرأه فيما حوله•••فذلك لانه حي بكل معـــــنى الحياة ،ولانه يقظان بكل وعيه وادراكه•••فهذا هو الذى صنعـــــــه

المفكرون المسلمون الاولون حينما حاولوا التوفيق بين النقل الذى نزل به الوحى ومايدركه العقل باستدلالاته وبراهينه وتفكره فى خلق السموات والارض "ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار" وهذا هو التفكر الباحث المتأمل المتعبد لله سبحانه (١) ومن هنا جاءت هذه القصة منفردة ممتعة ،فيها المقاصد العليا،والخيالات القصصية اللطيفة وقد صاغ ذلك كله فى عبارة أدبية جزلة ... لذلك جاء العنصر القصصى فيها متناسقا متعادلا فى أجزاء القصة كلها بالعنصر الفكرى من غير أن يطغى عنصر على عنصر ... وقد عرف ابن طفيل كيف يستبقى من الاسطورة مايصلح ومايسوغ وطرح منهامالاينفع ولايجدى وادخل هنا وهناك من التعديلات ما أضفى على القصة روحا جديدة استطاعت أن توصل الى القارىء ذلك الحشد العظيم من الآراء والافكار (٢) من غير عنت ولاتكلف ولاشعور بالاملال والاثقال ... ومن المسلم به أن انطلاق الفنان من حادثة واقعية لتكوين موضوع عمل فنى هو من أرقى مناهج العمل الفنى وأبين سبله ،وأصدق معطياته .. وأقدر تعبيراته على الايحاء وأكثر أحداثه ارتباطا بالحياة ... وبهذا يكون

---

(١) انظر جريدة الاهرام العدد ٣٦٠٩٨ عدد الثلاثاء محرم ١٤٠٦هـ من مقال نشر للدكتور زكى نجيب محمود .

(٢) انظر "حى بن يقظان" ت فاروق سعد ص ٢٠ .

ابن طفيل سلك أرقى مناهج العمل الفنى فيما لو ثبت انطلاقـــــه منحادثة واقعية ،وقعت وعرفت فى زمنه أو فى عصر سابق له عــــن العثور على ولد مسيب أو متروك يعيش مع الحيوان فى احدى الغابـات أو البرارىا (٣) واذا ماعدنا نتصفح ونستقرىء هذه القصة عرفنـــا أن القيمة الحقيقية لها تعود الى مايتميز به بناؤها من ابتكـــار وماتتسم به معالجتها من براعة بحيث يمكن اعتبار قصة حى بـــن يقظان قصة ناضجة نضجا فنيا تاما،وعلى مستوى أدبى رفيع ،ليـــس بالنسبة لعصرها فحسب ،بل لكل زمان ومكان وعلى أساس تقييـــم يعتمد أحدث مقاييس النقد الادبى والادب المقارن • (٤)

وفى دراسة شاملة لهذه القصة قام بها المستشرق الاسبانـــى "جارثيا قومث" ذهب فيها الى أن الهيكل العام للقصة مأخوذ مـــن قصة " الصنم والملك وابنته" وهى احدى الاساطير التى نسجت حـــول شخصية الاسكندر الاكبر ،ولابد أنها كانت معروفة عند أهل الاندلـــس فتناولها صاحب قصة حى بن يقظان فى قالب رمزى ••• وقد وجد ابـــن طفيل فى هذه الفكرة الادبية ذات الحيوية المتصلة والتى تبـــدو حقيقة وان كانت من نسج الخيال السبيل الى عرض نظرية " المفكـــر المتوحد" فى كتابات ابن سينا،وابن باجه،وقد وجد ابن طفيـــل

---

(٣) انظر "حى بن يقظان" ت فاروق سعد ص ١٨ •

(٤) انظر "حى بن يقظان" ت فاروق سعد ص ٢٨ •

فيها كذلك وسيلة تتفق مع تفكيره اتفاقا بديعا، بل ضمت هذه الحكاية نقطة ظاهرة استطاع ابن طفيل أن يفرغ فيها أفكاره ... ومن هنا نتج هذا التأليف الجميل بين قصة شائعة وبين الافكار العميقة، واستطاع ابن طفيل باسلوبه العذب الذى يفيض ابتكارا وقوة شاعرية ينتج منها أثرا من أعظم ما أطلعته العصور الوسطى . (٥)

وقد ناقش رأى "جارثيا جومث" هذا "ليون جوتييه" عندما ترجم رسالة حى بن يقظان ذاكرا ما أخذه المستشرق "بتروف" على "جارثيا جومث" وهو أنه " استبعد من بحثه كل ما يتصل بالتحقيق الفكرى، وانه اقتصر على دراسة أصل القالب القصصى لان تلك الطريقة قد أدت به الى التقليل من قيمة العنصر المبتكر فى رسالة حى بن يقظان بل بالازراء به فى بعض الاحيان اذ أن العنصر الاول من عبقرية ابن طفيل فى قصته ليس القالب القصصى، وانما مذهبه الفكرى ... وان لم تكن الافكار التى ساقها مبتكرة، ولقد استطاع ابن طفيل أن يستعمل أسطورة خرافية عجيبة لعرض كل ما عرفه أهل زمانه من الآراء فى العلم وماوراء الطبيعة والتصوف والتفسير ويعلق جوتييه قائلا : ان فضل ابن طفيل فى هذه الناحية خفى على "جارثيا جومث" اذ انصرف همه الى بيان المشابهة وتجلية ما أخذه

---

(٥) انظر تحقيق أحمد أمين للقصة ص ١٢ .

ابن طفيل من اسطورة الصنم جملة وتفصيلا ،فلم يفطن الى التحويرات البديعة التى أدخلها ابن طفيل على هيكل القصة ثم أخذ عليه قوله : ان الخيط الذى ينتظم حلقات القصة يبدو واضحا غليظا فى أولها وفى آخرها ويدق فى الوسط حتى يكاد يخفى ،وان بداية القصة ونهايتها أشبه بقوسين ضخمين يضمان بينهما حشدا رائعا من الآراء والافكار ،لان ذلك يوحى الى القارئ فكرة ضعف رسالة "حى بن يقظان" من الناحية القصصية ،بينما هذا العنصر فى الواقع متناسق متعادل فى أجزاء القصة كلها ،وهو يختلط بالعنصر الذهنى من أول الكتاب الى آخره ... (٦) هذا الى جانب التأنق فى الاسلوب ،والبراعة فى التعبير ،والسلاسة فى التركيبات ،ولقد طوع اللغة لافكاره ،فأدى المعنى فى دقة تامة باسلوب بارع (٧) .

لذلك لايمكن القول بأن ابن طفيل مقلد متبع ،بل هو مجدد مبتدع ،ذلك أن قصة حى بن يقظان تمجد العقل وتمنحه الامتياز الاول ،فحى رمز للعقل ... (٨) وقالوا : اليقظان هو الله ... ولكن نرد عليهم بأن المقصود به لايمكن تفسيره كذلك تنزيها لله

---

(٦) المصدر السابق ص ١٢، ١٣ .

(٧) انظر تحقيق عبد الحليم محمود ص ١٢ .

(٨) انظر "حى بن يقظان وروبنسون كروزو" دراسة مقارنة ،حسن محمود عباس ط١ ،١٩٨٣م المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص ٣٣ .

سبحانه عن الولد كما قال سبحانه فى سورة الاخلاص " لم يلد ولم يولد" بل نقول : ان هذا الرمز يوحى بالمفكر النشط والمتأمل الدؤوب لما حوله ... واذا فمعنى " حى بن يقظان" العقل المفكر المتأمل .

ونحن اذ نتحدث عن مكانة هذه القصة الفنية نجد من يتردد فى انتمائها الى القصص الفنى ،وأن هذا الانتماء لم يستقر بعد فهناك من يضعها فى صف الرسائل الفلسفية البحتة ،وهناك من يعدها قصة ،ولاشك أن الحق مع صاحب الرأى الاخير ،لأن ملامح القصة الفنية من أحداث وشخصيات وسرد قد تحقق فيها ... ثم أن ابن طفيل نفسه سماها قصة فهو يقول : " فأنا واصف لك قصة حى بن يقظان وأبسال وسلامان ، اللذين سماهما الشيخ أبو على ففى قصصهم عبرة لاولى الالباب ... " (٩)

أما المستشرق "ليون جوتييه" فيعدها قصة فكرية ميتافيزيقية رومانسية وهذه القضية مأخوذة من العنوان الذى وضعه لها عندما ترجمها الى اللغة الفرنسية هذا فضلا عن قوله : " ان هذه القصة العلمية الميتافيزيقية يقطع بأهميتها لطف التصوير وفن التأليف وتركيب الاجزاء والاسلوب ،وكل هذا الادب الذهنى الذى يكون جدليا حينا ورمزيا حينا آخر ...

---

(٩) انظر القصة لدى أحمد أمين ص ٦٦ .

وممن أطلق عليها تسمية قصة المستشرق الاسبانى " جارثيـــــه جومث" الذى خصها بمقال مطول قصره على الحديث عن القالـــــب القصصى وعن الصلة المشتركة بينها وبين كتاب الناقد،للكاتـــب الاسبانى " بلتازار جراسيان" وكذلك هى فى نظر انطونيو باستـــور فقد قرر أنها قصة رومانسية ،ودرسها على هذا الاساس ٠ (١٠)

هذا الى جانب بعض الباحثين العرب منهم من سماها رسالـــة ومنهم من سماها قصة ،ومنهم من يرى أنها أكثر من قصة ،وكأن اطلاقه لكلمة قصة يقيدها من آراء كثيرة ٠٠٠ ومن هؤلاء الدكتور " سامـــى حاوى" حيث يرى أنها رسالة فكرية ميتافيزيقية ،وليست قصة رمزيـــة رومانسية ٠٠٠ ولقد وقف أمام تساؤلات عدة حول انتمائها لفـــن القص أو لاسلوب الرسائل ٠٠٠ وأجاب بأنها لو كانت " حى بـــن يقظان" قصة رمزية رومانسية لما كانت رسالة ،ذلك أن أسلـــوب الرسائل يختلف عن اسلوب القصص ٠

ففى الرسالة تتكشف مقاصد الكاتب ،وتتضح موضوعاته الاساسيـــة وتتطور فى سلسلة مستمرة من الجدل والمناظرات،والتحليـــلات والتعليلات بحيث تظهر ملامح الحقيقة التى يهدف اليها الكاتب مـــن خلال العرض ٠٠٠ وبتعبير آخر ان الرسالة ذات منهج محدد تسيـــر عليه ٠٠٠ فهى تحفل بالعرض وبالبسط والمناقشات بحيث تفضـــى

---

(١٠) أنظر : "حي بن يقظان وروبنسون كروزو " حسن محمود عباس ،ص ٠٦٨

المقدمات الى النتائج ٠

أما القصة فهى تسير فى طرائق فنية تختلف كثيرا عن الرسالة ٠٠٠ فالمجادلات والشرح والعرض تؤثر تأثيرا بالغا على فنية القصة ٠ (١١)

والواقع أن الدكتور "حاوى" يجانبه التوفيق فى هذه المناقشات ،ذلك أنه لم يضع فى اعتباره الفرق بين القصة الفنية الخالصة والقصة الفكرية أو الذهنية ٠٠٠ هذا الى أنه يبدو أنه يحاسب قصة " حى بن يقظان" التى كتبت فى القرن السادس بالمقاييس الجديدة التى يقوم فيها فن القصة فى القرن العشرين ،ولم يجعل لفارق الزمن حسابا ٠٠٠

والحق أن الدكتور"حاوى" قد شعر أخيرا أن مناقشاته حول هذا الموضوع لاتخلو من مبالغة ٠٠٠ ولذلك اضطر أن يقول/:،

" اذا كانت شخصيات ابن طفيل قصصية ،فان موضوعاته ليست كذلك بالتأكيد " ٠ (١٢) ونحن نقول له : ومن ادعى ذلك يادكتور "حاوى"؟ اذا هى قصة لانها مكرسة لاداء جيد لافكار عميقة ومقصودة أداء روائيا ٠

ومن البحاثة العرب أيضا الاستاذ أحمد أمين الذى يرى أنهـا

---

(١١) المصدر السابق ص ٦٨ ٠

(١٢) المصدر السابق ص ٦٨ ٠

قصةذات جانب فكرى لانها سارت كما يقول على منهج رجال الفكـــــــر المسلمين الذين يتميز موقفهم بمحاولة التوفيق بين العقل والنقل أو بين الوحى الالهى ومعطيات الفكر البشرى ...

ونعود بعد هذا التفصيل حول تسميتها قصة الى ذكر الجوانـــــب الفنية فيها :

فمن تلك الجوانب : الحدث فى القصة حيث نراه يتتابع وفـــــق نظام دقيق ،أى أنه يتوخى الحصول على النتائج من أسبابهـــــا ... ولذلك جاءت الحبكة فيها ليست معقدة لانها لاتحفل بالاحداث كثيـــرا وشخصية "حى" هادئة برغم سعيها الداثب الى معرفة حقيقة الوجـــود انه سعى العقل المنطلق الذى يتعامل مع الافكار ،لاسعى الشخصيـــة التى تتورط فى قضايا يومية على نحو ماترى فى الحياة الاجتماعيـــة وشخصية "حى" ليست جزءا من الحبكة،لان الحبكة غير معقدة ،بـــــل متراخية كما أن الاحداث فيها تلقائيةبرغم خضوعها لمبدأ السببيـــة وهى متعلقة بشخص البطل نفسه ،فهى لاتقوده ،بل تسير معه جنبـــا الى جنب ... (١٣)

وأفكار القصة جاءت مرتبة ترتيبا منطقيا بحيث لاتأتـــــــى الفكرة الامن فكرة سابقة عليها ... أى أن تعاقب الافكار وسيـــادة الجو العام هى المظهران البارزان اللذان يطغيان على ماعداهمـــا

---

(١٣) انظر" حى بن يقظان وروبنسون كروزو" ص ٨٠ .

واذا كان العنصر السائد فى القصة يحدد نوعها،فان قصة " حى بن يقظان" من نوع : القصص الفكرى ... (١٤)

بل هى أول قصة فكرية فى أدبنا العربى ...

لقد دأب ابن طفيل لتحقيق هدفه الى اسلوب خاص حتى يعى مخاطبة هذا الهدف فابن طفيل وضع أمام قارئه اعتبارين أساسيين فى القصة هما البعدان اللذان ارتكزت عليهما : فهناك بعد فنى وبعد فكرى جدلى اذ يلزم ابن طفيل عندئذ التوفيق بين هذين المنهجين ... والذى نلمسه من خلال قراءة القصة،ومن التعرف على الدراسات التى أجريت حولها أنه " وفق فى التئام بعدى هذه القصة ،بل انه " وفق غاية التوفيق ،فكان نثره الفنى أقرب الى الشعر،وكان اسلوبه واضحا برغم دقة المعنى الذى كان يعالجه ... وهذا الموضوع بالدرجة الاولى موضوع ذهنى استطاع أن يخرجه فى اسلوب يتسم بالقدرة على اختيار المفردات ،وانسياب اللغة دون تعثر،والجرس الموسيقى للكلمة المفردة،والجملة ... وقدرة ابن طفيل هذه تنبع من سعة اطلاع وعمق ثقافة ،لانه يعرف أن طبيعة الفكر تحتاج الى الدقة فى التعبير وعدم الاستطراد،والتزام المصطلح المتداول فى هذا المجال من مجالات الكتابة والسعى الى الوضوح بقدر ماتسمح به طبيعة الموضوع . (١٥)

---

(١٤) انظر " حى بن يقظان وروبنسون كروزو" (ص٨٠ .

(١٥) المصدر السابق ، ص٨٠ .

ولانبالغ اذا قلنا أن ابن طفيل فى قصته هذه يعتبر رائـــدا فى الادب العربى كيفلا،ونحن نجد فى اسلوبه " بسط المقدمات وجمال عرضها ،وحسن صياغتها تتلوها النتيجة المنطقية لما سبق من مقدمات على طريقة أساليب المناطقة فى التحليل والتعليل ،والتدرج من صغرى القضايا الى كبراها الى النتائج المرصودة ... الى جوار التجربة الناجحة والاستنتاج الدقيق ،تبينت فيها قدرة الكاتب على استخدام أساليب العلماء أيضا فى الاستقراء الكامل ... اضافة الى قدرته الفذة على الاستنتاجات الواقعية ،وبعدها عن التجريد الذى يعتبر الطابع العام لهذه القصة قبل ابن طفيل . (١٦)

من ذلك نكون قد وقفنا على أصالة ابن طفيل ،وطابعه القصصى المشرق ،وعرفنا خصائص اسلوبه الفنى ،وقدرته على تسخير قصة خيالية خرافية لابراز هدفه الذى يرمى اليه ... ولاننسى مقدرته العجيبة على اثراء قصته هذه بالالفاظ والمعانى الجميلة واخضاعها لذوقه الرفيع ،وخياله الرحب ، الذى أبدع من خلاله وكون عالما عجيبا غريبا ،جعل القصة تبرز فى الاوساط الادبية العالمية ،وجعل بعضهم يفضله على كل من سبقه لانه كما يقول أحمد أمين : " يستقى معلوماته اللغوية الادبية من كتب

---

(١٦) ينظر فى ذلك : ملامح التجديد فى النثر الاندلسى خلال القرن الخامس الهجرى ،د. مصطفى السيوفى ،ط ١ ،عالم الكتب ،بيروت ص ٩٩ .

الادب والمثقفين ،فجاءت عبارته آنصع وأبلغ ... " . (١٧)

ويصدق على ذلك أيضا قول " آنخل بالنثيا" : " ..واستطاع ابن طفيل بأسلوبه العذب الذى يفيض ابتكارا ،ومنطقا وقوة شاعرية أن يخرج أثرا من أعظم ماأطلعته العصور الوسطى ... (١٨)بل يمكننا أن نقول ان ابن طفيل قصاص عبقرى فى الجانب العلمى من هذا الفن كما كان مبتكرا لهذا الفن رأسا لم يسبقه اليه أحد أعنى سياقه المادة العلمية ،والمادة الميتافيزيقية فى قصته ... " . (١٩)

نخلص من ذلك الى الحديث عنقضية المعرفة عند ابن طفيل :

ورحلة ابنطفيل أو "حى" هذه فى جزيرته المنعزلة ... من الممكن أن تسمى "رحلة المعرفة" ... بل من الممكن أن تسمى جزيرته تلك التى عاش فيها "جزيرة المعرفة" ،لان هذه القضية الكبرى التى شغلت من قبله جهابذة الفكر هى المضمون الذهنى الذى دارت حوله قصته .

---

(١٧) انظر ابن طفيل لأحمد آمين ،ص ١٢ .

(١٨) الفكر الاندلسى لانحل بالانثيا ترجمة حسين مؤنس ص ١١٩ سلسلة الالف كتاب ـ ١٩ ـ القاهرة .

(١٩) " ابن طفيل " : لعمر فروخ ،ص ١٢ .

والمعرفة عند ابن طفيل نوعان : (٢٠)

النوع الاول : معرفة عقلية وهى تلك التى تعتمد على الحواس الخمس فى تحصيلها وميدانها هذا العالم المادى المحسوس بكل مافيه من أحياء وكائنات ،وظواهر طبيعية وقد اعتمد فى كسب معرفته فى هذا الميدان الرحب على التجارب الحسية لاعلى الملاحظة فحسب ... وقد سجل ابن طفيل فى قصته أمثلة حية تفسر مقاصده :

فهذا "حى" يبصر النار لاول مرة فى الجزيرة ... فيقترب منها ... ويمد يده اليها ... ويحاول أن يلمسها فتحرقه ... فيرد يده ويبعدها عنها ... حتى اذا بردت أعاد التجربة من جديد ...

ويدفعه حب المعرفة الى تشريح الحيوانات حية وميتة ... ويتفحصها بدقة ليصل من وراء ذلك الى كشف المجهول ... وكأن الكون الكبير من حوله كتاب معروض ... وهو يريد أن يقرأه ...ويفك طلاسمه ... ويحل أحاجيه ... وقد كانت وسائله لذلك تجاربه الحسية وملاحظاته الناقدة وهكذا... عن هذا الطريق ... استطاع "حى" أن يتوصل الى حقائق فى الرياضيات استخدمها عند الحديث عن شكل العالم ...

---

(٢٠) انظر فى ذلك : عمر فروخ " ابن طفيل وقصة حى بن يقظان" ص ٥٩ – ٦٠ .

وحقائق فى الفلك أوصله الى أن يقرر أن هذا العالم جسم...
وأن كل جسم متناه ... وأن الارض كروية ... وأن الشمس أكبر من
الارض ...

وحقائق طبيعية جعلته يتحدث عن الصوت ،والحجم ... والثقل
وأن لكل جسم طولا وعرضا ...

وحقائق جغرافية : مكنته من التحدث عن الحرارة ... والضوء
والاجسام التى تقبل الحرارة ،والضوء الى غير ذلك من حقائق فى
علوم الحياة والطب والتشريح .

لقداستخدم "حى" فى جزيرته النائية المشاهدة والملاحظة
والتجربة ،كوسائل معرفية حتى ان بعض الباحثين يعتبر ابن طفيل
الواضع الاصلى لاسس الملاحظة الطبيعية والتفكير العلمى ... وقد
وصل من قيامه بتشريح الحيوانات الى نظرية القلب القائلة :

" ان القلب أعظم مافى الجسد ،وأنه مسكن الروح " . (٢١)

ولقد كان تركيز ابن طفيل على هذا المنهج الذى يقوم على
ملاحظة المحسوسات واصطناع المنهج التجريبى هو الذى دفع
بعض الدارسين الى وضع تعريف لنظرية المعرفة عنده بقولهم
" ان المعرفة عند ابن طفيل هى تصفح أشخاص الموجودات المحسوسة
ثم اقتناص المعنى الكلى لها ... " . (٢٢)

---

(٢١) عمر فروخ " ابن طفيل وقصة حى بن يقظان" ص ١٣ . نقلا عن
كامل عياد،وجميل صليبيا .

(٢٢) نفس المرجع السابق .

وتجدر الاشارة هنا الى أن المعرفة التى توصل من خلالها "حى" الى القول بوجود الله جل وعلا ... ليست من قبيل المعرفة الحسية ... ولكنها معرفة عقلية تعتمد على الاستنتاج المنطقى ارتكازا على البدهية الفكرية التى تقول : " ان الصنعة تدل على وجود الصانع والاثر يدل على وجود المؤثر ... " . وليست من قبيل المعرفة التى تصدق على عالم المحسوسات التى تخضع للتجربة الطبيعية .

النوع الثانى من نوعى المعرفة عند ابن طفيل : معرفة حدسية لاتعتمد على العقل أو الحس أو التفكير المنطقى ... ولكنها تعتمد على مايشبه الالهام انها معرفة تقفز الى النتائج دون مقدمات يزعم القائلون بها أنها من معطيات الثقافة النفسية ... والادراكات القلبية .

وميدان هذه المعرفة عند "حى" أو عند ابن طفيل يقفز أيضا الى عالم الغيب ، عالم ماوراء الطبيعة والحس . (٢٣)

وواضح أنها معرفة اشراقية مأخوذة عن تعاليم الافلاطونية الحديثة التى تلتقى بتعاليم الهنود فى تراث الشرق القديم ... وهى من ثمرات المعاناة ، والرياضيات ، والتخييلات ... ونحن نبادر

---

(٢٣) المصدر السابق ص ٦٠ ، وفى سعة معارف ابن طفيل ينظر المرجع نفسه ص ٥٨ ومابعدها .

ونبين أننا نخالف ابن طفيل فى شأن المعرفة التى تتصل بعالم الغيب ،لان الانسان الذى هو من عالم الشهادة ... لايصح له نظر ماوراء هذا العالم ،ولأنعالم الغيب لايخضع لتجاربه وحسه وكل رأى يصطنعه فى هذا الميدان ضرب من الوهم والتجديف ... ولنا وقفة معه فى هذه القضية فى نهاية هذا الفصل انشاء الله .

ومن هنا أيضا ننكر على بعض الباحثين الذين يزعمون أن الاسلام لايخالف ماذهب اليه ابن طفيل ... أو أن ابن طفيل كان متبعا للمدرك الاسلامى .. (٢٤)

وهل كان ابن طفيل موافقا للاسلام فى مقولته التى يشير فيها الى امكان تطبيق الشرع الواحد تطبيقا مختلفا فى البيئات المختلفة . (٢٥)

وهل ذهب عنه أنه دين الله ثابت لايتغير ... وهوانما جاء لتغيير البيئات لاأن يتغير بتغير البيئات ... والمسلم مأمور بالتسليم لماجاء به الدين كما جاء فى قوله تعالى : " وماأتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا..." .*

ومجمل القول فى قضية المعرفة لدى ابن طفيل حيننعرضها

---

(٢٤) المصدر السابق ص ١٢ .

وانظر الادب الاندلسى ،مصطفى الشكعة ،ص ٦٩٥ .

(٢٥) عمر فروخ " حى بن يقظان " ص ١٢ – ١٣ .

(*) سورة الحشر ، آيه ، رقم(٧).

على الاسلام وتزنها بميزانه فانه يقبل منها المعرفة الحسية الطبيعية التى تصدق على عالم المحسوسات ... بل ان ابن طفيل قد أخذ هذا المنهج عن القرآن الكريم ... وقد تتلمذ كثيرا على كتاب الله العزيز فى هذا الميدان .

أما مايتصل بعالم الغيب والمعرفة الحدسية فهو مرفوض تماما لأنه يخلط خلطا شائها معيبا بين دين الله الحق ،ومخرقات الكهانة وتهويمات الفنون ... والرؤى الشعرية .

وعلى كل حال فقد انعكست شخصية ابن طفيل المفكر والعالم والطبيب والفلكى والرياضى على شخصية "حى" فكان فى جزيرته النائية المعزولة مفكرا عالما طبيبا فلكيا رياضيا ... كما انعكس ذلك كله على أحداث القصة وحركة الحياة فيها .

أما المنطق الارسطى فلم يشغل نفسه به كثيرا (٢٦) ... ولذا فقد ورد فى القصة فى نهاية الايجاز ... والسبب فى ذلك واضح لأن ابن طفيل من مريدى افلاطون،والافلاطونية فيما يتعلق بما وراء الطبيعة : عالم الغيب ... أما فيما يتعلق بعالم الشهادة فهو من مريدى مدرسة القرآن الكريم . لاسيما فيما يتعلق بالملاحظة والتجربة فى الكون والكائنات ،والتفكر فى الخلق وفي الروح كما قال تعالى(انفى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات

---

(٢٦) لم يول ابن طفيل المنطق عناية لانه جاءمتأخرا الى الاندلس ولم يتعرض له ابن طفيل على أنه علم . انظر : عمر فروخ ص ٥٩ .

لأولى الالباب " (٢٧)٠ وقوله تعالى " وفى أنفسكم أفلا تبصرون" (٢٨)
أما التفكر فى الروح فلايمكن الوصول اليه لانه من أمر الله ٠ قال
جل شأنه : " ويسألونك عن الروح ٠ قل الروح من أمر ربى
وما أوتيتم من العلم الا قليلا ٠٠٠" ٠ (٢٩)

بقى أن نقول ان تأثر ابن طفيل بأفلاطون وأفلوطين فى
المعرفة الحدسية الخاصة بعالم ماوراء الطبيعة هو الذى جعله يتبنى
الفكر الصوفى الذى يعتمد على الاسرار الباطنية والاشارات الخفية
والتلويحات الرمزية ٠٠٠ ولذلك فان لهذه القصة اسما آخر
يدل دلالة صريحة على معطياتها الفكرية ذلك الاسم هو " أسرار
الحكمة الاشراقية " ٠

وتجدر الاشارة هنا الى أننا نخالف الرأى الذى يقول : ان ابن
طفيل انما استعمل الاسلوب الروائى كقالب لافكاره حتى يستر
مضامينها عن العامة ويضنّ بتعاليمه عن الابتذال ٠٠٠ وقد يكون
هذا بعض أهدافه ٠٠٠ ولكن ليس هذا هو السبب ٠٠٠

ان السبب الذى جعل ابن طفيل يتخذ الاسلوب القصصى
قالبا لافكاره انما يرجع الى الفنان الذى يدخل فى تكوين النسيج

---

(٢٧) آل عمران : ١٩٠

(٢٨) الذاريات : ٢١

(١٩) سورة الاسراء : ٨٥

الداخلى لشخصيته .. ذلك أن شخصية ابن طفيل هى شخصية فنـــــان بقدر ماهى شخصية مفكر .

ان القدرتين العظيميين متكافئتان فيه ... ولذلك خرجـــت (حى بن يقظان) فى هذه الصور الرائعة العجيبة.

وليس ذلك غريبا على مفكر متأثر بأفلاطون ... فقدكانت فلسفة أفلاطون لاتخلو من شعر ... كما كانت شخصيته لاتخلو من شاعريـــة بقى أن نقول انكثيرا من الباحثين حاولوا أن يفسروا الاشـــارات الرمزية التى تشتمل عليها القصة .

ولعل من أهم هؤلاء الدكتور غنيمى هلال (٣٠) الذى فعل ذلـــك فى كتابه الادب المقارن ... حيث يقول : "ان ابن طفيل لم يتكلـــم الا رمزا،ولكن رمزه كان واضحا... " فحى بن يقظان" الاسم الرمـــزى للقصة ومعناه مطابق لما مر ذكره عند ابن سينا - أى عندما قـــام بتحليل رموز ابن سينا - فـ " حى" يقصد به العقل الفعـــال أو النفس الملكية ،وهذا العقل حى دائما ، غـــير متغـــير أبـــدا والرحلـــة الموصوفة فى الرسالة رمزية ،ترمـــز الى طلب الانسان المعارف الخالصة ويستمر فى تحليل بقية الرمـــوز

---

(٣٠) كان هذا التأويل لرموز ابن سينا،فأجراه الدكتور على رمـــوز ابن طفيل .

فيقول : " ان سلامان مثل للنفس الناطقة وأبسال للعقل المترقى في درجات الكمال عن طريق العرفان ... وامرأة سلامان : مثل للقوة البدنية الامارة بالشهوة والغضب واباء أبسال معناه : انجذاب العقل الى عالمه ... وأختها هى القوة العملية ... وتلبيسها نفسها بدل أختها : تسويل النفس الامارة بالسوء، والبرق اللامع هو الخطفة الالهية ، وهى جذبة الحق . (٣١)

هذا وقد سبق نصير الدين الطوسى ، الدكتور غنيمى هلال الى تحليل رموز قصة " سلامان وأبسال" فقال : " ان سلامان : مثل للنفس الناطقة وأبسال للعقل النظرى المترقى الىأن حصل عقلا مستفادا، وهو درجتها فى العرفان ، ان كانت تترقى الى الكمال وامرأة سلامان : القوة البدنية الامارة بالشهوة والغضب ، كماسخرت سائر القوى لتكون مؤتمرة لها فى تحصيل مآربها الفانية واباؤه : انجذاب العقل الى عالمه ... وأختها التى امتلكتها القوة العملية المسماة العقل المطيع للعقل النظرى ، وهو النفس المطمئنة وتلبيسها نفسها : هوتسويل النفس الامارة مطالبها الخسيسة " . وهذا التأويل كما نلاحظ مطابق لتأويل الدكتور غنيمى هلال .

وذكر صاحب رسالة "حى بن يقظان ، وروبنسون كروزو" حسن

---

(٣١) فى الادب المقارن ، د. غنيمى هلال ص ٢٣٣، ٢٣٤ .

محمود عباس تأويلا يخالف فيه الدكتور غنيمى هلال حيث يقول :

" وقد كان هذا التأويل منصبا على رسالة " حى بن يقظـان"
لابن سينا لكن المرحوم الدكتور محمد غنيمهلال جر هذا التأويل على
شخصيةحي عند ابن طفيل وهو ما نختلف معهفيه ذلك أن(حي من يقظان) :
رمز للمفكر الانسانى ،لاالعقل المجرد،ولايخفى مابين هذين
التأويلين من اختلاف ،ومايترتب على هذا الاختلاف من نتائج ...
ويعلل ذلك بقوله : " فاذا أخذنا التأويل الاول نزعنا عن
"حى" صفة الانسانية وأبقيناه تجريدا ذهنيا خالصا ،وبذلك نهدم
ركنا أساسيا من أركان القصة ،ليس هذا فحسب ،بل ان شخصية
"حى" على النحو الذى تتكشف عنه فى القصة لاتسمح بهذا المنحى
فى التفسير لانها تنبض بالحياة ... ويستمر فى تأويل الرموز من
واقع تخيله لها فيقول : أما شخصية أبسال فهى رمز للتوسط بين
حالتى التفلسف والفقه الظاهرى فهى تأخذ من الفلسفة النزوع الى
التأمل وأعمال الفكر ،وتأخذ من الفقه الظاهرى الايمان المطلق
والتسليم الكامل ،والاعتقاد بالشريعة كما جاء بها الرسول .

وأما سلامان : فهو رمز للفقيه الظاهرى الذى لايقبل التأويل
ألمتر كيف التزم ظاهر النص الدينى ،وقعد عن كل جهد عقلى
قد يؤدى به الى مخالفة الجماعة ،فرضى بذلك وأرضى ،وحكم الجزيرة
وعاش مع أهلها فى وئام وانسجام .

وجزيرة "حى" المهجورة : رمز لعالم الطبيعة البكر الذى وجد
الانسان فيه أول مرة ،فكان عليه أن يخضع مايستطيع من موجوداته

لعقله وارادته كأن يدجن الحيوان مثلا ،وينتفع بالنار بعداكتشافه اياها ... الى غير ذلك .

وأما الجزيرة الاخرى المأهولة فهى رمز للمجتمع الانسانى بكل مافيه وقد أراد ابن طفيل أن يكون هذا المجتمع مجتمعه الذى عاش فيه ،فأصبغ صفات كان الناس يتصفون بها فى عصره ففيهمبلادة ونقص ،وسوء رأى ،وضعف عزم ،وهم كالانعام بل هم أضل سبيلا ... " . (٣٢)

... ثم ماذا ...؟

ثم يجب ألاننسى أن قصة حى بن يقظان ،قد تأثرت فى بنائها بالقرآن الكريم . يظهر ذلك فى أول حدث أراد به ابن طفيل أن يكون كالمدخل لقصته ،وهو الاشارة الى أن قضية تخلق "حى" من تراب جزيرة واق الواق ،واقع فى حيز الامكان ... وهذاملحوظ فيه قصة خلق الانسان من طين الواردة فى قوله تعالى : "اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين " . (٣٣)

ويأتى بعد ذلك أحداث رحلة "حى" من الحياة الاجتماعية الآمنة الى تلك الجزيرة المنعزلة المخوفة ... فذلك ملحوظ فيه قصة هبوط آدم عليه السلام هو وزوجه من الجنة الى شقاء

---

(٣٢) انظر حى بن يقظان وروبنسونكروزو ،ص ٧٢،٧٣ .

(٣٣) سورة (ص) : ٧١

الارض ،ويحدثنا القرآن الكريم عن هذه القصة حيث يقول المولى جلت قدرته : " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيثما شئتما ،ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ،وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ،ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين " . (٣٤)

ثم الحدث المهم وهو وضع الطفل "حى" فى تابوت واسلامه الى النهر ... فذلك ملحوظ فيه قصة موسى عليه السلام ،حينما كان طفلا . وخشيت أمه عليه من فرعون أن يقتله ،فأوحى الله اليها بصنع التابوت ووضعه فيه والقائه فى اليم ... وذلك فى قوله تعالى : " وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ولاتحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين " . (٣٥)

وأخيرا يجىء الحديث المأساوى وهو موت الظبية مرضعة "حى" ثم حيرته فى موارة جثتها ... وهذا ملحوظ فيه قصة ابنى آدم عليه السلام عندما قتل أحدهما أخاه ،واحتار فى موارة سوأته ثم هيأ الله له غرابا يبحث فى الارض ليدله على الطريق السليم فى موارة جثة أخيه . وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه القصة

---

(٣٤) سورة البقرة : ٣٥،٣٦ .

(٣٥) سورة القصص : ٧

فقال : " واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ... " الآية ، الى قوله تعالى :" فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ،قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ،فأصبح من النادمين " . (٣٦)

---

(٣٦) سورة المائدة: ٢٦ - ٣١

تلك هى قصة (حى بن يقظان) الاثر الفنى الفكرى الفريد الذى أغنى به ابن طفيل المكتبة العربية ،والذى ترجم الى أغلب لغات العالم الحية ،وحظى من دراسة الباحثين واهتمامهم فى تلك اللغات بأكثر مما حظى به فى لغته الام كما ونوعا ،ولانغالى اذا قلنا بأن بعض الباحثين من المستشرقين اشتهروا بما قدموه من أبحاث قيمة فى تحقيق هذا الاثر ،وترجمته الى لغاتهم ،ودراسته بحيث أصبحت تلك الدراسات مرجعا لايستغنى عنه الباحث الحديث .." . (٣٧)

ومن الذين أعجبوا بهذا الاثر الفنى الكاتب الاسبانى "مرتيلينو مندنيث بالايو" حيث قال : " وليس فى الآداب العربية كلها كتاب أحسن منه ابتكارا ولاأغرب ،ثم ان ثمة مدارك قليلة فى العبقرية الانسانية لها مثل قيمته الجامعة البالغة ... ان هذا الكتاب فى الحقيقة خيال نفسانى ومنهج للبحث معا ،ولكن فى اطار من الشعر ... " . (٣٨) ولماذا أخذت هذه القصة هذه المكانة العالمية ؟؟

نقول أخذت هذه المكانة لانها لاتمثل حياة فرد ،ولكنها تمثل تطور الانسانية فى أدوارها المختلفة (٣٩) ... فهؤلاء الباحثون

---

(٣٧) انظر "حى بن يقظان وروبنسون كروزو" حسن محمود عباس ص ٤٧ .

(٣٨) انظر عمر فروخ فى ابن طفيل وقصة "حى بن يقظان" ص ٣٣، ٣٤ .

(٣٩) المصدر السابق .

قد وجدوا فيها مايشفي غليلهم ... وماينير سبيلهم،خاصة في أوروبة فلقد حظيت قصة " حي بن يقظان" باهتمام شديد لدى فلاسفتها وخصوصا في القرنين الثامن عشر،والتاسع عشر وذلك لان القرن الثامن عشر الاوروبي ،كان يعتقد في مقدرة الانسان الفطري على الاهتداء الى الفضائل ،والى الاسس التي تفضل الشرائع الانسانية ... وقد راجت الدعوة نفسها لدى الرومانتيكيين في القرن التاسع عشر ورأى هؤلاء وأولئك في قصة " حي بن يقظان" مايشد ازر دعوتهم اذ اهتدى "حي" فيها ـ كما يقولون ـ الى مايتجاوز الشريعة. (٤٠)

ومما يؤكد اهتمام الاوربيين بهذه القصة تلك الترجمات المتعددة لها :

فقدترجمت " حي بن يقظان " لابن طفيل الى العبرية عام ١٣٤١م.

ثم ترجمت الى اللاتينية :ترجمها اليها "بوكوك" عام ١٦٧١م ـ بعنوان : "الفيلسوف المعلم نفسه" .

ومن اللاتينية ترجمت الى الانجليزية : ترجمها " جورج كيث" منجماعة الكويكر لتكون مرجعا في شعائرهم .

وممن اهتم بهذه القصة دراسة وبحثا : المستشرق الفرنسي "ليونجوتييه" والمستشرق الاسباني " جارثياجومث" ... وقد ذكر

---

(٤٠) انظر : غنيمي هلال ،في الادب المقارن ص ٢٤١ .

وانظر : ملامح التجديد في النثر الاندلسي ،للسيوفي ص ١٢٢ .

بعضا منآرائهم عند دراسة النواحى الفنية والفكرية للقصة .

كما أن لهذه القصة شعبية فى الآداب الاوربية وأيضها لهاتأثير فى كتاباتهم الادبية والفلسفية .

فقد ذكر الدكتور غنيمى هلال أنها : " أثرت أولا فى الكاتب الاسبانى "بلتازار جراثيان" (١٦٠١ - ١٦٥٨م) فى قصته التى عنوانها " النقادة" ظهر الجزء الاول منها عام ١٦٥١م ،والجزء الثانى عام ١٦٥٣م والجزء الثالث عام ١٦٥٧م والقصة بهذا مقسمة الى ثلاثة أجزاء :

عنوان الجزء الاول منها : " فى ربيع الطفولة" ... وعنوان الجزء الثانى " فى خريف عهد الرجولة" ... وعنوان الثالث : " فى شتاء الشيخوخة" . وهى نقد للعادات والتقاليد فى عصر المؤلف .

وذكر الدكتور غنيمى هلال أن المستشرق الاسبانى " جارثيا جومث " وجد قصة عربية مخطوطة فى الاسكوريال كانت قد صارت شعبية فى عهد المؤلف وهى أساس قصة " ابن طفيل" وقصة "بلتاسار جراثيان" فى وقت معا . وهذه المخطوطة عنوانها : " قصة ذى القرنين وحكاية الصنم والملك وابنته" . وهكذا كان تأثير قصة ابن طفيل فى الآداب الاوربية تأثيراكبيرا متنوع الدلالة والى اللغة الفرنسية يؤكد الدكتور غنيمى هلال اهتمام "ليون جوتييه" بهاحيث قام بترجمتها الى الفرنسية عام ١٩٣٦م وقدم لها بدراسة عميقة طويلة.

وأشار أيضا (ليون جوتييه) الى أن هناك علاقة بين قصة

ابن طفيل وقصة " روبنسون كروزو" لدانيال ديفو،بل ان " أرنست" صاحب كتاب " تاريخ القصة الانجليزية" اعتبر قصة " حى بن يقظان" أحد المصادر المحتملة لقصة (روبنسونكروزو) ... وقد توصل باستور فعلا الى أن هناك شبها بين القصتين .

ويرى "ده بور" وهو سابق لباستور : أنه مهما وجد بينهما من شبه فانكروزو يمثل نمطا للرجل العملى دنيويا ... بينما "حى" نمطا مثاليا للحياة التأملية .

ثمترجمت الى الروسية : ترجمها " ج كوزمين" ونشرها بطرسبرج سنة ١٩٢٠م .(٤١)

وأخيرا لابد من وقفة متأنية مع أبى بكر بن طفيل تحرر موقفه بدقة من عقيدة الاسلام كما يفهمها سلف هذه الامة .

نحن نعلم مدى حرصه على التوفيق بين العقل والنقل ... ونحس مدى شوقه الى الجمع بين الدين والفلسفة ...

فهل سلم له منهجه ...؟ وهل أوصله الى شاطىء الامان...؟

أم أن هذا المنهج قد ورطه – ولو رمزا – فى مقولات قذفت به

---

(٤١) ينظر فى كل ذلك :

١ – فاروق سعد ص ٣٣ ومابعدها .

٢ – عمر فروخ ص ٣٤ – ٤٦ .

٣ – عمر فروخ ص ١٣٠ تحدث عن الصدى العالمى للقصة .

بعيدا عنتعاليم القرآن ؟

ومع اقرارنا الكامل بأن صاحب قصة " حى بن يقظان" قد نجح نجاحا باهرا فى معالجة تجربته الذهنية عن طريق الفن ،متفقين فى ذلك مع جلة الباحثين فى الشرق والغرب ... الا أن لنا تحفظات هامة نأخذها على تصوره الدينى ،لاعلى نهجه الفنى .

فنحن ابتداء لانسلم له أن العقل البشرى يستطيع وحده أن يستبد بالمعرفة فى شئون الدين أو فى متعلقات عالم الغيب ... بل لابد فى هذه الامور من وحى الله المتنزل بأصول العقيدة علىأنبيائه ورسله ... والا ارتبط الثواب والعقاب بالعقل ،ولاصبح وحده مدار المسئولية والجزاء ... وغنى عن البيان أنالامر ليس كذلك فى الاسلام ،وصدق الله العظيم اذ يقول : " وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا " . (٤٢)

حقا ... ان القرآن الكريم كرم العقل ... وخاطبه ورفع من شأنه ... وأناط به التكاليف الشرعية ... ولكنه فى نفس الوقت قيد ذلك ببلوغ دعوة الله اليه ...وواضح جدا أن ذلك لايدخل فى باب النصفة والعدل ... لان عالم الغيب فوق مدركات الحواس التى هى وسائل العقل الى المعرفة ... واذا فلابد له حالتئذ من مرشد يأخذ بيده ويسدد خطوه ... ألا وهى النبوة .

---

(٤٢) سورة الاسراء : ١٥

أما عالم الشهادة فان العقل البشرى يستطيع بتوفيق من الله أن يستبد بالمعرفة فيه ،لانه يقع تحت مدركات الحواس التى هى أدوات العقل التى هيأها الله جل وعلا للمعرفة المادية ... وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذ يقول"أنتم أعلم بشؤون دنياكم" (٤٣)

حقا انبعض رجال الفلسفة قد توصل الى مقولة (الالوهية) بعقله ... ولكن هذه المعرفة تتصف بالنقص ... وتنأى عن المعرفة الدينية التى تتصف بالكمال .... ذلك لان رجال الفلسفة ليس لهم فى هذه المعرفة مزية على سائر البشر وعامة الناس ... بل هم متساوون بهم ... لان هذه المعرفة تعتمد على المقولة البدهية "ان كل أثر لابد له من مؤثر" فذلك قوله تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ... " . (٤٤)

ولذلك فان هذه المعرفة الناقصة لم تمنع الفلاسفة من القول بقدم العالم ولم تمنع أتباعهم أن يقولوا بالتعطيل ... كما لم تمنع عامة البشر أن يجسدوا الله - تنزه عن ذلك - فى الكواكب والاشجار والاحجار،وما الى ذلك من ظواهر الوثنية .

---

(٤٣) رواه رواه الطحاوي في مشكل الآثار ٢/٢٩٤-٢٩٥ .

(٤٤) سورة الزمر : ٣٨

كذلك لانسلم لابن طفيل أن "الحدس" و"الذوق" من وسائل المعرفة الى عالم الغيب ... ومهما حاول المتصوف أن يروض جسمه وقلبه فان ذلك لن يسلمه الا الى تخرصات باطلة ... وأحلام غائمة ... هى أقرب الى عوالم الكهنة والسحرة .

وكيف غاب عن ابن طفيل أن "الحدس" و "الذوق" أدنى من العقل مراتب كثيرة ...؟

ان العقل له مايعتمد عليه فى المراتب المادية ...

أما "الحدس" و"الذوق" فعلام يعتمدان فى عالم المادة أو فى عالم ماوراء المادة ؟

تلك هى الترهات والاوهام والاباطيل ....

عالم الغيب وراء عالم الشهادة ... فليس للعقل ولاللحدس ولاللذوق سبيل اليه ...

ومن هنا كانت المعرفة الدينية فى الاسلام تتدرج فى ثلاث مراتب :

الوحى الالهى أولا ...

فالنبوة والرسالات ثانيا ...

ثم يجىء العقل بعد ذلك فى المرتبة الثالثة ...

وصدق الله العظيم اذ يقول : " قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد ... " الآية (٤٥)

---

(٤٥) سورة الكهف : ١١٠

ومجمل القول ان البحث فيما وراء المادة محظور فى الاسلام وليس فى ذلك حجرا على العقل ... أو حيف على حرية الفكر ،ولكن فى ذلك وضع للامر فى نصابه ... وهاهى ذى الفلسفة الوضعية الحديثة تنسحب صاغرة من ميدان البحث فيما وراء عالم المادة وتحصر ميدانها فى عالم الظواهر ... وصدق الله العظيم حيث يقول "ويعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ... " الآية (٤٦)

ومن هذا المنطلق نفسه ،ننكر على ابن طفيل أن يأخذ بمنهج "التأويل" فيما هو وحى من عند الله ... يظهر ذلك فى تورطه مع الاعتزاليين من أمثال أبى الهذيل العلاف ومن لف لفة فى تأويل صفات الله ،والقول بأن صفاته عين ذاته يدل على ذلك ماجاء في قصته عن درجة المعرفة التي وصل اليهما "حى بن يقظان" فى الجانب الالهى حيث يقول : " لقد علم حى بن يقظان أن صفات الله كلها راجعة الى حقيقة ذاته ،وانه لاكثرة فيها بوجه من الوجوه ،وعلم أن علمه بذاته ليس معنى زائدا على ذاته ،بل ذاته هى علمه بذاته وعلمه بذاته هى ذاته ... " . (٤٧)

وننكر على ابن طفيل أيضا زعمه "أن الدين يصلح لعامة الناس ... وأن خاصة البشر غير ملزمين به ... غير أنه

---

(٤٦) سورة الروم : ٧٠

(٤٧) قصة حى بن يقظان ص ١١٣ .

اذا أراد ذو الفطرة الفائقة أن يأخذوا به فلا ضير ... " .(٤٨)

ومعنى ذلك أن الاسلام لاتتصف رسالاته بالشمول ...

ولاشك أن هذا منكر من القول وزور،والقول به بهتان وتجديف ويكفى فى ذلك أنه يصطدم بقول الحق تبارك وتعالى : " وما أرسلناك الاكافة للناس بشيرا ونذيرا..." . (٤٩)

ويا عجبا لابن طفيل ... لقدحاول أن يعرف الله عن طريق العقل فعجز ... فحاول أن يعرفه عن طريق "الحدس" فتاه فى ضباب الاوهام والاباطيل ...

أما كان الاولى به وقدنهج فى المعرفة المادية نهج القرآن الكريم ... أن يفعل نفس الشىء فى معرفة البارىء الذى أوجد المادة ،وأنزل القرآن ...؟

لقد كان منطق الفكر القويم ــ فضلا عن منطق الاسلام العظيم ــ يفرض عليه أن يتبع فى المعرفة الالهية منطوق القرآن من غير تأويل أو تبديل ...

---

(٤٨) قصة حى بن يقظان ص ١٢٧ ــ ١٢٨ .

(٤٩) سورة سبأ : ٢٨

خاتمة

الخـــاتمـــة

وبعـــــد :

فقد تبين لى من خلال هذه الدراسة عدة نتائج بالغة الاهميـــة موزعة بين مدخل هذا البحث وأبوابه الثلاثة :

فأما النتائج التى توصل اليها المدخل،فيمكن اجمالها فيمـــا يأتـــــى :

أن العصبية الاقليمية فى القديم ،والاقليمية العلميـــــــة فى الحديث ،كانتا وراء التعسف المنهجى الذى أدى الى تقسيـــــم الادب العربى الى مشرقى وأندلسى .

وأن الاقليمية العلمية وحدها ،هى المسؤولة عن فرض مقولـــــة (الزمان) على درس الادب العربى فى المشرق ،وفرض مقولة (المكـــان) على درس الادب العربى فى الاندلس .

وان النهج القويم لدراسة قضايا الادب العربى فى مشـــــرق الارض ومغربها أن توضع فى سياقها الفنى العام من الادب العربـــــى كلـــه .

وأن الادب العربى فى الاندلس امتداد عضوى للادب العربى فـــــى المشرق وليس مقابلا له ...

وأن التقاليد الفنية للآداب هى العامل الحاسم فى درسهـــــا متجاوزة "في" ذلك حدود مقولات (الجنس ،والزمان، والمكان) .

وأما النتائج التى توصل اليها الباب الاول من هذه الدراسة فيمكن اجمالها فيما يأتى :

أن قصة " التوابع والزوابع" لابى عامر أحمد بن عبدالملك بن مروان بن شهيد أول عمل أدبى فى لغة العرب اتخذ عالم ماوراء الحس مسرحا لأحداثه ...

وأنها من أجل ذلك تؤكد (مقولة) سبق " التوابع والزوابع" زمنيا على ظهور "غفران" أبى العلاء ،وان تأخرت عنها فنيا .

وأن أبا عامر استوحى رحلته الخيالية من أسطورة(وادى عبقر) فى جاهلية العرب ... وليس من وقائع حديث " المعراج" أو كتاب "التوهم" للمحاسبى أو (مقامات) بديع الزمان .

وان الوسائل الفنية التى استغلها ابن شهيد فى رحلته العجيبة متنوعة : منها السرد فى عرض أحداث القصة ،ومنها الحوار بين شخصياتها ،ومنها الاقنعة الرمزية الموحية بالملامح الشخصية والفنية لشعرائها وكتابها ،،ومنها : اللوحات المصقولة فى تصوير مشاهدها المختلفة .

وأن خيال ابن شهيد فى رحلته بأرض الجن من معدن خيال "هومير" و"أرستوفان" من ادباء الاغريق ،و"فرجيل" من أدباء اللاتين ،و "أبى العلاء" من أدباء العرب ،و "دانتى" منأدباء الطليان،و"ملتون" من أدباء الانجليز ... غيرأن ذلك كان فى النوع لافى الكيف ...

وأما النتائج التى توصل اليها الباب الثانى فيمكن أن نجملها فيما يأتى :

أن أبا محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم أول أديب عربى اعترف بتجاربه العاطفية وأودعها كتابا مدونا، وأنه لم يتأثر فى هذا الجانب بأحد من السالفين ولم يتأثر به فى هذا الجانب أيضا أحد من الخالفين ... وأن "نظريته" فى " الحب" تنبثق من نبع اسلامى خالص، وليس الى تأثرات (أفلاطونية) أو نزعات "عذرية" .

وأن ورود (الافلاطونية) و(العذرية) فى (طوق الحمامة) جاء من مجرد تلاقيهما مع الاسلام فى فضيلة العفة ...

وأن (الحب) الذى يعتقده أبومحمد نوعان لاثالث لهما :

أحدهما : حب يقوم على التوافق الروحى بعيدا عن الانجذاب الجسدى ... وهو أرقى أنواع الحب الذى يشير اليه الحديث النبوى الكريم " الارواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف، وماتناكر منها اختلف) .

ثانيهما : حب يجمع بين التوافق النفسى والتوافق الجسدى ولاحياة لمثل هذا الحب الا بأحد أمرين : اما بالزواج الذى يعمر الكون، ويبنى المجتمع، وهذا هو الهدف الاول لشريعة الاسلام .

واما بالعفة ... ومن وراء العفة المعاناة ... ومن وراء المعاناة تجارب شعورية نبيلة تتسامى بصاحبها درجات فى مراتب الفضيلة متجاوزة بذلك الوقوع فى قبح المعصية ...

ومن ثم فان مقولة المستشرق الاسبانى (ميجيل آسين بلاثيوس) التى تخلط خلطا شائها فى تفسير نظرية (الحب) عند ابن حزم بين (العنصرية) بحسبان أبى محمد من أصل اسبانى ،وبين (المسيحية) بحسبان جده الاعلى نصرانيا ،وبين " الافلاطونية " بحسبانها من تراثهم الاوروبى ،وبين (العذرية) بحسبانها من نتاج (المسيحية) و(الافلاطونية) جميعا ،لهى منقبيل التعسف فى التفسير الذى لايثبت للنظر العلمى الجاد ...

وأن اعترافات أبى محمد التى سجلها فى كتابه "طوق الحمامة" أسبق فى تاريخ الآداب من (فن الاعترافات) فى الازمان الحديثة والمعاصرة ... وأن الوسائل الفنية التى استخدمها ابن حزم فى كتابه (طوق الحمامة) متنوعة منها : الحكايات القصيرة التى ضمنها تجاربه الذاتية ،ومعاناته الداخلية ... وتجارب غيره من خاصة ثقاته ،ومنها التحليل النفسى لعاطفة "الحب" وشخصيات المحبين ،ومنها النثر المرسل الخالى من الزخرف المتموج بالانفعالات الذى قد يتفوق فى غنائيته على الشعر القريض ...

وأما النتائج التى توصل اليها الباب الثالث فيمكن بأن نجملها فيما يأتى :

أن قصة (حى بن يقظان) لأبىبكر محمد بن عبدالملك بن محمد ابن طفيل أول رواية ذهنية فى الادب العربى ،يوازن فيها بين ماهوفكر وماهو فن،موازنة دقيقة بارعة ،وأن هذا المفكر الاديب

قد سجل فى هذا الجنس الادبى سبقا بعيدا ...

وأن ابن طفيل لم يتأثر فى بناء قصته بأحد من السابقين ولكنه اقتصر على استعارة : أسماء أبطال قصته فحسب من الشيخ الرئيس ابن سينا ،وهو تصرف فنى مشروع فى الآداب العالمية .

وأن كثيرا من عناصر روايته ، استمده من القصص الحق فى القرآن الكريم من أمثال : تخلق الحياة من الطين باذن الله والرحلة البحرية للطفل الرضيع (حى) بعد وضعه فى تابوت والقائه فى اليم ،وقذف اليم به فى الساحل ،وتعلم (حى) من الغراب كيفية موارات ظئره (الظبية) التراب بعد موتها ،وانتقال حى من عالم الأمن والالفة الى عالم مجهول العواقب ... ملحوظ فيه خبر هبوط آدم (صلوات الله عليه) من نعيم الجنة الى شقاء الارض .

وأن أبابكر استفاد نظريته فى (المعرفة الحسية) من القرآن الكريم أيضا حيث تعتمد المعرفة المادية البشرية فى آيات الله المنزلة على الضرب فى الارض ،والتجربة المباشرة ،والملاحظة الذكية بالنظر فى الكون والنفس ... وأن هذا المفكر قد أخطأه الصواب ،وتفرقت به السبل حينما اعتمد فى الطريق المفضى الى عالم الغيب على (المعرفة الحدسية) المأخوذة عن تعاليم وثنية يرفضها العقل والنقل جميعا ... وقد كان من المحتم عليه عقلا ونقلا أن يلتمس ذلك فى القرآن الكريم ،متمثلا فى الوحى والنبوة والرسالة من غير تبديل ولا تأويل ...

وآخيرا فان هذه الروائع الثلاثة : (التوابع والزوابع) لابن شهيد و (طوق الحمامة) لابن حزم و(حى بن يقظان) لابن طفيل التى تقدمت لدراستها فى ميدان (التجديد) بل (الابداع) فى (فن النثر) من الادب العربى كله ،لافى (فن النثر) من الادب العربى فى الاندلس ،فحسب لهى الحرية حقا بالدرس الفنى الخصب فى هذا الميدان الكبير،لأنها أعمال فنية كاملة ،وليست من قبيل التجديدات الجزئية فى الصور والعبارات والاغراض ... وانها لأكبر دليل على عبقرية الخصوبة والاصالة والانتماء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

قائمة المصادر

المصـــــــادر

القـــرآن الكريـــــم ..

- ابن الابار : أبو عبدالله محمد بنعبدالله ،أبو بكر القضاعـــى
المتوفى سنة ٣٥٨هـ .
(اعتاب الكتاب)
حققه وعلق عليه د.صالح الاشتر - المطبعة الهاشمية ، دمشـــق
١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .
(الحلة السيراء)
تحقيق : حسين مؤنس- الشركة العربية للطباعة والنشـــــر
الطبعة الاولى .
(التكملة لكتاب الصلة)
طبعة مدريد ١٨٨٦م .
- ابن أبى أصيبعة
(عيون الانباءفى طبقات الاطباء)
دار الفكر - بيروت - سنة ١٩٥٧م .
- ابن باجه : أبو بكر بن الصائغ (
(تدبير المتوحد)
نشره الدكتور ماجد فخرى مع رسائل أخرى لابن باجة - بيروت -
دار النهار للنشر عام ١٩٦٨م .

- ابن بسام : أبوالحسن على بنبسام الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٢هـ
(الذخيرةفى محاسن أهل الجزيرة)
القسم الاول - المجلد الاول - تحقيق احسان عباس - دار الثقافة
بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

- ابنبشكوال : أبو القاسم خلف بن عبدالملك (٤٩٤ - ٥٧٨هـ)
(الصلة)
الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب ١٩٦٦م .

- ابن تغرى بردى
(النجوم الزاهرة)
تحقيق محمد على مكى - لجنة احياء التراث الاسلامى - القاهرة
١٣٩٠هـ .

- ابن جلجل
(طبقات الاطباء)
تحقيق فؤاد السيد "القاهرة ١٩٥٩م" .

- ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن حزم
(طوق الحمامة فى الالفة والالاف)
تحقيق الطاهر أحمد مكى - ط٣ - دار المعارف شوال ١٤٠٠هـ .
(طوق الحمامة)
تحقيق الاستاذ حسن كامل الصيرفى ،تقديم الاستاذ ابراهيم
الابيارى - المكتبة التجارية الكبرى بمصر - مطبعة الاستقامة
القاهرة ١٣٨٣هـ .

(طوق الحمامة)

قدم له وحققه فاروق سعد ،منشورات دار مكتبة الحياة بيروت . الطبعة الجديدة ١٩٧٢م .

(جمهرة أنساب العرب)

تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون - الطبعة الرابعة دار المعارف .

(رسالة فى الاخلاق ومداواة النفوس)

ضمن رسائل ابن حزم - تحقيق احسان عباس .

(المحلى) جزء ٧ - نشر دار الفكر .

- ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان - قرطبة ٣٧٧ - ٤٦٩هـ

(المقتبس فى أخبار بلد الاندلس)

حقق الجزء الثانى منه الدكتور محمود على مكى ،بيروت ١٣٩٣هـ،ونشر ليفى بروفنسال قطعة من الجزء الثانى أيضا فى مجلة "الاندلس" الاسبانية المجلد ١٥ ،العدد الاول ،١٩٥٠م .... ونشر ملتشور أنطونيا القسم الثالث منه سنة ١٩٣٧م . وذكر الدكتور عبد الرحمن على الحجى أن الجزء الخامس منه بالمكتبة الملكية بالرباط ... ونشر الدكتور الحجى جزءا منه مختص بخمس سنوات من خلافة المستنصر - بيروت ١٣٨٥هـ .

- ابن الخطيب : ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

(أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام)

تحقيق ليفى بروفنسال - بيروت ١٩٥٦م .

(الاحاطة فى أخبار غرناطة)

تحقيق محمدعبدالله عنان - مكتبة الخانجى - القاهرة

الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ .

- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد

(وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان

تحقيق احسان عباس - دار صادر ١٩٦٨م .

- ابن خير : أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الاموى

الاشبيلى - ٥٠٢هـ - ٥٧٥هـ

(فهرسة ماروراه عن شيوخه)

منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية

طبعة جديدة ومنقحة - ١٣٩٩هـ .

- ابن دحية : ذوالنسبين ابن الخطاب عمر بن حسن

(المطرب من أشعار أهل المغرب)

تحقيق : الابيارى ،وحامد عبدالمجيد - المطبعة الاميرية

١٩٥٤م .

- ابن سعيد : على بن موسى بن سيعد الاندلسى

(المغرب فى حلى المغرب)

حققه وعلق عليه الدكتور شوقى ضيف ـ دار المعارف ـ الطبعة الثالثة المنقحة / ١٩٧م ٠

ـ ابن سلام الجمحى ، المتوفى سنة ٢٣١هـ

(طبقات فحول الشعراء)

مع مقدمة تحليلية للكتاب ودراسة نقدية منذ الجاهلية الى عصر ابن سلام ، اعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٩م ٠

(طبقات فحول الشعراء)

قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ٠

طبعة المدنى ـ القاهرة ٠

ـ ابن سينا : الشيخ الرئيس على بن سينا

(رسالة حى بن يقظان ورسالة الطير)

نظم هبة الله أحمد عبدالواحد البغدادى ـ تحقيق وشرح صادق كمونة المحامى ـ مطبعة العانى بغداد ٠

ـ ابن شهيد : أبو عامر أحمد بن أبى عبدالملك

(ديوان ابن شهيد)

جمع وتحقيق يعقوب زكى ـ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ٠

(رسالة التوابع والزوابع)

تحقيق ونشر بطرس البستانى ـ دار صادر ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ٠

- ابن الصيرفى :

(المختار من شعر شعراء الاندلس)

تحقيق وتقديم د. جميل صليبا ،والدكتور كامل عياد ـ ط٥

مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٢م

- ابن طفيل : محمد بن طفيل (أبوبكر)

(حى بن يقظان)

تحقيق وتقديم د.جميل صليبا والدكتور كامل عياد ،ط ٥

مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٢م .

(حى بن يقظان)

تحقيق أحمد أمين ـ دارالمعارف ١٩٦٦م ـ ط٣ .

(حى بن يقظان)

تحقيق محمد عزت نصر الله ـ مؤسسة الرسالة ـ دار فلسطين

للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت .

(حى بن يقظان)

تحقيق فاروق سعد ، منشورات دار الافاق الجديدة ـ بيروت

الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- ابن عبد ربه : احمد بن محمد المتوفى سنة ١٣٢٨هـ

(العقد الفريد)

تحقيق محمد سعيد العريان ـ دار الفكر للطباعة والنشر .

(العقد الفريد)

تحقيق وترتيب وتصحيح أحمد أمين ،أحمد الزين ،ابراهيم الابياري ،دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٣هـ .

- ابن داود : أبو بكر بن داود الاصبهاني

(الزهرة)

تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي - الدكتور نوري حمودي القيسي - مكتبة المنار - الاردن - الزرقاء ط٢ ،١٤٠٦هـ طبعة جديدة مزيدة ومنقحة .

- ابن عذاري : المراكشي

(البيان المغرب)

الطبعة الاولى - دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧م .

- ابن الفرضي : الحافظ ابو الوليد ابن الفرضي

(تاريخ علماء الاندلس)

نشرته اللجنة المصرية للتأليف والترجمة ضمن المكتبة الاندلسية ثم نشره السيد عزت العطار - القاهرة ١٣٧٣هـ .

- ابن القوطية : أبو بكر محمد بن القوطية

(تاريخ افتتاح الاندلس)

تحقيق (جايانجوس) نشر ديبيرام مدريد ١٩٢٦م

(قرطبة ٣٦٧هـ)

ثم حققه الدكتور عبدالله أنيس الطباع ،بيروت ١٩٥٧م .

- ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم قتيبة الدينوري المتوفى ٢٧٦هـ

(عيون الاخبار)

دار الكتاب العربي - بيروت ٠

- ابن القيم : العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكربن قيم الجوزية

(روضة المحبين ونزهة المشتاقين)

دار الكتاب العربي - بيروت ٠

- ابن منظور : جمال الدين بن محمد بن مكرم (

(لسان العرب)

طبعة دار صادر - بيروت ٠

- ابن النديم : محمد بن اسحق

(الفهرست)

دار الباز للنشر والتوزيع - مكة المكرمة ١٣٩٨هـ ٠

- أبو زيد : محمد بن أبي الخطاب القرشي

(جمهرة أشعار العرب)

تحقيق الدكتور محمد على الهاشمي - نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ١٤٠١هـ/١٩٨١م ٠

- أبو العلاء : احمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي

(الغفران)

تحقيق عائشة بنت الشاطئ - طبعة دار المعارف بمصر ٠

(الغفران)

تحقيق مفيد قميحة ـ دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ـ طبعة ١ ـ ١٤٠٦هـ .

ـ أبو الفرج الاصفهانى

(الاغانـــــى)

مصور عن دار الكتب دار احياء التراث العربى .

ـ بديع الزمان : أبو الفضل أحمد بن الحسين

(مقامات بديع الزمان الهمذانى)

توفى ١٣٩٨هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

ـ الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيـــل النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩هـ

(يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر)

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مطبعة حجازى ـ القاهرة الطبعة الاولى فى عام ١٣٦٦هـ .

ـ الجاحظ : أبو عثمان بن بحر

(البيان والتبيين)

تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الفكر .

- حاجي خليفة :

(كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)

منشورات مكتبة المثنى - بغداد .

- الحريرى : أبو محمد القاسم بن على

(مقامات الحريرى)

شرح أبى العباس احمد بن عبدالمؤمن القيسى الشريشى

تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - المؤسسة العربية الحديثة

مطبعة المدنى .

- الحصرى : أبواسحق ابراهيم بن على الحصرى القيروانى

(زهر الآداب وثمرة الالباب)

تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد - شرح زكى مبارك

الطبعة الرابعة - الجزء الاول ١٩٧٢م - دار الجيل - بيروت .

- الحميدى : أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدى

المتوفى سنة ٤٨٨هـ

(جذوة المقتبس فى ذكرولاة الاندلس)

الدار المصرية للتأليف والترجمة - مطابع سجل العرب .

- الذهبى : الامام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى

٧٤٨هـ

(سير اعلام النبلاء)

الطبعة الثانية - مؤسسة الرسالة - بيروت .

(العبر فى خبر من غبر)

تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول - دار الكتب العلمية - الطبعة الاولى - الجزء الاول ١٤٠٥هـ .

- الزمخشرى : جار الله أبى القاسم محمود بن عمر

(أساس البلاغة)

تحقيق عبدالرحيم محمود - دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ١٣٩٩هـ .

- السيوطى

(بغية الوعاة)

القاهرة سنة ١٣٢٦هـ .

- شكيب أرسلان

(الحلل السندسية فى الاخبار والآثار الاندلسية)

المطبعة الحمانية - القاهرة سنة ١٣٥٥هـ .

- صاعد الطيلى

(طبقات الامم)

نشر لويس شيخو - بيروت ١٩١٢م .

- الصفدى : صلاح الدين خليل

(الوافى بالوفيات)

دار النشر- فرانز شتاين ، ١٣٨١هـ .

- الضبى : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى المتوفى سنة ٥٩٩

(بغية الملتمس)

دار الكتاب العربى - بيروت - ونشره المستشرق الاسبانى

كوديرا (سنة ١٨٨٤) .

- عبدالواحد المراكشى

(المعجب فى لخيص اخبار الغرب).

تحقيق محمد سعيد العريان - لجنة احياء التراث الاسلامى

القاهرة ١٣٨٣هـ - مطابع شركة الاعلانات الشرقية .

- الفتح بن خاقان : أبو نصربن محمد بن عبدالله القيسى المتوفى

سنة ٥٢٩هـ

(قلائد العميان)

الطبعة الاولى بمطبعة التقدم العلمية ١٣٢٠هـ .

(مطمح الانفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الاندلس)

دراسة وتحقيق محمد على شوابكة - دار مؤسسة الرسالة

بيروت - الطبعة الاولى .

- القلقشندى

(صبح الاعشى فى صناعة الانشاء) المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والنشر .

- المبرد : أبوالعباس محمد بن يزيد المبرد

(الكامل)

الجزء الاول تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم - دارنهضة مصر .

- المسعودى

(مروج الذهب ومعادن الجوهر)

تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ـ ط٤ ـ محرم الحرام ١٣٨٤هـ

المكتبة التجارية .

- مسلم

(صحيح مسلم بشرح النووى)

دار احياء التراث العربى ـ بيروت .

- المقرى :احمد بن محمد المقرى التلمسانى المتوفى سنة ١٠٤١هـ

(نفح الطيب من غضبة الاندلس الرطيب)

تحقيق احسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

- ياقوت الحموى

(معجم الادباء)

الطبعة الاخيرة ـ دار احياء التراث العربى ـ بيروت .

قائمة المراجع العربية

المراجـــع :

- ابراهيم ياسر خضر الدورى (الدكتور)

(عبدالرحمن الناصر وسياسته الخارجية والداخلية)

دار الرشيد للنشر ـ الجمهورية العراقية ـ سلسلـــــة

دراسات ٣٢٦ .

- أبو عبدالرحمن بن عقيل

(ابن حزم خلال ألف عام)

دار الغرب الاسلامى ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ .

- احسان عباس (الدكتور)

(تاريخ الادب الاندلسى)

عصر سيادة قرطبة ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ الطبعة السادسة .

(تاريخ الادب الاندلسى)

عصر الطوائف والمرابطين ـ دار الثقافة ـ بيروت ط ٦ .

(رسائل ابن حزم)

جزء ١ ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ الطبعة الاولـــى

١٤٠١هـ .

(دراسات فى الادب الاندلسى)

بحوث أعدها بالاشتراك مع الدكتورة وداد القاضى والدكتـــور

ألبير مطلق ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ـ الطبعة

الثانية ١٣٩٨هـ .

- أحمد أمين (الاستاذ)

(ظهر الاسلام)

الجزء الثالث ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ طبعة ٥ .

- أحمد حسن الزيا ت (الاستاذ).

(تاريخ الادب العربى)

دار الثقافة بيروت .

- أحمد الاسكندرى وزميله

(الوسيط فى الادب العربى)

مطبعة مخيمر ـ القاهرة .

- أحمد ضيف (الاستاذ).

(بلاغة العرب فى الاندلس)

الطبعة الاولى ـ مطبعة مصر ـ شركة مساهمة ١٣٤٢هـ .

- أحمد عبدالمقصود هيكل (الدكتور)

(الادب الاندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة)

طبعة دار المعارف الطبعة السابعة ١٩٧٩م .

- أحمد بن ناصر الحمد (الدكتور)

(ابن حزم وموقفه من الالهيات (عرض ونقد)) جامعة ام القرى

مركز البحث العلمى ـ ط١ ـ ١٤٠٦هـ .

- أحمد مختار العبادى (الدكتور)

(فى تاريخ المغرب والاندلس)

مؤسسة الثقافة الجامعية ـ الاسكندرية .

- أنيس المقدسي

(تطور الاساليب النثرية في الادب العربي)

دار العلم للملايين - بيروت - ط٥ - ١٩٧٤م ٠

- بدير متولي حميد

(قضايا أندلسية)

دار المعرفة ومطبعتها - القاهرة ١٩٦٤م ٠

- بطرس البستاني

(أدباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث)

الطبعة السادسة - دار المكشوف ودار الثقافة ١٩٦٨م ٠

- جبرائيل جبور (الدكتور)

(ابن عبد ربه وعقده)

منشورات دار الافاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٩م٠

- جودة الركابي (الدكتور) ٠

(في الادب الاندلسي)

دار المعارف بمصر ،ط٣ ٠ ١٩٦٦م

- حازم خضر (الدكتور)

(النثر الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين)

منشورات وزارة الثقافة والاعلام - الجمهورية العراقية - سلسلة

دراسات ٢٤٤ - دار الرشيد للنشر ٠

(ابن شهيد الاندلسى ـ حياته وآدبه)
منشورات وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقيـــــــــة
دائرة الشئون الثقافية والنشر ١٩٨٤م .
ـ حسن العدل (الاستاذ)
(آدبيات اللغة العربية)
القاهـــــرة .
ـ حسن محمود عباس (الدكتور)
(حى بن يقظان وروبنسون كروزو)
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ طبعة ١
ـ حسين مؤنس (الدكتور)
(فجر الاندلس)
الدار السعودية للنشر والتوزيع الطبعة الثالثة .
(شيوخ العصر فى الاندلس)
الدار المصرية للتأليف والترجمة وتوزيع مكتبة مصـــــــــــر
بالفجالة ١٩٦٥م .
ـ حسين نصار
(نشأة الكتابة العربية وتطورها)
القاهرة .
ـ حنا فاخورى
(تاريخ الادب العربى)
المطبعة البولسية الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة .

- حكمة علي الاوسي (الدكتور)
(فصول في الادب الاندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة)
مكتبة المعارف ـ الرباط ـ الطبعة الرابعة .
وكذلك مطبعة الخانجي بالقاهرة ـ الطبعة الثالثة .
- الرافعي : مصطفى صادق
(تاريخ آداب العرب)
دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الجزء الثالث .
- زكريا ابراهيم
(ابن حزم المفكر الظاهري الموسوعي)
اعلام العرب (٥٦) الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- زكي مبارك (الدكتور)
(النثر الفني في القرن الرابع)
دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٥م .
- الزركلي : خير الدين
(الأعـــــلام)
دار العلم للملايين ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الخامسة ١٩٨٠م .
- سامي مكي العاني (الدكتور)
(دراسات في الادب الاندلسي)
الجامعة المستنصرية ـ بغداد ـ ١٣٩٨هـ .
- السباعي : بيومي
(تاريخ الادب العربي)
القاهرة .

- سعد اسماعيل شلبى (الدكتور)

(دراسات أدبية فى الشعر الاندلسى)

دار مصر للطبع والنشر - الفجالة القاهرة .

- السيد عبدالعزيز سالم

(قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس)

دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٢م .

- شوقى ضيف (الدكتور)

(الفن ومذاهبه فى الشعر العربى)

دار المعارف - القاهرة - الطبعة العاشرة .

(الفن ومذاهبه فى النثر العربى)

دار المعارف - القاهرة الطبعة الثامنة .

(تاريخ الادب العربى الجزء الثانى)

دار المعارف - القاهرة .

(فى النقدالادبى)ط٢ - دار المعارف - القاهرة .

- الطاهر : أحمد مكى (الدكتور)

(دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة)

دار المعارف - الطبعة الثالثة ذو الحجة ١٤٠١هـ .

(دراسات أندلسية فى الادب والتاريخ والفلسفة)

دار المعارف ،القا هرة .

- طه الحاجرى (الدكتور)

(ابن حزم صورة أندلسية)

دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٢م .

- طه حسين

(قادة الفكر)

دار العلم للملايين - بيروت ط٢ - ١٩٨٠م .

- عائشة عبدالرحمن الشاطىء

(جديد فى رسالة الغفران)

دار الكتاب العربى - بيروت - الطبعة الاولى ١٣٩٢هـ .

- عباس محمود العقاد

(اثر العرب فى الحضارة الاوروبية)

دار المعارف طبعة ١ .

- عبدالبصير عبدالله حسين (الدكتور)

(محاضرات فى الادب الاندلسى)

بالآلة الكاتبة ..

- عبدالحليم عويس (الدكتور)

(ابن حزم وجهوده فى البحث التاريخى)

- عبدالحليم محمود (الدكتور)

(فلسفة ابنطفيل)

دار الكتاب اللبنانى - بيروت ط ٣ .

- عبد الرازق حميدة (الدكتور)

(شياطين الشعراء)

- عبدالرحيم على الحجى (الدكتور)

(التاريخ الاندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة)

دار الاصلاح - الطبعة الاولى المصورة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- عبدالعزيز عتيق (الدكتور)

(الادب العربى فى الاندلس)

دار النهضة - بيروت .

- عبدالكريم التواتى

(مأساة انهيار الوجود العربى فى الاندلس)

مكتبة الرشاد - الدار البيضاء - ط١ .

- عبدالكريم خليفة

(ابن حزم الاندلسى ،حياته وأدبه)

دار العربية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان . ونشر مكتبة

الاقصى - المملكة الاردنية - عمان - مطابع معتوق اخوان .

- عبداللطيف شرارة

(ابن حزم رائد الفكر العلمى)

م المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت .

- عبدالله العلايلى (الدكتور)

(المعرى ذلك المجهول)

الاهلية للنشر والتوزيع ـ طبعة جديدة مزيدة ومنقحة ١٩٨١م ٠

ـ عبدالله علوان

(بحوث اسلامية ،مسؤولية التربية الجنسية من وجهة نظر الاسلام)

دار السلام للطباعة والنشر ـ ط١ ـ ١٣٩٩هـ ٠

ـ عز الدين اسماعيل

(الادب وفنونه)

القاهرة ٠

ـ على حسن الخربوطلى

(غروب الخلافة الاموية)

مؤسسة المطبوعات الحديثة ٠

ـ عمر رضا كحالة

(معجم المؤلفين)

دار احياء التراث ـ بيروت ٠

ـ عمر فروح (الدكتور)

(ابن حزم الكبير) دار لبنان للطباعةوالنشر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٠هـ

(تاريخ الادب العربى)

جزء ٤ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ٠

(تاريخ الفكر العربى الى آيام ابن خلدون)

بيروت ـ دار العلم للملايين ١٣٩٢هـ ٠

(ابن طفيل وقصته حى بن يقظان)

دار لبنان ـ بيروت ـ ١٤٠٢هـ ٠

ـ محمد أبو زهرة

(ابن حزم حياته وعصره)

الطبعة الثانية ـ مطبعة احمد على مخيمر ٠

ـ محمد رجب البيومى (الدكتور)

(الادب الاندلسى بين التأثير والتأثر)

المجلس العلمى ـ جامعة الامام محمد بن سعود ٠

ـ محمد رضوان الداية (الدكتور)

(تاريخ النقد فى الاندلس)

مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م ٠

ـ محمد سيد احمد المسير

(المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الاسلام منه)

مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق ـ بيروت ـ مكتبة دار التراث ـ

المدينة المنورة ط٢ ـ ١٤٠٤هـ ٠

ـ محمد عاطف عراقى (الدكتور)

(الميتافيزقيا فى فلسفة ابن طفيل)

دار المعارف ـ الطبعة الثانية ٠

ـ محمد حسن عبدالله (الدكتور)

(الحب فى التراث العربى)

سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت صفر ١٤٠١هـ ٠

- محمد عبدالله عنان

(نهاية العرب وسقوط الاندلس ،وتاريخ العرب المتنصرين)

مطبعة لجنة التأليف والنشر ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ٠

(دولة الاسلام فى الاندلس)

العصر الاول ـ لجنة التأليف ـ القاهرة ١٣٦٢هـ ٠

- محمد عبدالمنعم خفاجى (الدكتور)

(قصة الادب فى الاندلس)

مطبعة المعارف بيروت ١٩٦٢م ٠

- محمد عبدالوهاب خلاف (الدكتور)

(قرطبة الاسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى ـ الخامس

الهجرى)

الدار التونسية للنشر ٠

- محمد غنيمى هلال (الدكتور)

(الادب المقارن)

دار العودة والثقافة ،الطبعة الخامسة ٠

(النقد الادبى الحديث)

دار العودة والثقافة ـ بيروت ١٩٧٣/٧/١م ٠

- محمد فؤاد عبدالباقى

(المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم)

المكتبة الاسلامية ـ استانبول ١٩٨٤م ٠

- محمد مندور (الدكتور)

(الادب وفنونه)

نشر معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة .

(الادب ومذاهبه)

دار نهضة مصر بالفجالة - الطبعة الثالثة .

- مصطفى السيوفى (الدكتور)

(ملامح التجديد في النثر الاندلسي خلال القرن الخامس الهجرى)

عالم الكتب - الطبعة الاولى - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- مصطفى الشكعة (الدكتور)

(الادب الاندلسي - موضوعاته وفنونه)

دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٥م .

(الادب فى موكب الحضارة الاسلامية)

الجزء الاول - دار الكتاب اللبنانى - بيروت - الطبعة الثانية .

- مصطفى عبدالواحد (الدكتور)

(دراسة الحب فى الادب العربى)

دار المعارف بمصر ١٩٧٢م .

- مصطفى عليان (الدكتور)

(تيارات النقد فى الاندلس فى القرن الخامس)

الطبعة الاولى - مؤسسة الرسالة .

- مصطفى ناصف

(الدراسة الادبية)

مطبعة الدار للقومية - القاهرة .

- نبيه حجاب (الدكتور)

(بلاغة الكتاب في العصر الحديث)

القاهـــرة .

قائمة المراجع المترجمة

المترجمات :

- آنخل بالانثيا

(تاريخ الفكر الاندلسى)

ترجمة الدكتور حسين مؤنس - النهضة المصرية ١٩٥٥م .

- اميل آسين بلاثيوس

(ابن حزم القرطبى)

أوستين وارين ، ورينيه ويلك .

(نظرية الادب)

ترجمة محيى الدين صبحى - المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية - مطبعة خالد الطرابيشى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

- كراتشكوفسكى

(الشعر العربى فى الاندلس)

ترجمة محمد منير مرسى ، تقديم محمد هيكل ، عالم الكتب ١٩٧١م .

- جارثيا جومث

(الشعر الاندلسى)

ترجمة الدكتور حسين مؤنس سلسلة الالف كتاب ادارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم .

(مع شعراء الاندلس والمتنبى)

ترجمة د. طاهر مكى ـ دار المعارف/ ١٩٧م القاهرة .

ـ ده بور

(تاريخ الفلسفة فى الاسلام)

ترجمة محمد عبدالهادى ابو ريده ـ القاهرة ١٣٥٧هـ .

ـ رينهارت دوزى

(ملوك الطوائف)

ترجمة كامل كيلانى فى ١٩٣٣م .

ـ زيغريد هونكة

(شمس العرب تسطع على الغرب)

أثر الحضارة العربية فى أوروبا ـ نقله الى العربية عن الالمانية ؛ فاروق بيضون ،وكمال دسوقى . راجعه : مارون عيسى الخورى ـ المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط ٣ .

ـ فؤاد سزكين

(تاريخ التراث العربى)

المجلد الثانى ـ الجزء الخامس ،نقله الى العربية الدكتور عرفة مصطفى ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

- فون شاك ـ مستشرق فرنسى

(الفن العربى فى اسبانيا وصقلية)

ترجمة طاهر مكى ـ دار المعارف ١٩٧٨م .

- كارل بروكلمان

(تاريخ الادب العربى)

نقله الى العربية عبدالحليم النجار ،ط٥،دار المعارف .

(تاريخ الشعوب الاسلامية)

ترجمة منير بعلبكى وزميله ١٩٥٤م ـ دار العلم للملايين .

- لاستانلى لين بول

(العرب فى أسبانيا)

ترجمة على الجارم ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٤٧م .

- لانسون ومابيه

(النقد المنهجى عند العرب)

ترجمة الدكتور محمد مندور ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة ـ القاهرة .

- ليفى بروفنسال

(الاسلام فى المغرب والاندلس)

ترجمة الدكتور محمد عبدالعزيز سالم ،ومحمد صلاح الدين حلمى ـ نهضة مصر سنة ١٩٥٧م .

وكذلك ترجمة د. عبدالهادى شعيرة ـ المطبعة الاميرية ١٩٥١م .

- ليفى بروفنسال

(الشرق الاسلامى والحضارة العربية الاندلسية)

ترجمة ألفريد البستانى تطوان سنة ١٩٥١م .

(سلسلة محاضرات عامة فى ادب الاندلس وتاريخها)

ألقاها عام ١٩٤٧م ترجمها الى العربية محمد عبدالهـــــادى

شعيرة - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٥١م .

- يوسف أشباخ

(تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين)

ترجمة عبدالله عنان - القاهرة ١٩٥٨م .

- مانويل مورينوجومث

(الفن الاسلامى فى آسبانيا)

ترجمة كامل كيلانى ١٩٣٣م .

- نيكل - مستشرق انجليزى

(مختارات من الشعر الاندلسى) نشر عمر فروخ - بيروت ١٩٤٩م.

دوائر المعارف والدوريّات

دوائر المعارف :

(دائرة المعارف الاسلامية)

الترجمة العربية ـ طبعة دار الشعب ـ مادة ابن طفيل .

(دائرة المعارف البستانية)

فؤاد أفرام البستانى ـ مادة ابن طفيل .

الدوريـــــات :

ـ الاندلس : مجلة الاندلس المجلد ١٦ سنة ١٩٥١م .

ـ الاهرام : العدد ٣٦٠٩٨ الثلاثاء محرم ١٤٠٦هـ ـ مقال للدكتور زكى نجيب محمود .

ـ الاهرام : فى ١٤٠٦/١١/٧هـ الموافق ١٩٨٦/٧/٣م ـ مقال عن طفل يحاكى القردة فى تصرفاتها .

ـ الدوحة القطرية لعام ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦م .

ـ الحوار : مجلة تصدر فى بيروت ـ العدد الثانى ـ كانون الثانى ١٩٦٣م .

ـ الفيصل : مجلة تصدر فى المملكة العربية السعودية ـ السنة الاولى عدد ١٠ مقال للدكتور محمد بن سعد الشويعر .

ـ محاضرات كلية اللغة العربية ـ جامعة ام القرى لعام ١٤٠٣ هـ / ١٤٠٤هـ (مقال للدكتور عبدالحكيم حسان بعنوان " تأثير القصص العربى ") .

محتوى الرسالة

محتوى الرسالة

الموضوع	رقم الصفحة

٤ — الباب الثانــى :-

(اعترافات ابن حزم العاطفية) أو (طوق الحمامة).

٥ – الباب الثالث :–

(اعترافات الفكر بين رياض الفن أو " قصة حي بن يقظان" لابن طفيل).

—..............—